

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين احمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي

منشورات المكتب الإسلامي بدمشق

al-Imān



تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين احمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي

منشورات المكتب الاسلامي بدمشق

المكتب الاسلامي
للطباعة والنشر
دمشق – الحلبوني
ص . ب : ٨٠٠ – هاتف : ١١٦٣٧ – برقياً : (إسلامي)

١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م

مقدمة الناشر

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد ، فإن كتاب «الإيمان» من كتب شيخ الاسلام النافعة ومؤلفاته المفيدة وقد طبع مرات [1] متعددة ، ونفذت نسخه ، وما زالت حاجة الناس إليه ملحة .

وقد تنبه لهذا أستاذنا الجليل العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ، فنصح بإعادة طبعه ، فبادر الأخ الفاضل صالح بن عبد العزيز الراجحي ، ومكتبة دار الثقافة الإسلامية بالرياض بإعادة طبعه .

وقد قام شيخ الاسلام بالكلام على هذا الأصل الهام من أصول الدين بكلام شاف ، أورد فيه كل ما يحتاجه المسلم لمعرفة اعتقاده ، وما يكون حجة على المعاند في ابتعاده وكفره . ففيه بيان حقيقة الإيمان وشعبه ، والفرق بينه وبين الإسلام والاحسان ، وفيه الرد على أهل البدع والضلالات .

---

(١) طبع في دهلي سنة ١٣١١ هـ ، وفي مصر سنة ١٣٢٥ . ودهلي هو الاسم الاسلامي لهذه البلدة الذي استعمله المسلمون . وأما دلهي فهو من التقليد للاجانب في تحريف أسماء بلادنا الاسلامية .

وقد اعتمدنا في طبعه على الطبعة الهندية المقابلة على نسخة خطية في نجد مع مراجعة الطبعات الثانية .

وبذلنا في تصحيحه والعناية بطبعه ما يتناسب مع جلالة قدر هذا الكتاب ، ورقمنا الآيات المذكورة . وقام أستاذنا الجليل محدث الشام الشيخ ناصر الدين الألباني بتخريج موجز للأحاديث الواردة فيه ، ووضعنا له فهرساً مفصلاً .

وإنا لنرجو الله أن يحسن مثوبة مؤلفه ، والمعين على طبعه ، وأن لا يحرمنا من أجره وثوابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق ٨ / ٤ / ١٣٨١ هـ

ابو بكر
زهير شاويش

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله،صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله ، وقد كثر كلام الناس في حقيقة الايمان والاسلام ، ونزاعهم واضطرابهم ؛ وقد صنفت في ذلك مجلدات ، والنزاع في ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف . ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي، ﷺ ، مع ما يستفاد من كلام الله تعالى ؛ فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله ، فإن هذا هو المقصود . فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء؛ بل نذكر من ذلك ـ في ضمن بيان مايستفاد من كلام الله ورسوله ـ ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا ، وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة .

فنقول : قد فرق النبي، ﷺ ، في حديث جبريل ، عليه السلام، بين مسمى الإسلام ، ومسمى الإيمان ، ومسمى الإحسان ؛ فقال : « الاسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ».(١)

وقال : « الايمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

والفرق مذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم ، وفي حديث أبي هريرة

---

(١) اخرجه الشيخان .

الذي اتفق البخاري ومسلم عليه ، وكلاهما فيه : أن جبرائيل جاءه في صورة إنسان أعرابي فسأله . وفي حديث عمر : أنه جاءه في صورة أعرابي .

وكذلك فسر الاسلام في حديث ابن عمر المشهور ، قال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان[1] ».

وحديث جبرائيل يبين أن الاسلام المبني على خمس ؛ هو الاسلام نفسه ، ليس المبني غير المبني عليه ؛ بل جعل النبي ، ﷺ ، الدين ثلاث درجات : أعلاها الاحسان ، وأوسطها الايمان ، ويليه الاسلام ؛ فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسناً ، ولا كل مسلم مؤمناً ، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ في سائر الاحاديث ، كالحديث الذي رواه حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن رجل من أهل الشام ، عن أبيه ، عن النبي ، ﷺ ، قال له : « أسلم تسلم . قال: وما الاسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك . قال : فأي الاسلام أفضل ؟ قال : الايمان . قال : وما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالبعث بعد الموت . قال : فأي الايمان أفضل ؟ قال : الهجرة . قال: وما الهجرة؟ قال : أن تهجر السوء . قال : فأي الهجرة أفضل؟ قال : الجهاد . قال : وما الجهاد؟ قال : أن تجاهد ، أو تقاتل الكفار إذا لقيتهم ، ولا تغلل ، ولا تجبن » .

ثم قال رسول الله ، ﷺ : «عملان هما أفضل الاعمال ، إلا من عمل بمثلها ، قالها ثلاثا : حجة مبرورة ، أو عمرة » . رواه أحمد ، ومحمد بن نصر المروزي .

ولهذا نذكر هذه المراتب الأربعة فنقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر السيئات ،

---

(١) اخرجه الشيخان .

والمجاهد من جاهد نفسه لله ».[1] وهذا مروي عن النبي ، ﷺ ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وفضالة بن عبيد ، وغيرهما باسناد جيد ، وهو في «السنن» ، وبعضه في « الصحيحين » .

وقد ثبت عنه من غير وجه أنه قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » . ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال ؛ كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه . وكذلك في حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو بن عبسة .

وفي حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضاً ، عن أبيه ، عن جده[2] ، أنه قيل لرسول الله ، ﷺ : « ما الاسلام ؟ قال : إطعام الطعام ، وطيب الكلام . قيل : فما الايمان ؟ قال : السماحة والصبر . قيل : فمن أفضل المسلمين إسلاماً ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . قيل : فمن أفضل المؤمنين إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً . قيل فما أفضل الهجرة ؟ قال : من هجر ما حرم الله عليه . قال : أي الصلاة أفضل ؟ قال : طول القنوت . قال : أي الصدقة أفضل ؟ قال : جهد مقل . قال : أي الجهاد أفضل ؟ قال : أن تجاهد بمالك ونفسك ؛ فيعقر جوادك ، ويراق دمك . قال : أي الساعات أفضل ؟ قال : جوف الليل الغابر ».

ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض ؛ وإلا فالمهاجر لابد أن يكون مؤمناً ، وكذلك المجاهد ، ولهذا قال : « الايمان : السماحة والصبر » . وقال في

---

(١) رواه أحمد بهذا التام عن فضالة بسند صحيح .

(٢) يعني عميراً وهو ابن قتادة الليثي ، ولم أجد الحديث في «مسنده» ، وسياتي في الكتاب (ص ١٥٥) أنه يروى تارة عن عبيد بن عمير مرسلا ، وتارة عنه عن عمرو بن عبسة مسندا . فلعل قوله هنا : «عن جده » . خطأ من بعض النساخ ، أو أنه وجه آخر في الرواية ، لم يتعرض له المؤلف هناك . ويؤيد هذا أن الطبراني روى بعض هذا الحديث عن عمير بن قتادة كما في « المجمع » (١/٥٨) وسنده ضعيف .

الاسلام : « إطعام الطعام ، وطيب الكلام » . والأول مستلزم للثاني ؛ فإن من كان خلقه السماحة، فعل هذا بخلاف الأول ؛ فإن الانسان قد يفعل ذلك تخلقاً ، ولا يكون في خلقه سماحة وصبر . وكذلك[1] قال: « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده». وقال: «أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ». ومعلوم أن هذا يتضمن الأول ؛ فمن كان حسن الخلق فعل ذلك .

قيل للحسن البصري : ما حسن الخلق ؟ قال : بذل الندى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه . فكف الاذى جزء من حسن الخلق . وستأتي الاحاديث الصحيحة بأنه جعل الاعمال الظاهرة من الايمان ، كقوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ».[2] وقوله لوفد عبد القيس: « آمركم بالله وحده ، أتدرون ما الايمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » .

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ؛ لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من ايمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الايمان ، وفي «المسند» عن أنس ، عن النبي ﷺ ، أنه قال: «الاسلام علانية، والايمان في القلب»[3] .وقال ﷺ: « إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب».[4] فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً ، بخلاف العكس .

وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الى بعض بهؤلاء الكلمات : من أصلح سريرته ؛ أصلح الله علانيته . ومن أصلح ما بينه وبين الله ؛

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي نسخة (ولذلك) (٢) اخرجه الشيخان (٣) اسناده ضعيف (٤) رواه البخاري

أصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن عمل لآخرته ؛ كفاه الله أمر دنياه . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص .

فعلم أن القلب إذا صلح بالايمان؛ صلح الجسد بالاسلام ، وهو من الايمان؛ يدل على ذلك أنه قال في حديث جبرائيل : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم »[1] . فجعل الدين هو الاسلام ، والايمان ، والاحسان . فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة ، لكن هو درجات ثلاث : مسلم ثم مؤمن ثم محسن ، كما قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)[2] والمقتصد والسابق كلاهما يدخلان الجنة بلا عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه . وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع تصديق القلب ، لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن ؛ فإنه معرض للوعيد ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وأما الاحسان فهو أعم من جهة نفسه ، وأخص من جهة أصحابه من الايمان . والايمان أعم من جهة نفسه ، وأخص من جهة أصحابه من الاسلام . فالاحسان يدخل فيه الايمان ، والايمان يدخل فيه الاسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من المسلمين ، وهذا كما يقال في الرسالة والنبوة ؛ فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها ، وأخص من جهة أهلها ؛ فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً ؛ فالأنبياء أعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها ، بخلاف النبوة ؛ فإنها لا تتناول الرسالة .

والنبي، ﷺ، فسر الاسلام والايمان بما أجاب به ، كما يجاب عن المحدود بالحد، إذا قيل ما كذا ؟ قيل : كذا وكذا ، كما في الحديث الصحيح ، لما قيل : ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره ».[3] وفي الحديث الآخر : « الكبر بطر الحق وغمط

---

(١) رواه مسلم (٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٢ (٣) رواه مسلم

الناس».[1] وبطر الحق : جحده ودفعه . وغمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم . وسنذكر – إن شاء الله تعالى – سبب تنوع أجوبته ، وأنها كلها حق .

ولكن المقصود أن قوله : « بني الاسلام على خمس » ؛ كقوله : « الاسلام هو الخمس» ، كما ذكر في حديث جبرائيل ؛ فإن الأمر مركب من أجزاء ، تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منها؛ فالاسلام مبني على هذه الأركان . – وسنبين إن شاء الله – اختصاص هذه الخمس بكونها هي الاسلام ، وعليها بني الاسلام ، ولمَ خصت بذلك دون غيرها من الواجبات ؟

وقد فسر الايمان في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الاسلام هنا ، لكنه لم يذكر فيه الحج ، وهو متفق عليه « فقال: « آمركم بالايمان بالله وحده ، هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم ، أو خمساً من المغنم».

وقد روي في بعض طرقه :« الايمان بالله ، وشهادة أن لا إله الله » . لكن الأول أشهر . وفي رواية أبي سعيد : « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً». وقد فسر – في حديث شعب الايمان – الايمان بهذا وبغيره، فقال : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان ».[2]

وثبت عنه من وجوه متعددة أنه قال : « الحياء شعبة من الايمان ».[3] من حديث ابن عمر ، وابن مسعود ، وعمران بن حصين . وقال أيضـاً : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين».[4] وقال : لايؤمن

---

(١) رواه مسلم والبخاري في (الأدب المفرد) وأحمد .
(٢) متفق عليه (٣) متفق عليه (٤) متفق عليه

أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه »[1]. وقال : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن . قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه ».[2] وقال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »[3]. وقال : « مابعث الله من نبي إلا كان في أمته قوم يهتدون بهديه ، ويستنون بسنته . ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لايفعلون ، ويفعلون مالايؤمرون ؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ، وهذا من أفراد مسلم .

وكذلك في افراد مسلم قوله: «والذي نفسي بيده لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ : أفشوا السلام بينكم » وقال في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة ، ورواه البخاري من حديث ابن عباس ، قال النبي ﷺ: «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب النهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم وهو مؤمن » .

فيقال : اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولاغيرهما ، وتارة يذكر مقرونا ؛ إما بالاسلام كقوله في حديث جبرائيل : « ما الإسلام وما الإيمان » ؟ وكقوله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات)[4]. وقوله عز وجل : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[5] . وقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)[6]. وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح ؛ وذلك في مواضع

---

(١) متفق عليه (٢) البخاري (٣) رواه مسلم (٤) سورة الاحزاب ، الآية : ٣٥
(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٦) سورة الذاريات ، الآية : ٣٦

من القرآن ، كقوله تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات[١]) . وإما مقروناً بالذين أوتوا العلم ، كقوله تعالى : (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان)[٢] . وقوله : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[٣] . وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم ؛ فإنهم خيارهم ، قال تعالى : (والراسخون في العلم يقولون: آمنا به ، كل من عند ربنا)[٤] . وقال : (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك)[٥] .

ويذكر أيضاً لفظ المؤمنين مقروناً بالذين هادوا والنصارى والصابئين ، ثم يقول : (من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم)[٦] . فالمؤمنون في ابتداء الخطاب غير الثلاثة ، والإيمان الآخر عمهم ، كما عمهم في قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية)[٧] . وسنبسط هذا إن شاء الله تعالى .

فالمقصود هنا العموم والخصوص بالنسبة إلى ما في الباطن والظاهر من الإيمان . وأما العموم بالنسبة إلى الملل ؛ فتلك مسألة أخرى . فلما ذكر الإيمان مع الإسلام؛ جعل الإسلام هو الاعمال الظاهرة : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج . وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ، أنه قال: « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب[٨] » .

وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً ؛ دخل فيه الاسلام والأعمال الصالحة ، كقوله في حديث الشعب : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية: ٢٧٧ (٢) سورة الروم ، الآية : ٥٦ (٣) سورة المجادلة ، الآية : ١١ (٤) سورة آل عمران ، الآية ٧ (٥) سورة النساء ، الآية : ١٦٣ (٦) سورة البقرة ، الآية : ٦٢ (٧) سورة البينة ، الآية ٧ (٨) ضعيف كما تقدم

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».[١] وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان.

ثم إن نفي الإيمان عند عدمها؛ دل على أنها واجبة، وإن ذكر فضل إيمان صاحبها ـ ولم ينف إيمانه ـ دل على أنها مستحبة؛ فإن الله ورسوله لا ينفيان اسم مسمى أمر، أمر الله به ورسوله، إلا إذا ترك بعض واجباته، كقوله: «لا صلاة إلا بأم القرآن»[٢]. وقوله: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[٣]. ونحو ذلك.

فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة؛ لم ينفها لانتفاء المستحب، فإن هذا لو جاز؛ لجاز أن ينفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ، بل ولا أبو بكر ولا عمر. فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه؛ لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين، وهذا لا يقوله عاقل.

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد أنه نفي الكمال؛ الواجب الذي يذم تاركه، ويتعرض للعقوبة؛ فقد صدق. وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب؛ فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله، ولا يجوز أن يقع، فإن من فعل الواجب كما وجب عليه، ولم ينتقص من واجبه شيئاً؛ لم يجز أن يقال: ما فعله لا حقيقة ولا مجازاً. فإذا قال للأعرابي المسيء في صلاته: «ارجع فصل فإنك لم تصل»[٤]. وقال لمن صلى خلف الصف ـ وقد أمره بالاعادة: «لا صلاة لفذ خلف الصف»[٥]. كان لترك واجب. وكذلك قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون)[٦]. يبين أن الجهاد

---

(١) متفق عليه كما تقدم (٢) متفق عليه (٣) رواه احمد وغيره من طرق وهو حديث صحيح
(٤) متفق عليه (٥) رواه احمد وغيره من طرق وهو حديث صحيح (٦) سورة الحجرات، الآية: ١٥

واجب، وترك الارتياب واجب. والجهاد ـ وإن كان فرضاً على الكفاية ـ فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداءً ؛ فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه ، والعزم على فعله إذا تعين ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ؛ مات على شعبة نفاق ». رواه مسلم . فأخبر أنه من لم يهم به ؛ كان على شعبة نفاق .

وأيضاً، فالجهاد جنس تحته أنواع متعددة ، ولا بد أن يجب على المؤمن نوع من أنواعه . وكذلك قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً)[١] . هذا كله واجب ؛ فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات ، كما أن الاخلاص لله واجب ، وحب الله ورسوله واجب . وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه)[٢]. وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[٣] . وقال تعالى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[٤] . وقال تعالى : (وقال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[٥] .

وأما قوله : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً)[٦] . فيقال : من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه ، بحيث إذا كان الانسان مؤمناً ؛ لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له ، وإذا لم يوجد ؛ دل على أن الايمان الواجب لم يحصل في القلب ، وهذا كقوله

---

(١) سورة الانفال ، الآيات : ٢-٤ (٢) سورة هود ، الآية : ٢٣ (٣) سورة التغابن ، الآية : ١٣ (٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٦ (٥) سورة يونس ، الآية: ٨٤ (٦) سورة الانفال ، الآية : ٢

تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)[1] . فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله ؛ فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر ، فإذ وجد الإيمان انتفى ضده ، وهو موالاة أعداء الله ، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه ؛ كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون)[2] . فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف « لو » التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط ، فقال : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء). فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب . ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ؛ ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي ، وما أنزل اليه .

ومثله قوله تعالى : (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[3] . فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمناً وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم ؛ فالقرآن يصدق بعضه بعضاً . قال الله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم)[4] الآية . وكذلك قوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)[5] . دليل على أن الذهاب المذكور بدون استئذانه

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ (٢) سورة المائدة ، الآيتان : ٨٠ ، ٨١ (٣) سورة المائدة ، الآية : ٥١ (٤) سورة الزمر ، الآية : ٢٣ (٥) سورة النور ، الآية . ٦٢

لا يجوز ، وأنه يجب أن لا يذهب حتى يستأذن ، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب عليه من الإيمان ؛ فلهذا نفى عنه الإيمان ، فإن حرف « إنما » تدل على إثبات المذكور ونفي غيره .

ومن الأصوليين من يقول : إن « إن » للاثبات « وما » للنفي ، فإذا جمع بينهما دلت على النفي والاثبات ،وليس كذلك عند أهل العربية ، ومن يتكلم في ذلك يعلم ، فإن «ما» هذه هي الكافة التي تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل؛ لأنها إنما تعمل إذا اختصت بالجمل الاسمية ، فلما كفت بطل عملها واختصاصها ، فصار يليها الجمل الفعلية والاسمية ؛ فتغير معناها وعملها جميعاً بانضمام ما إليها ، وكذلك كأنما وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون)[1]. فإن قيل : إذا كان المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات ؛ فقد قال : (أولئك هم المؤمنون حقاً)[2] ولم يذكر إلا خمسة أشياء . وكذلك قال في الآية الأخرى :(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[3]. وكذلك قوله : (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) .[4]

قيل عن هذا جوابان :

---

(١) سورة النور ، الآيات : ٤٧-٥١ (٢) سورة الانفال ، الآية : ٤ (٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٥ (٤) سورة النور ، الآية : ٦٣

أحدهما : أن يكون ما ذكر مستلزماً لما ترك ؛ فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله ، وزيادة إيمانهم إذا تليت آياته مع التوكل عليه ، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع ؛ فكان هذا مستلزما للباقي ، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه. وقد فسروا وجلت بفرقت . وفي قراءة ابن مسعود :(إذا ذكر الله فرقت قلوبهم)[1] . وهذا صحيح ؛ فإن الوجل في اللغة هو الخوف ، يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل. ومنه قوله تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون)[2] قالت عائشة: « يا رسول الله اهو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : لا يابنت الصديق ! هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

وقال السدي في قوله تعالى (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[3] : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه . وهذا كقوله تعالى :(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[4] وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[5] قال مجاهد وغيره من المفسرين :هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يدي الله ؛ فيتركها خوفاً من الله .

وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته ؛ فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور ، وترك المحظور . قال سهل بن عبد الله : ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق اليه أقرب من الافتقار ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله . ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[6] . فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله.

---

(١) سورة الانفال ، الآية : ٢ (٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠ (٣) سورة الانفال الآية : ٢ (٤) سورة النازعات ، الآيات : ٤٠، ٤١ (٥) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ (٦) سورة الاعراف ، الآية : ٥٤

قال مجاهد وإبراهيم : هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن أبي الدنيا ، عن ابن الجعد ، عن شعبة ، عن منصور ، عنهما ، في قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[1] . وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[2] . وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى : (آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[3] كما قال في آية البر : (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[4] . وهؤلاء هم المتبعون للكتاب ، كما في قوله تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)[5] . وإذا لم يضل فهو متبع مهتد ، وإذا لم يشق فهو مرحوم ، وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؛ فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم ، وأهل الهدى ليسوا ضالين . فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله ، مستحقين لجنته بلا عذاب ، وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[6] . والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم ؛ فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم ، كما قال في الآية الأخرى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[7] والخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله .

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال : العلماء ثلاثة : فعالم بالله ليس عالماً

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ (٢) سورة البقرة ، الآية : ٥ (٣) سورة البقرة ، الآيات : ١-٣ (٤) سورة البقرة ، الآية: ٧٧ (٥) سورة طه ، الآية : ١٢٣ (٦) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ (٧) سورة الزمر ، الآية : ٩

بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله . فالعالم بالله هو الذي يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه ، وفي « الصحيح » عن النبي ﷺ ، أنه قال : « والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده ».

وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة ، لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى : (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد)[1] . وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[2] . فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب . فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ؛ ولهذا يقال للفاجر: لايخاف الله . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب)[3] .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، وكذلك سائر المفسرين . قال مجاهد : كل عاص فهو جاهل حين معصيته . وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم: إنما سموا جهالاً لمعاصيهم ، لا أنهم غير مميزين. وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء ؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً ، وإنما يحتمل أمرين :

أحدهما : أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه . والثاني : أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة ، وآثروا العاجل على الآجل ؛ فسموا جهالاً لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والراحة الدائمة . فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل ، وإما فساد الارادة ، وقد يقال : هما متلازمان ، وهذا

---

(١) سورة ابراهيم ، الآيتان : ١٣، ١٤ (٢) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ (٣) سورة النساء ، الآية : ١٧

مبسوط في الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله ؛ وإنما يكون جاهلًا لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص . ومنه قول ابن مسعود ، رضي الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلًا. وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه ، فإذا لم يهرب من هذا ، ولم يطلب هذا ؛ دل على أنه لم يتصوره تصوراً تاماً ، ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر به. وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً ؛ فإن الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً . وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ، ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه ، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به ؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري ، ويروى مرسلًا عن النبي ، ﷺ : «العلم علمان» ، فعلم في القلب ، وعلم على اللسان . فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده »[1].

وقد أخرجا في «الصحيحين» عن أبي موسى ، عن النبي ، ﷺ ، أنه قال: « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ، طعمها مر ولاريح لها » . وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه ، وقد يصدق أنه كلام الله وأن الرسول حق ، ولا يكون مؤمناً . كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين ، وكذلك

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه بسند ضعيف مرفوعا .

إبليس وفرعون وغيرهما. لكن من كان كذلك ؛ لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة ، فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لامحالة ؛ ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه : إنه جاهل ، كما تقدم.

وكذلك لفظ العقل، وإن كان هو في الأصل : مصدر عقل يعقل عقلاً ، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم ؛ فلا بد أن يعتبر مع ذلك أنه علم يعمل بموجبه ، فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه ، والشر فتركه ؛ ولهذا قال أصحاب النار : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير)[١] . وقال عن المنافقين : (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)[٢] . ومتى فعل ما يعلم أنه يضره ؛ فمثل هذا ما له عقل . فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به ؛ فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته . فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه ، وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولاً . ويدل على ذلك ايضاً قوله تعالى : (فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى)[٣] .

فأخبر أن من يخشاه يتذكر ، والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال الله تعالى : (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب)[٤]. وقال : (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)[٥] . ولهذا قالوا في قوله (سيذكر من يخشى)[٣] :سيتعظ بالقرآن من يخشى الله .وفي قوله (وما يتذكر إلا من ينيب)[٤]: إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة . وهذا لأن التذكر التام يستلزم العمل[٦] بما تذكره ؛ فإن تذكر محبوباً طلبه ، وإن تذكر مرهوباً هرب منه ، ومنه قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)[٧] . وقال سبحانه : (إنما تنذر من اتبع

---

(١) سورة تبارك ، الاية : ١٠

(٢) سورة الحشر ، الاية : ١٤

(٣) سورة الاعلى ، الايات : ٩-١٢

(٤) سورة غافر ، الاية: ١٣

(٥) سورة ق ، الاية:٨

(٦) وعلى هامش النسخة الهندية ، وفي نسخة : « التأثر »

(٧) سورة يس ، الاية : ١٠

الذكر وخشي الرحمن بالغيب)[١] . فنفى الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)[٢] . فأثبت لهم الإنذار من وجه ، ونفاه عنهم من وجه ؛ فإن الإنذار هو الإعلام بالخوف . فالإنذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم ؛ فقد تم تعليمه ، وآخر يقول : علمته فلم يتعلم . وكذلك من خوفته فخاف ؛ تم تخويفه . وأما من خوف فما خاف ؛ فلم يتم تخويفه . وكذلك من هديته فاهتدى ؛ تم هداه ، ومنه قوله تعالى : (هدى للمتقين) . ومن هديته فلم يهتد ، كما قال : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) ؛ فلم يتم هداه ، كما تقول : قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم أثره ؛ فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً ، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً ؛ تم ، وإلا لم يتم . والعلم بالمحبوب يورث طلبه ، والعلم بالمكروه يورث تركه ؛ ولهذا يسمى هذا العلم : الداعي ، ويقال : الداعي مع القـــدرة يستلزم وجود المقدور ، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد ، وهذا كله[٣] مع صحة الفطرة وسلامتها ، وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجـد له لذة بل يؤلمه ، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة ، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً ، كالممرور الذي يجد العسل مراً ؛ فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة[٤] التي مازجته . وكذلك من فسد باطنه ، قال تعالى : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون)[٥] .

وقال تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)[٦] .وقال : (وقولهم قلوبنا غلف

---

(١) سورة يس ، الاية : ١١ (٢) سورة يس ، الاية : ١٠

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي نسخة : « إنما يحصل »

(٤) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي نسخة : « المرارة »

(٥)سورة الانعام ، الاية ، ١١٠ (٦) سورة الصف ، الاية ، ٥

بل طبع الله عليها بكفرهم)[1] .وقال في الآية الأخرى :(وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم)[2] . والغلف : جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقلف، كأنهم جعلوا المانع خلقة ، أي خلقت القلوب وعليها أغطية ، فقال الله تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم)[2] وطبع الله عليها بكفرهم (فلا يؤمنون إلا قليلاً)[3] .وقال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ، أولئك الذين طبع على قلوبهم واتبعوا أهواءهم)[4] .

وكذلك قالوا: (يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول)[5] قال : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم)[6] أي لأفهمهم ماسمعوه. ثم قال :ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها، (لتولوا وهم معرضون) فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ، ولو فهموا لم يعملوا ، فنفى عنهم صحة القوة العلمية ، وصحة القوة العملية ، وقال : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[7] . وقال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)[8] . وقال : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون)[9] وقال عن المنافقين : (صم بكم عمي فهم لا يرجعون)[10] .

ومن الناس من يقول : لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق ؛ جعلوا صماً بكماً عمياً، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق، صاروا كالصم العمي البكم، وليس كذلك؛ بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت ، كما قال الله تعالى: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى

---

(١) سورة النساء ، الاية ١٥ٵ
(٢) سورة البقرة ، الاية ٨٨
(٣) سورة النساء ، الاية ٤٦
(٤) سورة محمد ، الاية ١٦
(٥) سورة هود ، الايـة ٩١
(٦) سورة الانفال ، الاية ٢٣
(٧) سورة الفرقان ، الاية ٤٤
(٨) سورة الاعراف ، الاية ٧٩
(٩) سورة البقرة ، الاية ١٧١
(١٠) سورة البقرة ، الاية ١٨

القلوب التي في الصدور)[1] والقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالبدن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى: لا تفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهاً تاماً، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب، وبغض المكروه، فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلاً فجاز نفيه، لأن ما لم يتم ينفى، كقوله للذي أساء في صلاته: «صل فإنك لم تصل» فنفي الإيمان حيث نفي من هذا الباب.

وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب إذ ذكر، وبزيادة الإيمان اذا سمعوا آياته. قال الضحاك: زادتهم يقيناً. وقال الربيع بن أنس: خشية. وعن ابن عباس تصديقاً. وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين في مواضع، قال تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)[2].

والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما: التواضع والذل. والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا، وهذا التواضع والسكون. وعن ابن عباس في قوله: (الذين هم في صلاتهم خاشعون)[3]. قال: مخبتون أذلاء. وعن الحسن وقتادة: خائفون. وعن مقاتل: متواضعون. وعن علي[4]: الخشوع في القلب، وأن يلين للمرء المسلم كنفك، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً. وقال مجاهد: غض البصر وخفض الجناح، وكان الرجل من العلماء إذ قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره، أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا.

---

(١) سورة الحج، الاية، ٤٦ (٢) سورة الحديد، الاية: ١٦

(٣) سورة المؤمنون الاية: ٢

(٤) وعلى هامش النسخة الهندية: كلام علي، رضي الله عنه، اخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، والحاكم وصححه.

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ، ولكنه السكون وحب حسن الهيئة في الصلاة . وعن ابن سيرين وغيره : كان النبي ﷺ ، وأصحابه ينظرون بأبصارهم في الصلاة إلى السماء ، وينظرون يميناً وشمالاً حتى نزلت هذه : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون)[1] الآية. فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون، وما رؤي أحدهم بعد ذلك ينظر الا إلى الأرض[2] . وعن عطاء : هو أن لا تعبث بشيء من جسدك وأنت في الصلاة ، وأبصر النبي ﷺ ، رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[3] . ولفظ الخشوع - إن شاء الله يبسط - في موضع آخر .

وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب ، إذا لم يكن الرجل مرائياً يظهر ما ليس في قلبه كما روي : « تعوذوا بالله من خشوع النفاق»[4] وهو أن يرى الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً ، فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله : (ألم يأن للذين آمنوا أن

---

(١) سورة المؤمنون ، الايتان : ٢،١

(٢) حديث صحيح ، وقد روي موصولا عند الحاكم وغيره . وعلى هامش النسخة الهندية : ان أثر ابن سيرين هذا رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم .

(٣) حديث واه جداً ، وقد تكلمت عليه في الاحاديث الضعيفة (رقم ١١٠) ، وإيراد المؤلف رحمه الله لهذا الحديث مجزوما به مرفوعا الى النبي (ص) من اسوأ ما وقع له، ولو كان هذا من غيره لما استغربناه فانه امام حافظ نقاد ، ولكن لكل جواد كبوة بل كبوات . وعلة الحديث ان فيه سليمان ابن عمرو ، قال ابن عدي: اجمعوا على انه يضع الحديث وكذلك قلت .وضعه في المصدر المشار اليه . وسيعيده المؤلف (١١١) موقوفاً على بعض الصحابة . ولا اصل له ايضا ، انما روي عن سعيد بن المسيب كما يأتي :

وعلى هامش النسخة الهندية : هذا الحديث اخرجه الحكيم الترمذي عن ابي هريرة رضي الله عنه.

(٤)وعلى هامش النسخة الهندية: هذا الحديث رواه الحكيم الترمذي والبيهقي في شعب الايمان عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا : يارسول الله ! وما خشوع النفاق؟ قال : خشوع البدن ونفاق القلب » . وروى احمد في الزهد وابو بكر بن ابي شيبة معناه عن ابي الدرداء موقوفاً عليه.

تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق)[1]. فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

وكذلك قال في الآية الأخرى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[2]. والذين يخشون ربهم، هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم.

فإن قيل: فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب، قيل: نعم لكن الناس فيه على قسمين: مقتصد وسابق، فالسابقون يختصون بالمستحبات، والمقتصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة، ومن لم يكن من هؤلاء، ولا هؤلاء، فهو ظالم لنفسه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع».

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع، فقال تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة)[3]. قال الزجاج: قست في اللغة: غلظت ويبست وعست. فقسوة القلب، ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه. والقاسي والعاسي: الشديد الصلابة. وقال ابن قتيبة: قست وعست وعتت، أي يبست. وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة، فإنه ينبغي ان يكون قوياً من غير عنف، وليناً من غير ضعف. وفي الأثر: القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها. وهذا كاليد فإنها قوية لينة، بخلاف ما يقسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه، وإن كان فيه قوة. وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره، ثم ذكر زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه علماً وعملاً.

---

(١) سورة الحديد، الاية: ١٦ (٢) سورة الزمر، الاية ٢٣

(٣) سورة البقرة، الاية: ٧٤

ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ، ومن طاعته فيما يقدر عليه ، وأصل ذلك الصلاة والزكاة ، فمن قام بهذه الخمس كما أمر ، لزم أن يأتي بسائر الواجبات ، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر ، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما روي عن ابن مسعود ، وابن عباس : ان في الصلاة منهىً ومزجراً عن معاصي الله، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً »[1] .
وقوله : « لم يزدد الا بعداً » ، اذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله ، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله ، أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل ، وهذا كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال : «تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا » . وقد قال تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا)[2] .

وفي السنن عن عمار ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها ، الا ثلثها ، حتى قال : إلا عشرها »[3] . وعن ابن عباس قال : ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها . وهذا وإن لم يؤمر بإعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتي من التطوعات بما يجبر نقص فرضه . ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن . وأعمالها الظاهرة . وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها ؛ فإنه يأتي بالواجبات ؛ ولا يأتي كبيرة . ومن أتى الكبائر . مثل الزنا . أو السرقة . أو شرب الخمر ؛ وغير ذلك فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ، وان بقي أصل التصديق في قلبه ، وهذا من الإيمان الذي

---

(١) ذكره المصنف رحمه الله موقوفاً ، فأحسن . وقد اشتهر مرفوعاً ، ولا يصح ، وظاهر معناه باطل ، والتأويل الذي ذكره المؤلف بعيد ، كما بينته في الاحاديث الضعيفة « رقم ٢ » .
(٢) سورة النساء ، الاية ، ١٤٢
(٣) حديث حسن

ينزع منه عند فعل الكبيرة ، كما قال النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله : (ان الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[1] فإذا طاف بقلوبهم طيف من الشيطان تذكروا ، فيبصرون .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة ، فيذكر الله ؛ فيكظم الغيظ . وقال[2] ليث عن مجاهد : هو الرجل يهم بالذنب ، فيذكر الله ، فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، فإذا أبصر رجع ثم قال : (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لايقصرون)[3] . أي : وإخوان الشاطين تمدهم الشياطين في الغي ، ثم لايقصرون . قال ابن عباس : لا الإنس تقصر عن السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم ، فإذا لم يبصر بقي قلبه في غمر ، والشيطان يمده من غيه . وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب ، فذلك النور والإبصار ، وتلك الخشية والخوف ، يخرج من قلبه . وهذا ، كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ، وان لم يكن أعمى ، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب ، لا يبصر الحق ، وان لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وهكذا جاء في الآثار ؛ قال احمد بن حنبل في كتاب (الايمان) : حدثنا يحيى ، عن أشعث ، عن الحسن[4] ، عن النبي ﷺ قال : (ينزع منه الإيمان ؛ فإن تاب أعيد اليه) . وقال : حدثنا يحيى ، عن عوف قال : قال الحسن : يجانبه الإيمان ما دام كذلك ، فان راجع راجعه الإيمان . وقال احمد . حدثنا معاوية عن ابي إسحاق ، عن الأوزاعي ، قال : وقد قلت للزهري (حين ذكر هذا الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ») فإنهم يقولون : فإن لم يكن مؤمناً فما هو ؟ قال : فأنكر ذلك ، وكره مسألتي عنه . وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن

---

(١) سورة الاعراف ، الاية : ٢٠١

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : (ابن عيينة عن) .

(٣) سورة الاعراف ، الاية : ٢٠٢

(٤) هو البصري ، فالحديث مرسل .

مهدي ، عن سفيان عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه: من أراد منكم الباءة زوجناه ، لا يزني منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان ، فإن شاء أن يرده رده ، وإن شاء أن يمنعه منعه . وقال ابو داود السجستاني : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي : أنه أخبره عن أبي هريرة أنه كان يقول : « إنما الايمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه أخرى». وكذلك رواه باسناده عن عمر ، وروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً . وفي حديث عن أبي هريرة مرفوع إلى النبي ﷺ : « اذا زنى الزاني خرج منه الايمان فكان كالظلة ، فإذا انقطع رجع اليه الإيمان »[1]. وهذا (ان شاء الله) يبسط في موضع آخر .

فصل

وقد جاءت أحاديث تنازع الناس في صحتها ، مثل قوله : «لا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه »[2] . فأما الأول : فهو كقوله : « لاصلاة الا بطهور » وهذا متفق عليه بين المسلمين ؛ فإن الطهور واجب في الصلاة ، فانما نفى الصلاة لانتفاء واجب فيها ، وأما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ؛ ففي وجوبه نزاع معروف ، واكثر العلماء لا يوجبونه ، وهو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي وهو احدى الروايتين عن أحمد ، اختارها الخرقي وابو محمد وغيرهما . والثاني : يجب وهو قول طائفة من أهل العلم ، وهو الرواية الأخرى عن أحمد ، اختارها أبو بكر عبد العزيز ، والقاضي أبو يعلى وأصحابه . وكذلك قوله : « لا صلاة لجار المسجد

---

(١) حديث ثابت .

(٢) قلت : وهو صحيح لطرقه الكثيرة ، وقد سقت بعضها في « ارواء الغليل » .

الا في المسجد »[1] رواه الدار قطني ، فمن الناس من يضعفه مرفوعاً ويقول : هو من كلام علي رضي الله عنه ، ومنهم من يثبته كعبد الحق »[1] وكذلك قوله: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل »[2] . قد رواه اهل السنن ، وقيل : ان رفعه لم يصح ، وانما يصح موقوفاً على ابن عمر او حفصة ، فليس لأحد ان يثبت لفظاً عن الرسول مع انه أريد به نفي الكمال المستحب ؛ فان صحت هذه الالفاظ دلت قطعاً على وجوب هذه الامور ؛ فإن لم تصح فلا ينقص بها أصل مستقر من الكتاب والسنة ، وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه ، ان لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله ؛ والا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله ﷺ ، ليس قول الله ورسوله تابعاً لأقوالهم .

فإذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء ، ولفظ الشارع قد اطرد في معنى؛ لم يجز ان ينقض الاصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء ، ولكن من الناس من لا يعرف مذاهب اهل العلم ، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره فيظنه إجماعاً كمن يظن انه اذا ترك الانسان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته اجماعاً ، وليس الامر كذلك ؛ بل للعلماء قولان معروفان في إجزاء هذه الصلاة ، وفي مذهب أحمد قولان ؛ فطائفة من قدماء أصحابه حكاه عنهم القاضي أبو يعلى في شرح المذهب ، ومن متأخريهم كابن عقيل وغيره يقولون : من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك ؛ فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة ، فإن أمكنه أن يؤديها في جماعة بعد ذلك فعليه ذلك ، والا باء بأثمه كما يبوء تارك الجمعة بإثمه ، والتوبة معروضة . وهذا قول غير واحد من أهل العلم ، واكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا .

---

(١) والصواب أنه حديث ضعيف كما بينته في المصدر السابق .

(٢) صح موقوفاً ومرفوعاً ، والرفع زيادة لا تنافي الوقف .

وقد احتجوا بما ثبت عنه ﷺ، أنه قال: « من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر، فلا صلاة له »[1] وأجابوا عن حديث الفضيل[2] بأنه في المعذور الذي تباح له الصلاة وحده، كما ثبت عنه أنه قال: «صلاة الرجل قاعداً على النصف من صلاة القائم، وصلاة المضطجع على النصف من صلاة القاعد» والمراد به المعذور، كما في الحديث أنه خرج وقد أصابهم وعك وهم يصلون قعوداً[3]، فقال ذلك، ولم يجوز أحد من السلف صلاة التطوع مضطجعاً من غير عذر، ولا يعرف أن أحداً من السلف فعل ذلك، وجوازه وجه في مذهب الشافعي، وأحمد، ولا يعرف لصاحبه سلف صدق، مع أن هذه المسألة مما تعم بها البلوى ؛ فلو كان يجوز لكل مسلم أن يصلي التطوع على جنبه، وهو صحيح لا مرض به، كما يجوز أن يصلي التطوع قاعداً وعلى الراحلة ؛ لكان هذا مما قد بينه الرسول ﷺ لأمته، وكأن الصحابة تعلم ذلك، ثم مع قوة الداعي الى الخير لا بد أن يفعل ذلك بعضهم، فلما لم يفعله أحد منهم، دل على أنه لم يكن مشروعاً عندهم، وهذا مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا أنه ينبغي للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله ؛ بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس الا ما عرف أنه أراده، لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد، فإن كثيراً من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ؛ يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ، وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص، وهذا خطأ، بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الايمان به، فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وليس الاعتناء بمراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس، فاذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد

(١) رواه ابو داود والحاكم واحمد عن ابن عباس وغيره مرفوعا، وبعض اسانيده صحيحة.
(٢) الصواب « التفضيل » ويشير بذلك الى حديث ابي هريرة « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس (وفي رواية بسبع) وعشرين درجة متفق عليه.
(٣) حديث صحيح.

الرسول ؛فكذلك النص الآخر الذي تأوله ، فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه ؛ وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناهما . وأما من يجعلها بمعنى واحد ، كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين؛ فالتأويل عندهم هو التفسير .وأما التأويل في كلام الله ورسوله ؛ فله معنى ثالث غير معناه في اصطلاح المفسرين ، وغير معناه في اصطلاح متأخري الفقهاء والأصوليين ، كما بسط في موضعه .

والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان ، والاسلام ، والدين ، والصلاة ، والصيام ، والطهارة ، والحج وغير ذلك ؛ فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ، ومن هذا قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[١] فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية، دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من أهل الوعيد ، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فإن الله انما وعد بذلك من فعل ما أمر به .

وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها ؛ فهو معرض للوعيد . ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم اذا حكم بشيء ان لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليما . قال تعالى: (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك ،وما انزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . واذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً)[٢] . وقوله: «إلى ما أنزل

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٥ (٢) سورة النساء ، الآيتان : ٦٠ ، ٦١

الله ، وقد أنزل الله الكتاب ،والحكمة وهي السنة ، قال تعـالى: (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به)[1] . وقال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ،وكان فضل الله عليك عظيما)[2] .
والدعاء الى ما أنزل يستلزم الدعاء الى الرسول ، والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما أنزله الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول ؛ فإنهما متلازمان ،فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين)[3] . فإنهما متلازمان ؛ فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى،فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شـاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى . فان كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطيء ، فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطىء .

وهذه الآية تدل على أن اجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمـة لمخالفة الرسول ، وأن كل ما أجمعوا عليه فلا بد أن يكون فيه نص عن الرسول ؛ فكل مسألة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين ؛ فإنها مما بين الله فيـه الهدى ، ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر ، كما يكفر مخالف النص البين . وأما اذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به ، فهنا قد لا يقطع أيضاً بأنها مما تبين فيه الهدى مـن جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر ؛ بل قد يكون ظن الإجماع خطأ . والصواب في خلاف هذا القول ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به مـن مخالفة الإجماع وما لا يكفر .

والاجماع هل هو قطعي الدلالة أو ظني الدلالة ؟ فإن من الناس من يطلق الإثبات

---

(١) سورة البقرة ، الاية : ٢٣١ (٢) سورة النساء ، الاية : ١١٣
(٣) سورة النساء ، الاية : ١١٥

بهذا أو هذا ، ومنهم من يطلق النفي لهذا ولهذا . والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الإجماع ، ويعلم يقيناً أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلاً ؛ فهذا يجب القطع بأنه حق ، وهذا لا بد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى ، كما قد بسط هذا في موضع آخر .

ومن جهة أنه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة ؛ دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها ، وهذا مثل الصراط المستقيم الذي أمرنا الله بسؤال هدايته ؛ فانه قد وصف بأنه الإسلام ، ووصف بأنه اتباع القرآن ، ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ، ووصف بأنه طريق العبودية . ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ، ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته ؛ فأي صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها ، فإنه مدلول الأخرى . وكذلك اسماء الله تعالى ، وأسماء كتابه ، وأسماء رسوله ، هي مثل أسماء دينه .

وكذلك قوله تعالى . (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[1] قيل : حبل الله هو دين الاسلام ، وقيل : القرآن ، وقيل : عهده ، وقيل : طاعته وأمره ، وقيل : الجماعة المسلمون ؛ وكل هذا حق .

وكذلك اذا قلنا : الكتاب والسنة والإجماع ، فمدلول الثلاث واحد ، فإن كل ما في الكتاب فالرسول موافق له ، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة ، فليس في المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب ، وكذلك كل ماسنه الرسول ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه فيه ، والمؤمنون مجمعون عل ذلك . وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون؛ فإنه لا يكون الا حقاً موافقاً لما في الكتاب والسنة ، لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول، فينزل عليه وحي القرآن ، ووحي آخر هو الحكمة ، كما قال ﷺ « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه »[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الاية ، ١٠٣ (٢) حديث صحيح رواه احمد والطحاوي وغيرهما

وقال حسان بن عطية : كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن[1] ؛ فليس كل ما جاءت به السنة يجب ان يكون مفسراً في القرآن ، بخلاف ما يقوله أهل الإجماع ؛ فإنه لا بد أن يدل عليه الكتاب والسنة ، فإن الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله في أمره ونهيه ، وتحليله وتحريمه ، والمقصود ذكر الايمان .

ومن هذا الباب قول النبي ﷺ : «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[2] وقوله : «آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار»[2] فإن من علم ماقامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر ، وكان محباً لله ولرسوله ؛ أحبهم قطعا ، فيكون حبه لهم علامة الايمان الذي في قلبه ، ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الايمان الذي أوجبه الله عليه .

وكذلك من لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان ؛ لم يكن في قلبه الإيمان الذي يوجبه الله عليه ، فإن لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات أصلا ؛ لم يكن معه إيمان أصلا ، كما سنبينه ان شاء الله تعالى . وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ؛ لم يكن معه ما أوجبه الله عليه من الإيمان ، فحيث نفى الله الإيمان عن شخص ؛ فلا يكون الا لنقص ما يجب عليه من الإيمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ، ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وكذلك قوله ﷺ : «من غشنا فليس منا[2] ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا[2]» كله من هذا الباب ، لا يقوله الا لمن ترك ما أوجب الله عليه ، أو فعل ما حرمه الله ورسوله ؛ فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ما ينفي عنه الاسم لأجله ، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد ، السالمين من الوعيد .

---

(١) رواه الدارمي بسند صحيح عن حسان بن عطية ، فهو مرسل

(٢) رواه مسلم

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؛ بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)[1] . فهذا حكم اسم الايمان اذا أطلق في كلام الله ورسوله؛ فإنه يتناول فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان ؛ فلا بد أن يكون قد ترك واجباً أو فعل محرماً ، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد ؛ بل يكون من أهل الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : (حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ؛ أولئك هم الراشدون)[2] .

قال محمد بن نصر المروزي : لما كانت المعاصي بعضها كفر ، وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع : منها كفر ، ونوع منها فسوق وليس بكفر ، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق ، وأخبر أنه كرهها كلها الى المؤمنين . ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الايمان ، وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول : حبب اليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات ؛ بل أجمل ذلك فقال : (حبب اليكم الإيمان)[3] . فدخل في ذلك جميع الطاعات ؛ لأنه قد حبب الى المؤمنين الصلاة والزكاة ، وسائر الطاعات حب تدين ، لأن الله أخبر : أنه حبب ذلك اليهم ، وزينه في قلوبهم ، كقوله : (حبب اليكم الايمان)[3] . ويكرهون جميع المعاصي ، الكفر منها والفسوق ، وسائر المعاصي كراهة تدين ، لأن الله أخبر أنه كره ذلك اليهم . ومن ذلك قول

---

(١) سورة النور : الاية ، ٣٧ - ٥١ (٢) سورة الحجرات ، الاية : ٧

(٣) سورة الحجرات ، الاية : ٧

رسول الله ﷺ . « من سرته حسنته ، وساءته سيئته ؛ فهو مؤمن[١] » . لأن الله حبب الى المؤمنين الحسنات وكره اليهم السيئات .

قلت : وتكريه جميع المعاصي اليهم ، يستلزم حب جميع الطاعات ؛ لأن ترك الطاعات معصية ، ولأنه لا يترك المعاصي كلها ان لم يلتبس بضدها ، فيكون محباً لضدها وهو الطاعة ؛ اذ القلب لا بد له من ارادة ، فإذا كان يكره الشر كله ؛ فلا بد أن يريد الخير . والمباح بالنية الحسنة يكون خيراً ، وبالنية السيئة يكون شراً. ولا يكون فعل اختياري الا بإرادة ؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « أحب الأسماء الى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق الأسماء : الحارث وهمام وأقبحها : حرب ومرة ».

فأصدق الأسماء : الحارث وهمام ؛ لأن كل انسان همـام حارث ، والحارث : الكاسب العامل . والهمام الكثير الهم ـ وهو مبدأ الإرادة ـ وهو حيوان ، وكل حيوان حساس متحرك بالإرادة ، فإذا فعل شيئاً من المباحات ؛ فلا بد له من غاية ينتهي اليها قصده . وكل مقصود إما أن يقصد لنفسه ، وإما أن يقصد لغيره . فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئاً سواه ، وهو أحب اليه من كل ما سواه ؛ فان ارادته تنتهي الى ارادته وجه الله ، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة ، كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « نفقـة الرجل على أهله يحتسبها صدقة . وفي « الصحيحين » عنه أنه قال لسعد بن أبي وقاص لما مرض بمكة وعاده ، قال: « انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك » . وقال معاذ بن جبل لأبي موسى : « إني احتسب نومتي كما أحتسب قومتي . وفي الأثر: نوم العالم تسبيح[٢] .

---

(١) رواه الحاكم وغيره وهو حديث صحيح .

(٢) وروي مرفوعا بلفظ « نوم الصائم » وهو ضعيف .

وان كان أصل مقصوده عبادة غير الله ؛ لم تكن الطيبات مباحة له ، فإن الله أباحها للمؤمنين من عباده ؛ بل الكفار وأهل الجرائم والذنوب وأهل الشهوات ، يحاسبون يوم القيامة على النعم التي تنعموا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها ، ويقال لهم : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ؛ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون)[1] وقال تعالى: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)[2]. أي عن شكره ، والكافر لم يشكر على النعيم الذي أنعم الله عليه به فيعاقبه ، على ذلك ، والله انما أباحها للمؤمنين ، وأمرهم معها بالشكر ، كما قال تعالى : (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله)[3].

وفي « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ أنه قال : « ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وفي «سنن ابن ماجه» وغيره : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »[4] .

وكذلك قال للرسل : (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً)[5]. وقال تعالى : (أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم)[6] وقال الخليل : (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر)[7] . قال الله تعالى : (ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير)[7] . فالخليل انما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة ، والله انما أباح بهيمة الأنعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم ، والمؤمنون أمرهم أن يأكلوا من الطيبات ويشكروه . ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقا ، وخطاب المؤمنين فقال : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، انما

(١) سورة الاحقاف ، الاية : ٢٠
(٢) سورة التكاثر الآية : ٨
(٣) سورة البقرة ، الاية : ١٧٢
(٤) وهو حديث صحيح .
(٥) سورة المؤمنون ، الاية : ٥١
(٦) سورة المائدة ، الاية : ١
(٧) سورة البقرة ،الاية : ١٢٦

يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ، واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون)[1]. فإنما أذن للناس أن يأكلوا مما في الأرض بشرطين : أن يكون طيباً ، وأن يكون حلالاً. ثم قال :(ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل به لغير الله)[2]: فأذن للمؤمنين في الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل، وأخبر أنه لم يحرم عليهم الا ما ذكره ؛ فما سواه لم يكن محرماً على المؤمنين ، ومع هذا فلم يكن أحله بخطابه ؛ بل كان عفواً ، كما في الحديث عن سلمان موقوفاً ومرفوعاً : «الحلال ما أحله الله في كتابه ، والحرام ماحرمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفي عنه».

وفي حديث أبي ثعلبة عن النبي ﷺ « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[3].

وكذلك قوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة)[4] . نفى التحريم عن غير المذكور ، فيكون الباقي مسكوتاً عن تحريمه عفواً ، والتحليل إنما يكون بخطاب ؛ ولهذا قال في سورة المائدة التي أنزلت بعد هذا : (يسألونك ماذا أحل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين)[5] . إلى قوله : (اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم)[6] . ففي ذلك اليوم أحل لهم الطيبات ، وقبل هذا لم يكن محرماً عليهم الا ما استثناه .

---

(١) سورة البقرة ،الآية : ١٦٨ — ١٧٠ (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٢

(٣) رواه الدارقطني وغيره وهو حديث حسن بشاهده القوي قبله .

(٤) سورة الانعام الآية : ١٤٥ (٥) سورة المائدة ، الآية : ٤

(٦) سورة المائدة الآية : ٥

وقد حرم النبي ﷺ ، كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، ولم يكن هذا نسخاً للكتاب؛ لأن الكتاب لم يحل ذلك ، ولكن سكت عن تحريمه ؛ فكان تحريمه ابتداءً شرع ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المروي من طرق من حديث أبي رافع ، وأبي ثعلبة ، وأبي هريرة ، وغيرهم : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ؛ فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه » . وفي لفظ : « ألا وإنه مثل القرآن أو أكثر ، ألا وإني حرمت كل ذي ناب من السباع » . فبين أنه أنزل عليه وحي آخر وهو الحكمة غير الكتاب ، وأن الله حرم عليه في هذا الوحي ما أخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخاً للكتاب ؛ فإن الكتاب لم يحل هذه قط ، إنما أحل الطيبات ، وهذه ليست من الطيبات ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[1] . فلم تدخل هذه الآية في العموم ، لكنه لم يكن حرمها ؛ فكانت معفواً عن تحريمها ، لا مأذوناً في أكلها . وأما الكفار ، فلم يأذن الله لهم في أكل شيء ، ولا أحل لهم شيئاً ، ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه ؛ بل قال : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً)[2] . فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالاً ، وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله ، والله لم يأذن في الأكل إلا للمؤمن به ؛ فلم يأذن لهم في أكل شيء إلا إذا آمنوا . ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكاً شرعياً ، لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي أباحه الشارع ﷺ والشارع لم يبح لهم تصرفاً في الأموال ، إلا بشرط الإيمان ؛ فكانت أموالهم على الإباحة . فإذا قهر طائفة منهم طائفة قهراً يستحلونه في دينهم ، وأخذوها منهم ؛ صار هؤلاء فيها كما كان أولئك . والمسلمون إذا استولوا عليها ، فغنموها ؛ ملكوها شرعاً ، لأن الله أباح لهم

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٢ (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨

الغنائم ، ولم يبحها لغيرهم . ويجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه في دينهم . ويجوز أن يشتري من بعضهم ما سباه من غيره ؛لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات . ولهذا سمى الله ما عاد من أموالهم إلى المسلمين فيئاً؛ لأن الله أفاءه إلى مستحقه ، أي : رده إلى المؤمنين به الذين يعبدونه ، ويستعينون برزقه على عبادته ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ، وإنما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته . ولفظ الفيء قد يتناول الغنيمة ، كقول النبي ﷺ في غنائم حنين: « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . لكنه لما قال تعالى : (ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب)[1] . صار لفظ الفيء إذا أطلق في عرف الفقهاء ؛ فهو ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب ، والإيجاف نوع من التحريك .

وأما إذا فعل المؤمن ما أبيح له قاصداً للعدول عن الحرام إلى الحلال لحاجته اليه ؛ فإنه يثاب على ذلك كما قال النبي ﷺ : « وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم إن وضعها في حرام كان عليها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال ،كان له أجر »[2] . وهذا كقوله في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتي معصيته » رواه أحمد ، وابن خزيمة في « صحيحه » وغيرهما[3] ؛ فأخبر أن الله يحب إتيان رخصه ، كما يكره فعل معصيته . وبعض الفقهاء يرويه :«كما يحب أن تؤتى عزائمه » . وليس هذا لفظ الحديث[4] ؛ وذلك لأن الرخص إنما أباحها الله لحاجة العباد اليها، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته؛ فهو يحب الأخذ بها، لان

---

(١) سورة الحشر ، الاية : ٦

(٢) رواه مسلم

(٣) واسناده صحيح

(٤) بل هو لفظ ثابت في الحديث ، أخرجه البزار ، والطبراني ، وابن حبان

الكريم يحب قبول إحسانه وفضله ؛ كما قال في حديث : « القصر صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته »[1] . ولأنه بها تتم عبادته وطاعته . وأما لا يحتاج اليه الإنسان من قول وعمل ، بل يفعله عبثاً ؛ فهذا عليه لا له ، كما في الحديث :« كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر وذكر الله »[2] .

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . فأمر المؤمن بأحد أمرين : إما قول الخير أو الصمات . ولهذا كان قول الخير ، خيراً من السكوت عنه ، والسكوت عن الشر ، خيراً من قوله ؛ ولهذا قال الله تعالى : (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[3] .

وقد اختلف أهل التفسير ، هل يكتب جميع أقواله ؟ فقال مجاهد وغيره : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه . وقال عكرمة : لا يكتبان إلا مايؤجر عليه أو يوزر . والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع ؛ فإنه قال : (مايلفظ من قول)[3] نكرة في الشرط مؤكدة بحرف «من» ؛ فهذا يعم كل قوله . وايضاً فكونه يؤجر على قول معين أو يوزر ؛ يحتاج الى أن يعرف الكاتب ماأمر به وما نهي عنه ؛ فلا بد في إثبات معرفة الكاتب به الى نقل . وأيضاً فهو مأمور ، إما بقول الخير ، واما بالصمات . فإذا عدل عما أمر به من الصمات إلى فضول القول الذي ليس بخير ؛ كان هذا عليه ، فإنه يكون مكروهاً ، والمكروه ينقصه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[4] . فإذا خاض فيما لا يعنيه ؛ نقص من حسن إسلامه فكان هذا عليه . إذ ليس من شرط ما هو عليه ، أن يكون مستحقاً لعذاب جهنم وغضب الله ، بل نقص قدره ودرجته عليه ؛ ولهذا قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه »
(٢) حديث حسن
(٣) سورة ق ، الاية : ١٨
(٤) حديث صحيح

ما اكتسبت)[1] . فما يعمل أحد إلا عليه وله ، فإن كان مما أمر به ؛ كان له ، وإلا كان عليه ، ولو أنه ينقص قدره . والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط ؛ لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ، ما لم يتكلموا به ، او يعملوا به ؛ فإذا عملوا به دخل في الأمر والنهي . فإذا كان الله قد كره الى المؤمنين جميع المعاصي وهو قد حبب اليهم الإيمان الذي يقتضي جميع الطاعات ، إذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس ؛ فإن المرجئة لا تنازع في أن الإيمان الذي في القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضي ذلك ، والطاعة من ثمراته ونتائجه ، لكنها تتنازع ، هل يستلزم الطاعة ؟ فإنه وان كان يدعو الى الطاعة ؛ فله معارض من النفس والشيطان ، فإذا كان قد كره الى المؤمنين المعارض ؛ كان المقتضي للطاعة سالماً عن هذا المعارض .

وايضاً فإذا كرهوا جميع السيئات ؛ فلم يبق الا حسنات او مباحات ، والمباحات لم تبح الا لأهل الإيمان الذين يستعينون بها على الطاعات ، والا فالله لم يبح قط لإحد شيئاً أن يستعين به على كفر ، ولا فسوق ، ولا عصيان ؛ ولهذا لعن النبي ﷺ عاصر الخمر ومعتصرها ، كما لعن شاربها . والعاصر يعصر عنباً يصير عصيراً يمكن أن ينتفع به في المباح ؛ لكن لما علم أن قصد العاصر أن يجعلها خمراً ؛ لم يكن له أن يعينه بما جنسه مباح على معصية الله ، بل لعنه النبي ﷺ على ذلك ؛ لأن الله لم يبح إعانة العاصي على معصيته ، ولا أباح له ما يستعين به في المعصية ، فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات . فيلزم من انتفاء السيئات انهم لا يفعلون الا الحسنات ؛ ولهذا كان من ترك المعاصي كلها ، فلا بد ان يشتغل بطاعة الله . وفي الحديث الصحيح :« كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »[2] . فالمؤمن لا بد أن يحب الحسنات ، ولا بد ان يبغض السيئات ، ولا بد أن يسره فعل الحسنة ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦

(٢) رواه مسلم في حديث اوله « الطهور شطر الايمان ...»

ويسوءه فعل السيئة ، ومتى قدر أن في بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الإيمان .

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها ، أو يأتي بحسنات تمحوها ، أو يبتلى ببلاء يكفرها عنه[1] ولكن لا بد أن يكون كارهاً لها ؛ فان الله أخبر أنه حبب الى المؤمنين الإيمان ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم . ولكن محمد بن نصر يقول : الفاسق يكرهها تديناً . فيقال : إن أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها ، وهو يحب دينه ، وهذه من جملته ؛ فهو يكرهها. وان كان يحب دينه مجملاً ، وليس في قلبه كراهة لها ؛ كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك ، كما في الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيـده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[2] .

وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضاً « صحيح مسلم » : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل » .

فعلم أن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله ؛ لم يكن فيه مـن الإيمان ، الذي يستحق به الثواب . وقوله : « من الايمان » أي : من هذا الإيمان ، وهو الايمان المطلق، أي : ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الإيمان ، ولا قدر حبة خردل . والمعنى : هذا آخر حدود الإيمان ، ما بقي بعد هذا من الإيمان شيء ؛ ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الإيمان شيء ، بل لفظ الحديث إنما يـدل على المعنى الأول .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : هذه بعض الاشياء المكفرة ، وهي تبلغ فوق العشرة ، وقد ذكرها المؤلف في كتاب « الايمان الصغير » ، وذكرها شارح « الطحاوية » .

(٢) رواه مسلم

فصل

ومن هذا الباب لفظ الكفر والنفاق ، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة ، دخل فيه المنافقون ، كقوله : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين)[1] . وقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالاً بعيداً)[2]. وقوله : (لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى)[3] وقوله : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير)[4] وقوله: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين)[5] . وقوله : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ، أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟)[6] . وقوله : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٣٦

(٣) سورة الليل ، الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٤) سورة تبارك ، الآيتان : ٨ ، ٩

(٥) سورة الزمر ، الآيتان : ٧١ ، ٧٢

(٦) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٨

أشد وأبقى)[١] وقوله : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية)[٢] .

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن ؛ فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم في الباطن كفار ليس معهم من الايمان شيء ، كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر ، بل المنافقون في الدرك الأسفل من النار ، كما أخبر الله بذلك في كتابه. ثم قد يقرن الكفر بالنفاق في مواضع ؛ ففي اول البقرة ذكر اربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين ، فقال تعالى: (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)[٣] . وقال : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً)[٤] إلى قوله : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأويكم النار هي مولاكم وبئس المصير)[٥] . وقال : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم)[٦] . في سورتين ، وقال : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا)[٧] . الآية .

وكذلك لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط ، وقد يقرن بالملل الخمس ، كما في قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامه ؛ ان الله على كل شيء شهيد)[٨] . كقوله : (لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة)[٩] . وقوله : (إن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين في نار جهنم

---

(١) سورة طه ، الآيات : ١٣٤، ١٣٧
(٢) سورة البينة ، الآية : ٦
(٣) سورة النساء ، الآية : ١٤٠
(٤) سورة الحديد ، الآية : ١٣
(٥) سورة الحديد ، الآية : ١٥
(٦) سورة التوبة الآية : ٧٣ وسورة التحريم الآية : ٩
(٧) سورة الحشر ، الآية : ١١
(٨) سورة الحج ، الآية : ١٧
(٩) سورة البينة ، الآية : ١

خالدين فيها ؛ أولئك هم شر البرية)[١] . وقوله تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن اسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ)[٢] . وليس احد بعد مبعث محمد ﷺ إلا من الذين اوتوا الكتاب او الأميين ، وكل أمة لم تكن من الذين اوتوا الكتاب ؛ فهم من الأميين ، كالأميين من العرب والخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الأمم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم اميون ، والرسول مبعوث اليهم كما بعث الى الأميين من العرب .

وقوله : (وقل للذين أوتوا الكتاب)[٢] . وهو انما يخاطب الموجودين في زمانه بعد النسخ والتبديل ؛ فدل على ان من دان بدين اليهود والنصارى ، فهو من الذين أوتوا الكتاب ، لايختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ، ولا فرق بين اولادهم واولاد غيرهم ؛ فإن اولادهم إذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن اوتوا الكتاب ، فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم كفاراً ، وقد جعلهم للذين أوتوا الكتاب بقوله : (وقل للذين أوتوا الكتاب) . [٢] وهو لايخاطب بذلك إلا من بلغته رسالته ، لامن مات ؛ فدل ذلك على أن قوله : (وطعام الذين أوتوا الكتاب)[٣] يتناول هؤلاء كلهم ، كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف ، وهو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، وهو المنصوص عن أحمد في عامة أجوبته ، لم يختلف كلامه إلا في نصارى بني تغلب ، وآخر الروايتين عنه : أنهم تباح نساؤهم وذبائحهم ، كما هـــو قول جمهور الصحابة . وقوله في الرواية الأخرى : لا تباح ؛ متابعة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لم يكن لأجل النسب ، بل لكونهم لم يدخلوا في دين أهل الكتاب إلا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ، ولكن بعض التابعين ظن أن ذلك لأجل النسب ، كما نقل عن عطاء ، وقال به الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد ، وفرعوا على ذلك

---

(١) سورة البينة ، الآية : ٦

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٢٠

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥

فروعاً ، كمن كان أحد أبويه كتابياً والآخر ليس بكتابي ؛ ونحو ذلك ، حتى لا يوجد في طائفة من كتب أصحاب أحمد إلا هذا القول ؛ وهو خطأ على مذهبه، مخالف لنصوصه، لم يعلق الحكم بالنسب في مثل هذ البتة ، كما قد بسط في موضعه .

ولفظ المشركين يذكر مفرداً في مثل قوله : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)[1] وهل يتناول أهل الكتاب ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف ، والذين قالوا : بأنها تعم ؛ منهم من قال : هي محكمة ، كابن عمر ، والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات ، كما ذكره الله في آية المائدة ، وهي متأخرة عن هذه ،ومنهم من يقول : نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات ، ومنهم من يقول : بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام ، وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر)[2] . وهذا قد يقال : إنما نهى عن التمسك بالعصمة من كان متزوجاً كافرة ، ولم يكونوا حينئذ متزوجين إلا بمشركة وثنية ؛ فلم يدخل في ذلك الكتابيات .

فصل

وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق ، يذكر مفرداً ؛ فيتناول النبيين ، قال تعالى في حق الخليل : « وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين)[3] وقال : (وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين)[4] . وقال الخليل : (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين)[5] . وقال يوسف : (توفني مسلماً وألحقني

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢١
(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ١٠
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٧
(٤) سورة النحل ، الآية : ١٢٢
(٥) سورة الشعراء ، الآية : ٨٣

بالصالحين)[1] . وقال سليمان : (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)[2] . وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان ، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم « إن الله هو السلام ، فإذا قعد أحدكم في الصلاة ؛ فليقل : التحيات لله ، والصلوات، والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض » ... الحديث

وقد يذكر الصالح مع غيره ، كقوله تعالى : (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) . قال الزجاج وغيره : الصالح : القائم بحقوق الله وحقوق عباده . ولفظ الصالح خلاف الفاسد ؛ فإذا أطلق فهو الذي صلح جميع أمره ، فلم يكن فيه شيء من الفساد ، فاستوت سريرته وعلانيته ،وأقواله وأعماله على ما يرضي ربه ؛ وهذا يتناول النبيين ومن دونهم . ولفظ الصديق قد جعل هنا معطوفاً على النبيين ، وقد وصف به النبيين ، في مثل قوله : (واذكر في في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً)[3] – واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً)[4] .

وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح ، وقد قال : (وجيء بالنبيين والشهداء وقضيء بينهم بالحق)[5] . ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها في قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً)[6] . فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس ، كالشهادة المذكورة في قوله: (لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء)[7]. وقوله :(واستشهدوا

---

(1) سورة يوسف ، الآية : ١٠١
(2) سورة النمل ، الآية : ١٩
(3) سورة مريم ، الاية : ٤١
(4) سورة مريم ، الاية : ٥٦
(5) سورة الزمر ، الآية : ٦٩
(6) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣
(7) سورة النور ، الاية : ١٣

شهيدين من رجالكم)[1] . وليست هذه الشهادة المطلقة في الآيتين، بل ذلك كقوله: (ويتخذ منكم شهداء)[2] .

فصل

وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر ؛ فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيه الكفر والفسوق، كقوله : (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً)[3] . وقال تعالى : (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد)[4] . واطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيب لجنس الرسل ، فكانت المعصيه لجنس الرسل كمعصية من قال : (فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء)[5] . ومعصية من كذب وتولى ، قال تعالى : (لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى)[6] عن طاعة الأمر ، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ، ويطيعوهم فيما أمروا . وكذلك قال في فرعون : (فكذب وعصى)[7] . وقال عن جنس الكافر : (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى). فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر . وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، ومنه قوله : (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول)[8] .

ولفظ التولي بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن ، كقوله:

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠
(٣) سورة الجن ، الآية : ٢٣
(٤) سورة هود ، الآية : ٥٩
(٥) سورة تبارك ، الآية : ٩
(٦) سورة الليل ، الآيتان ، ١٥ : ١٦
(٧) سورة النازعات ، الآية : ٢١
(٨) سورة المزمل ، الآية : ١٥

(ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً)[1] . وذمه في غير موضع من القرآن من تولى ؛ دليل على وجوب طاعة الله ورسوله ، وأن الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة ، وذم التولي عن الطاعة ، كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله : (فعصى فرعون الرسول)[2] . وقد قيل : ان التأييد لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار ؛ ولهذا قال : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً)[3] . وقال فيمن يجور في المواريث: ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)[4] . فهنا قيد المعصية بتعدي حدوده ، فلم يذكرها مطلقة ، وقال :(وعصى آدم ربه فغوى)[5] . فهي معصية خاصة ، وقال تعالى :(حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون)[6] . فأخبر عن معصيه واقعة معينة ، وهي معصية الرماة للنبي ﷺ ؛ حيث أمرهم بلزوم ثغرهم ، وإن رأوا المسلمين قد انتصروا ،فعصى من عصى منهم هذا الأمر ، وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفارمنهزمين، وأقبل من أقبل منهم على المغانم .وكذلك قوله: (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان)[7] . جعل ذلك ثلاث مراتب . وقد قال : (ولا يعصينك في معروف)[8] . فقيد المعصية ، ولهذا فسرت بالنياحة .

قال ابن عباس: وروي ذلك مرفوعاً ، كذلك قال زيد بن أسلم : لاتدعن ويلاً ولا تخدشن وجهاً ولا تنشرن شعراً ، ولا تشققن ثوباً . وقد قال بعضهم : هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الإسلام وأدلته ، كما قاله أبو سليمان الدمشقي

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٦
(٢) سورة المزمل ، الآية : ١٦
(٣) سورة النساء ، الآية : ٩٣
(٤) سورة النساء ، الآية : ١٤
(٥) سورة طه ، الآية : ١٢١
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢
(٧) سوره الحجرات الاية : ٧
(٨) سوره الممتحنة ، الاية : ١٢

ولفظ الآية عام أنهن لا يعصينه في معروف ، ومعصيته لا تكون الا في معروف ؛ فإنه لا يأمر بمنكر ، لكن هذا كما قيل : فيه دلالة على أن طاعة ولي الأمر ، إنما تلزم في المعروف كما ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف »[1] ونظير هذا قوله : (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[2] وهو لا يدعو إلا إلى ذلك ، والتقييد هنا لا مفهوم له ؛ فإنه لا يقع دعاء لغير ذلك ، ولا أمر بغير معروف ، وهذا كقوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً)[3] . فإنهن إذا لم يردن تحصناً ؛ امتنع الإكراه ، ولكن في هذا بيان الوصف المناسب للحكم ، ومنه قوله تعالى : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ؛ فإنما حسابه عند ربه ؛ إنه لا يفلح الكافرون)[4] . وقوله : (ويقتلون النبيين بغير الحق)[5] . فالتقييد في جميع هذا البيان والإيضاح ، لا لإخراج في وصف آخر ؛ ولهذا يقول من يقول من النحاة : الصفات في المعارف للتوضيح لا للتخصيص ، وفي النكرات للتخصيص ، يعني في المعارف التي لا تحتاج إلى تخصيص ، كقوله :(سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى)[6] . وقوله : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل)[7] . وقوله: (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم)[8] . والصفات في النكرات إذا تميزت للتوضيح أيضاً ؛ ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله : (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان)[9] . ومعلوم أن الفاسق عاص أيضاً .

---

(١) متفق عليه
(٢) سورة الانفال الاية : ٢٤
(٣) سوره النور ، الاية : ٣٣
(٤) سوره المؤمنون ، الاية : ١١٨
(٥) سوره البقره ، الاية : ٦١
(٦) سورة الاعلى ، الايتان : ١-٢
(٧) سوره الاعراف الاية : ١٥
(٨) سوره الفاتحة . الاية : ١
(٩) سوره الحجرات . الاية : ٧

فصل

ومن هذا الباب ظلم النفس ؛ فإنه إذا أطلق تناول جميع الذنوب ، فإنها ظلم العبد نفسه ، قال تعالى : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ، منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب)[1] . وقال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم)[2] . وقال في قتل النفس : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي)[3] . وقالت بلقيس: (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[4] . وقال آدم عليه السلام : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[5] . ثم قد يقرن ببعض الذنوب ، كقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم)[6] . وقوله : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ؛ يجد الله غفوراً رحيماً)[7] .

وأما لفظ الظلم المطلق ؛ فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب ، قال تعالى :(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ؛ وقفوهم إنهم مسؤولون)[8] . قال عمر بن الخطاب : ونظراؤهم[9] . وهذا ثابت عن عمر ، وروي ذلك عنه مرفوعاً . وكذلك قال ابن عباس : وأشباههم . وكذلك قال

---

(١) سورة هود ، الآيتان : ١٠٠-١٠١
(٢) سورة البقره ، الآية : ٥٤
(٣) سورة القصص ، الآية : ١٦
(٤) سورة النمل ، الآية : ٤٤
(٥) سورة الاعراف ، الآية : ٢٣
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٥
(٧) سورة النساء ، الآية : ١١٠
(٨) سورة الصافات الآيات : ٢٢-٢٤
(٩) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي نسخة : وضرباؤهم

قتادة والكلبي : كل من عمل بمثل عملهم ؛ فأهل الخمر مع أهل الخمر ، وأهل الزنا مع أهل الزنا . وعن الضحاك ومقاتل : قرناؤهم من الشياطين ؛ كل كافر معه شيطانه في سلسلة ، وهذا كقوله : (وإذا النفوس زوجت)[١] . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح . قال ابن عباس : وذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة . وقال الحسن وقتادة : ألحق كل امرىء بشيعته ؛ اليهودي مع اليهود ، والنصراني مع النصارى . وقال الربيع بن خيثم : يحشر المرء مع صاحب عمله ، وهذا كما ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ لما قيل له : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب »[٢] . وقال : « الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »[٣]. وقال : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[٤] .

وزوج الشيء نظيره ، وسمي النصف زوجاً ؛ لتشابه أفراده ، كقوله:(انبتنا فيها من كل زوج كريم)[٥] .وقال:(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)[٦] . قال غير واحد من المفسرين: صنفين ونوعين مختلفين: السماء والأرض، والشمس والقمر ، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والكفر والايمان ، والسعادة والشقاوة والحق والباطل ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة والحلو والمر ؛ وأشباه ذلك ، لعلكم تذكرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد وليس المراد أنه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً ؛ فإن المرأة الصالحة قد يكون زوجها

---

(١) سوره التكوير الآية : ٧

(٢) متفق عليه

(٣) رواه مسلم والبخاري تعليقاً

(٤) حديث حسن رواه الترمذي وغيره. وعلى هامش النسخة الهندية: اخرجه ابو داود الطيالسي وابو داود والترمذي وحسنه ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات فأخطأ .

(٥) سوره الشعراء الآية : ٧ (٦) سورة الذاريات الآية : ٤٩

فاجراً ، بل كافراً ، كامرأة فرعون . وكذلك الرجل الصالح ، قد تكون امرأته فاجرة ، بل كافرة ، كامرأة نوح ولوط . لكن إن كانت المرأة على دين زوجها ؛ دخلت في عموم الأزواج ، ولهذا قال الحسن البصري : وأزواجهم : المشركات.

فلاريب أن هذه الآية تناولت الكفار ، كما دل عليه سياق الآية . وقد تقدم كلام المفسرين : أنه يدخل فيها الزناة مع الزناة ، وأهل الخمر مع أهل الخمر . وكذلك الأثر المروي: «إذا كان يوم القيامة قيل : أين الظلمة وأعوانهم؟ -أو قال: وأشباههم- فيجمعون في توابيت من نار ثم يقذف بهم في النار». وقد قال غير واحد من السلف: أعوان الظلمة من أعانهم ، ولو أنه ناولهم دواة أو برى لهم قلماً ، ومنهم من كان يقول: بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم . وأعوانهم : هم من أزواجهم المذكورين في الآية ؛ فان المعين على البر والتقوى من أهل ذاك ، والمعين على الإثم والعدوان من أهل ذلك. قال تعالى: (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها)[1] والشافع الذي يعين غيره ، فيصير معه شفعاً بعد أن كان وتراً ؛ ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة بإعانة المؤمنين على الجهاد ، والشفاعة السيئة بإعانة الكفار على قتال المؤمنين ، كما ذكر ذلك ابن جرير ، وأبو سليمان . وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعاً ، أو يخلصه من بلاء ، كما قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة وابن زيد ؛ فالشفاعة الحسنة إعانة على خير يحبه الله ورسوله؛ من نفع من يستحق النفع ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه . والشفاعة السيئة إعانته على ما يكرهه الله ورسوله، كالشفاعة التي فيها ظلم الإنسان ، أو منع الإحسان الذي يستحقه . وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين ، والسيئة بالدعاء عليهم ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين ؛ وكل هذا صحيح . فالشافع زوج المشفوع له ؛ إذ المشفوع عنده من الخلق إما أن يعينه على بر وتقوى ، وإما أن يعينه على إثم وعدوان . وكان النبي ﷺ إذا

---

(١) سورة النساء الآية : ٨٥

أتاه طالب حاجة قال لأصحابه : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء »[1] .

وتمام الكلام يبين أن الآية – وإن تناولت الظالم الذي ظلم بكفره – فهي أيضاً متناولة مادون ذلك، وإن قيل فيها : وما يعبدون ؛ فقد ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة تعس عبدالخميصة ، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[2] . وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال :« مامن صاحب كنز إلا جعل له كنزه يوم القيامة شجاع أقرع يأخذ بلهزمتيه : أنا مالك،أنا كنزك».وفي لفظ : «الا مثل له يوم القيامة شجاع أقرع يفر منه وهو يتبعه، حتى يطوقه في عنقه» ؛ وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)[3] . وفي حديث آخر : «مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب ، وهو يفر منه : هذا مالك الذي كنت تبخل به ، فإذا رأى أنه لا بد له منه ؛ أدخل يده في فيه ، فيقضمها كما يقضم الفحل» . وفي رواية : « فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ، ثم يلقمه سائر جسده » . وقد قال تعالى في الآية الأخرى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ؛ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)[4] .

وقد ثبت في « الصحيح » وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : «مامن صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليها في نار جهنم ، فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله

---

(١) رواه البخاري
(٢) رواه البخاري
(٣) آل عمران الآية : ١٨٠
(٤) سورة التوبة ، الآيتان : ٣٤-٣٥

إما إلى الجنة وإما الى النار ». وفي حديث أبي ذر : « بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم ، فتوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ، وبوضع على نغض كتفيه ، حتى يخرج من حلمة ثدييه ، يتزلزل وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم ». وهذا كما في القرآن، ويدل على أنه بعد دخول النار، فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولاً في الموقف. فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع أشباهه وماله الذي صار عبداً له من دون الله ، فيعذب به ، وإن لم يكن هذا من أهل الشرك الأكبر الذين يخلدون في النار . ولهذا قال في آخر الحديث : « ثم يرى سبيله إما الى الجنة ، وإما الى النار ». فهذا بعد تعذيبه خمسين الف سنة مما تعدون ، ثم يدخل الجنة .

وقد قال النبي ﷺ : « الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل »[1] قال ابن عباس وأصحابه : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره ، كما سنذكره -إن شاء الله- . وقد قال الله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون)[2] . وفي حديث عدي بن حاتم — وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما — وكان قد قدم على النبي ﷺ ، وهو نصراني ، فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : فقلت له .نا لسنا نعبدهم؛ قال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟! » قال : فقلت : بلى. قال: « فتلك عبادتهم » . وكذلك قال أبوالبختري : أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله ؛ فأطاعوهم فكانت تلك الربوبيه .

---

(١) حديث صحيح روي من حديث ابن عباس وعائشة وابيها

(٢) سورة التوبة الآية : ٣١

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه؛ فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء؛ فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهوا عنه انتهينا؛ لقولهم: فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله؛ فهذه عبادة للرجال، وتلك عبادة للأموال، وقد بينها النبي ﷺ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: (لا إله الا هو سبحانه عما يشركون)[1].

فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله)[2]. فإن هؤلاء والذين أمروهم بهذا هم جميعاً معذبون، وقال: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)[3]. وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله؛ فهم الذين سبقت لهم الحسنى، كالمسيح والعزير وغيرهما، فأولئك مبعدون.

وأما من رضي بأن يعبد ويطاع في معصية الله؛ فهو مستحق للوعيد، ولو لم يأمر بذلك، فكيف إذا أمر؟! وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله، وهذا من أزواجهم؛ فإن أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم، وقد يكونون أتباعاً، وهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين، وسياق الآية يدل على ذلك؛ فإنه سبحانه قال: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله، فاهدوهم إلى صراط الجحيم)[4]. قال ابن عباس: دلوهم. وقال الضحاك مثله. وقال ابن كيسان: قدموهم. والمعنى: قودوهم كما يقود الهادي لمن يهديه؛ ولهذا تسمى الأعناق الهوادي، لأنها تقود سائر البدن، ويسمى أوائل الوحش الهوادي (وقفوهم إنهم

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣١

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٢٢-٢٣

(٣) سورة الانبياء الآية: ٩٨

(٤) سورة الصافات الآيتان: ٢٢-٢٣

مسؤون مالكم لا تناصرون)[١] . أي : كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل.
(بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغوينا كم إنا كنا غاوين، فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله الا الله يستكبرون . ويقولون: أ إنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)[٢] .

وقال تعالى . (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لاتعلمون ،وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)[٣] . وقال تعالى : (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد)[٤] . وقال تعالى : (ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ،وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ،هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)[٥] .

وقوله في سياق الآية : (انهم كانوا اذا قيل لهم: لا اله الا الله، يستكبرون)[٦] .

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٤-٢٥
(٢) سورة الصافات الآيات : ٢٦-٣٦
(٣) سورة الاعراف الآيتان : ٣٨-٣٩
(٤) سورة غافر الآيتان : ٤٧-٤٨
(٥) سورة سبأ الآيات : ٣١-٣٣
(٦) سورة الصافات الآية : ٣٥

ولا ريب أنها تتناول الشركين: الأصغر والأكبر، وتتناول أيضا من استكبر عما أمره الله به من طاعته؛ فإن ذلك من تحقيق قول لا اله الا الله؛ فإن الإله هو المستحق للعبادة، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره؛ لم يحقق قول: لا اله الا الله في هذا المقام.

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل؛ فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله؛ مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «انما الطاعة في المعروف». وقال: «على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية». وقال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». وقال: «ومن أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه».

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهداً قصده اتباع الرسول، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول؛ فهذا له نصيب من هذا

الشرك الذي ذمه الله ، لاسيما ان اتبع في ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ،مع علمه بأنه مخالف للرسول ؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه . ولهذا اتفق العلماء على أنه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وان كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه ؛ فهذا يكون كمن عرف أن دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق ؛ لايؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى : (وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وماأنزل اليهم)[1] . وقوله : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[2] . وقوله : (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)[3] .

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ؛ فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ ، كما في القبلة . وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ؛ فهذا من أهل الجاهلية . وان كان متبوعه مصيباً ؛ لم يكن عمله صالحاً . وإن كان متبوعه مخطئاً ؛ كان آثماً ، كمن قال في القرآن برأيه ؛ فإن أصاب فقد أخطأ ، وان أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته ؛ صار عبداً له . وكذلك هؤلاء ؛ فيكون فيه شرك أصغر ،ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفي الحديث : «إن يسير الرياء شرك». وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٩٩ (٢) سورة الاعراف الآية : ١٥٩

(٣) سورة المائدة الآية : ٨٣

والمقصود هنا أن الظلم المطلق يتناول الكفر ، ولا يختص بالكفر ؛ بل يتناول ما دونه أيضاً ، وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية ؛ فإن هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان ، كما في « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يارسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» . قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم أن تزني بحليلة جارك » ، فأنزل الله تعالى :(والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً)[1] .

فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ، ولكل عمل قسط منه ؛ فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن ؛ كان عذابه دون ذلك . ولو زنى وقتل ولم يشرك ؛ كان له من هذا العذاب نصيب ، كما في قوله : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما)[2] . ولم يذكر : أبداً . وقد قيل : إن لفظ التأبيد لم يجيء الا مع الكفر ،وقال الله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً)[3] .فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول . وسبب نزول الآية كان في ذلك ، فإن الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول مادونه بحسبه ؛ فمن خال مخلوقاً في خلاف أمر الله ورسوله؛ كان له من هذا الوعيد نصيب ، كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات : ٦٨-٧١ (٢) سورة النساء ، الآية : ٩٣

(٣) سورة الفرقان ، الآيات : ٢٧-٢٩

المتقين)[1] . وقال تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب)[2] . قال الفضيل بن عياض : حدثنا الليث عن مجاهد : هي المودات التي كانت بينهم لغير الله . فإن المخالة تحاب وتوادد ؛ ولهذا قال : « المرء على دين خليله » فإن المتحابين يحب أحدهما ما يحب الآخر بحسب الحب ، فإذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله ؛ نقص من دينها بحسب ذلك الى ان ينتهي الى الشرك الأكبر ، قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله)[3] .

والذين قدموا محبة المال الذي كنزوه ، والمخلوق الذي اتبعوه ، على محبة الله ورسوله ، كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك ، فلهذا ألزمهم محبوبهم ، كما في الحديث ، يقول الله تعالى : (أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا »[4] . وقد ثبت في « الصحيح » يقول : « ليذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون ؛ من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ويمثل للنصارى المسيح ، ولليهود عزير ، فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، كما سيأتي هذا الحديث – إن شاء الله – فهؤلاء أهل الشرك الأكبر .

وأما عبيد المال الذي كنزوه ، وعبيد الرجال الذين أطاعوهم في معاصي الله فأولئك يعذبون عذاباً دون عذاب أولئك المشركين ؛ إما في عرصات القيامة ، وإما في جهنم ، ومن أحب شيئاً دون الله عذب به . وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٦٧
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٦
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥
(٤) لم اجده

هم الظالمون)[١] . فالكفر المطلق هو الظلم المطلق ؛ ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة في هذه الآية ، وفي قوله : (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)[٢] . وقال : (فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)[٣] . وقوله : (نسويكم) لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه ؛ فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم ، ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا : ان هذا العالم له خالقان متماثلان ، حتى المجوس القائلين بالأصلين : النور والظلمة متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد ، وأن الظلمة شريرة تستحق أن تذم وتلعن ، واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة ؟ على قولين ، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه . وكذلك مشركوا العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ؛ بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وما بينهما ، كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله ، فأنى يؤفكون ، الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون)[٤] . وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٤

(٢) سورة غافر ، الآيتان : ١٨ ، ١٩

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٩٤ ، ١٠٢

(٤) سورة العنكبوت ، الآيات : ٦١ - ٦٣

كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون)[1] .

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ليست من تمام جوابهم . وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون الله)[2] الآيات . وقال تعالى (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؛ بل إياه تدعون ، فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون)[3] . وكذلك قوله : (آلله خير أمايشركون . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؛ بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله)[4] . أي : إله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار ، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله .

ومن قال من المفسرين : إن المراد : هل مع الله إله آخر ؟ فقد غلط ؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى ، كما قال تعالى : (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد)[5] . وقال تعالى : (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء)[6] . وقال تعالى عنهم : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب)[7] . وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ،

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٩ - ١٤
(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ٨٤ - ٨٧
كذا في الاصل : سيقولون الله ، وهي قراءة ابي عمرو كما ذكر الطبري وهي قراءة اهل الشام في زمن ابن تيمية وعند حفص وغيره سيقولون لله.
(٣) سورة الانعام ، الآيتان: ٤٠ - ٤١
(٤) سورة النمل ، الآيات : ٥٩ - ٦١
(٥) سورة الانعام ، الآية : ١٩
(٦) سورة هود ، الآية : ١٠١
(٧) سورة ص ، الآية : ٥

ولا خلق شيء ؛ بل يتخذونهم شفعاء ووسائط ، كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[1] . وقال عن صاحب يس : (ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون)[2] . وقال تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)[3] . وقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون)[4] . وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)[5] فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك ، أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة ؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كماقال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه)[6] وقال تعالى عن الملائكة : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)[7] . وقال : (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)[8] .

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون ؛ هي منتفية يوم القيامة كما نفاه القرآن . وأما ما أخبر به النبي ﷺ أنه يكون . فأخبر : « أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه ؛ يقال له : أي محمد ! ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : أي رب أمتي !

(١) سورة يونس ، الآية : ١٨
(٢) سورة يس ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة الانعام ، الآية : ٥١
(٤) سورة السجده الآية : ٤
(٥) سورة سباء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥
(٧) سورة الانبياء ، الآية : ٢٨
(٨) سورة النجم ، الآية : ٢٦

فيحد له حداً فيدخلهم الجنة »[1] . وكذلك في الثانية، وكذلك في الثالثة ، قال أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه »[2] . فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله ، ليست لمن أشرك بالله ، ولا تكون إلا بإذن الله . وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد ، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك ، وينال المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ ، كما كان في الدنيا يستسقي لهم ويدعو لهم ، وتلك شفاعة منه لهم فكأن الله يحب دعاءه وشفاعته .

واذا كان كذلك ؛ فالظلم ثلاثة أنواع : فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه. وظلم الناس بعضهم بعضاً لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه ؛ لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم ، كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة . فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع ، وأما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً ، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه . وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله ، فبه صار من أهل الشفاعة ، ومقصود القرآن بنفي الشفاعة نفي الشرك ، وهو : أن أحداً لا يعبد إلا الله ، ولا يدعو غيره ، ولا يسأل غيره ، ولا يتوكل على غيره لا في شفاعة ، ولا غيرها ؛ فليس له أن يتوكل على أحد في أن يرزقه ، وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة ، وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها . فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقاً ؛ ما كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقاً ؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وتلك قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص ، فهي من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد .

وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الانسان نفسه ، وظلم الناس بعضهم بعضاً ،

---

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

كقول آدم عليه السلام وحواء : (ربنا ظلمنا أنفسنا)(١) . وقول موسى : (رب إني ظلمت نفسي)(٢) . وقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)(٣) . لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه، وذلك قد عرف ولله الحمد أنه ليس كفراً .

وأما قوله : (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم)(٣) . فهو نكرة في سياق الشرط ، يعم كل ما فيه ظلم الإنسان نفسه ؛ وهو إذا أشرك ثم تاب، تاب الله عليه . وقد تقدم أن ظلم الإنسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق ، وقال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ؛ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات)(٤) . فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره ؛ فلا يدخل فيه الشرك الأكبر . وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)(٥) . شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ : « إنما هو الشرك ؛ ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم)»(٦). والذين شق ذلك عليهم ظنوا : أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن يظلم نفسه ؛ فشق ذلك عليهم ، فبين النبي ﷺ لهم مادلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والإهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ؛ ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء . كما كان من أهل الاصطفاء في قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ... إلى قوله : جنات عدن يدخلونها)(٧) . وهذا لاينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب ، كما قال تعالى : (فمن يعمل

---

(١) سورة الاعراف ، الآية : ٢٣
(٢) سورة القصص ، الآية : ١٦
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٥
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٣٢
(٥) سورة الانعام ، الآية : ٨٢
(٦) سورة لقمان ، الآية : ١٣
(٧) سورة فاطر ، الآيتان : ٣٢، ٣٣

مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[١] . وقال تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به)[٢] .

وقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن ذلك فقال : يارسول الله ! وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : «ياأبا بكر! ألست تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ؟ فذلك ماتجزون منه »[٣] فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة ، قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه ، كما في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها[٤] الرياح ،تقومها تارة وتميلها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتزال ثابته على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » .وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفربها من خطاياه» ، وفي حديث سعد بن أبي وقاص ،قلت :« يارسول الله ! أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الامثل فالامثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ، زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة ؛ خفف عنه ، ولايزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » رواه أحمد والترمذي[٥] وغيرهما . وقال : « المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه ، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها »[٦] والأحاديث في هذا الباب كثيرة

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة ؛ كان له الأمن التام ، والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه نفسه ؛ كان له الأمن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة

---

(١) سورة الزلزال ، الآيتان : ٧-٨ (٢) سورة النساء ، الآية :١٢٣

(٣) حديث صحيح اخرجه أحمد والترمذي والحاكم من طرق

(٤) وعلى هامش النسخة الهندية ونسخة: تقلبها

(٥) اسناده صحيح

(٦) حديث صحيح رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه» : وله شواهد كثيرة

كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه . وليس مراد النبي ﷺ بقوله « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر ، يكون له الأمن التام ، والاهتداء التام . فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقول النبي ﷺ « إنما هو الشرك » إن أراد به الشرك الأكبر ، فمقصوده أن من لم يكن من اهله ، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو مهتد إلى ذلك . وان كان مراده جنس الشرك ؛ فيقال : ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب ؛ هو شرك أصغر ، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله ؛ شرك أصغر ، ونحو ذلك . فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار .

فصل

ومن هذا الباب لفظ الصلاح والفساد ؛ فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر ، كما تقدم في اسم الصالح ، وكذلك اسم المصلح والمفسد ، قال تعالى في قصة موسى : (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من

المصلحين)[1] — (وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين)[2] وقال تعالى : (وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لايشعرون)[3] . والضمير عائد على المنافقين في قوله : (ومن الناس من يقول آمنابالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[4] وهذا مطلق يتناول من كل على عهد النبي ﷺ ، ومن سيكون بعدهم ؛ ولهذا قال سلمان الفارسي : إنه عني بهذه الآية قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها ، وكذا قـال السدي عن أشياخه : الفســاد : الكفر والمعاصي . وعن مجاهد : ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي . والقولان معناهما واحد . وعن ابن عباس : الكفر . وهذا معنى قول من قال : النفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم عـلى أسرار المؤمنين . وعن أبي العالية ومقاتل : العمل بالمعاصي . وهذا أيضاً عام كالأولين

وقولهم : (إنما نحن مصلحون)[3] فسر بإنـكار ما أقروا به ، أي : إنا إنمـا نفعل ما أمرنا به الرسول . وفسر : بأن الذي نفعله صلاح ، ونقصد به الصلاح . وكلا القولين يروى عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فإنهم يقولون هذا وهذا ، يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم ، ويقولون الثاني لأنفسهم ولمن اطلع عـلى بواطنهم . لكن الثاني يتناول الأول ؛ فإن من جملة أفعالهم إسرار خلاف ما يظهرون ، وهم يرون هـذا صلاحـا قال مجاهد: أرادوا أن مصافاة الكفار صلاح لافساد . وعن السدي : إن فعلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمد فساد . وقيل : أرادوا أن هذا صلاح في الدنيا ، فإن الدولة إن كانت للنبي ﷺ ؛ فقد أمنوا بمتابعته ، وان كانت للكفار ؛ فقد أمنوهم بمصافاتهم . ولأجل القولين قيل في قوله : (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون)[3] أي لا يشعرون أن ما فعلوه فساد لا صلاح . وقيل : لايشعرون أن الله يطلع نبيه

---

(١) سورة القصص ، الآية : ١٩

(٢) سورة الاعراف ، الآية : ١٤٢

(٣) سورة البقرة ، الايتان : ١١ ، ١٢

(٤) سورة البقرة الآية : ٨

على فسادهم . والقول الأول يتناول الثاني ؛ فهو المراد ، كما يدل عليه لفظ الآية .
وقال تعالى : (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين)[1] وقال: (قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لايصلح عمل المفسدين)[2]
وقول يوسف : (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)[3] .

وقد يقرن أحدهما بما هو أخص منه ، كقوله : (واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد)[4] قيل : بالكفر ، وقيل بالظلم ؛ وكلاهما صحيح وقال تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولافساداً)[5] وقد تقدم قوله تعالى : (ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ؛ انه كان من المفسدين)[6] . وقال تعالى: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً)[7] . وقتل النفس الأول من جملة الفساد ، لكن الحق في القتل لولي المقتول ، وفي الردة والمحاربة والزنا ؛ الحق فيها لعموم الناس ؛ ولهذا يقال : هو حق لله ، ولهذا لا يعفى عن هذا ، كما يعفى عن الاول بأن فساده عام ، قال تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف)[8] الآية . وقيل :سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال . وقيل : سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا . وقيل : المشركون ؛ فقد قرن بالمرتدين وناقضي العهد المحاربين . وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين ، والآية تتناول ذلك كله ؛ ولهذا كان

---

(١) سورة الاعراف ، الآية : ١٩٦
(٢) سورة يونس ، الآية : ٨١
(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠١
(٤) سورة البقرة ، الاية : ٢٠٥
(٥) سورة القصص ، الاية :٨٣
(٦) سورة القصص ، الآية : ٤
(٧) سورة المائدة ، الآية : ١٤٣
(٨) سورة المائدة ، الاية : ٣٣

من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء، فإنه يسقط عنه حدالله[1] تعالى.

وقرن الصلاح والاصلاح بالإيمان في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[2] . (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون)[3] . ومعلوم أن الإيمان أفضل الإصلاح، وأفضل العمل الصالح، كما جاء في الحديث الصحيح أنه قيل: يا رسول الله! أي الاعمال أفضل؟ قال: « إيمان بالله » . وقال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)[4] . وقال: (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فأولئك يدخلون الجنة)[5] . وقال: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)[6] . وقال في القذف: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، فإن الله غفور رحيم)[7] . وقال في السارق: (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه)[8] . وقال: (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما)[9] . ولهذا شرط الفقهاء في أحد قوليهم في قبول شهادة القاذف أن يصلح، وقدروا ذلك بسنة، كما فعل عمر بصبيغ بن عسل لما أجله سنة، وبذلك أخذ أحمد في توبة الداعي إلى البدعة أنه يؤجل سنة، كما أجل عمر صبيغ بن عسل.

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية: (حق الله)
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٧
(٣) سوره الانعام، الاية: ٤٨
(٤) سوره طه، الاية: ٨٢
(٥) سورة مريم الآية: ٦٠
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧٠
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٨٩
(٨) سورة المائدة، الاية: ٣٩
(٩) سورة النساء، الآية: ١٦

فصل

فإن قيل : ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالإطلاق والتقييد في كلام الله ورسوله ، وكلام كل أحد ؛ بين ظاهر لا يمكن دفعه ، لكن نقول : دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز ؛ فقوله ﷺ : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ؛ أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » مجاز. وقوله: « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » ... إلى آخره ؛ حقيقة . وهذا عمدة المرجئة ، والجهمية ، والكرامية ، وكل من لم يدخل الأعمال في اسم الايمان ..

ونحن نجيب بجوابين : أحدهما : كلام عام في لفظ الحقيقه والمجاز ؛ والثاني : ما يختص بهذا الموضع . فبتقدير أن يكون أحدهما مجازاً ؛ ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق ، أو المقيد ، أو كلاهما حقيقة حتى يعرف أن لفظ الإيمان إذا أطلق على ماذا يحمل ؟

فيقال أولاً : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز ، وتقسيم دلالتها ، أو المعاني المدلول عليها ، إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول اوفي الدلالة ؛فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين. ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ؛ وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم ، كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي

بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو ، كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم .
وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ؛ ولهذا قال من قال من الأصوليين ، كأبي الحسن البصري وأمثاله : إنه يعرف الحقيقة من المجاز بطرق، منها، نص أهل اللغة على ذلك بأن يقولوا : هذا حقيقة ، وهذا مجاز ؛ فقد تكلم بلا علم ، فإنه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا ، ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ، ولا من سلف الأمة وعلمائها ؛ وإنما هذا اصطلاح حادث والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ؛ فإنه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف ، وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام في أصول الفقه ، لم يقسم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك محمد ابن الحسن له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في « الجامع الكبير » وغيره ، ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز في كلام أحد منهم إلا في كلام أحمد بن حنبل ؛ فإنه قال في كتاب الرد على الجهمية في قوله : (إنا ونحن) ونحو ذلك في القرآن : هذا من مجاز اللغة ، يقول الرجل : إنا سنعطيك ، إنا سنفعل ؛ فذكر أن هذا مجاز اللغة، وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال : إن في القرآن مجازاً ، كالقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وابي الخطاب وغيرهم : وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون في القرآن مجاز ، كأبي الحسن الجزري ، وأبي عبد الله بن حامد ، وأبي الفضل التميمي بن أبي الحسن التميمي ، وكذلك منع أن يكون في القرآن مجاز ، محمد بن جرير مندر[1] ، وغيره من المالكية ، ومنع منه داود بن علي ، وابنه أبو بكر ، ومنذر بن سعيد البلوطي وصنف فيه مصنفاً .

---

(١) هكذا في اصل الكتاب ، والذي في مختصر الصواعق (محمد بن خوازمنداد) وعلى هامش الهندية (خويزمنداد)

وحكى بعض الناس عن أحمد في ذلك روايتين . وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ، ولا من قدماء أصحاب أحمد : إن في القرآن مجازاً ، لا مالك ، ولا الشافعي ولا أبو حنيفة ؛ فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز . إنما اشتهر في المائة الرابعة ، وظهرت أوائله في المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً في المائة الثانية ، اللهم إلا أن يكون في أواخرها . والذين أنكروا أن يكون أحمد أو غيره نطقوا بهذا التقسيم . قالوا: إن معنى قول أحمد : من مجاز اللغة . أي : مما يجوز في اللغة أي يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان: نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ونحو ذلك. قالوا: ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له .

وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز ، لا في القرآن ولا غيره ، كأبي إسحاق الاسفرائيني . وقال المنازعون له : النزاع معه لفظي ، فإنه إذا سلم أن في اللغة لفظاً مستعملاً في غير ما وضع له لا يدل على معناه الا بقرينه ؛ فهذا هو المجاز وإن لم تسمه مجازاً . فيقول : من ينصره : إن الذين قسموا اللفظ حقيقة ومجازاً: قالوا الحقيقة هو اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار ، إذا أريد بهما البهيمة ، أو أريد بهما الشجاع والبليد . وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولاً لمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل في موضوعه ، وقد يستعمل في غير موضوعه ؛ ولهذا كان المشهور عند أهل التقسيم أن كل مجاز فلا بد له من حقيقة ، وليس لكل حقيقة مجاز ؟ فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال : اللفظ في الوضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز ، فإذا استعمل في غير موضوعه ؛ فهو مجاز لا حقيقة له .

وهذا كله إنما يصح أن لو علم أن الالفاظ العربية وضعت أولاً لمعان ، ثم بعد ذلك استعملت فيها ؛ فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا إنما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية ، فيدعي أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا

على أن يسموا هذا بكذا ، وهذا بكذا ، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات . وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبي هاشم الجبائي ؛ فإنه وأبا الحسن الاشعري كلاهما قرأ على أبي علي الجبائي ، لكن الأشعري رجع عن مذهب المعتزلة ، وخالفهم في القدر والوعيد ، وفي الأسماء والأحكام ، وفي صفات الله تعالى ، وبين من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه . فتنازع الأشعري وأبو هاشم في مبدأ اللغات ؛ فقال أبو هاشم : هي اصطلاحية ، وقال الأشعري : هي توقيفية . ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسألة ؛ فقال آخرون : بعضها توقيفي ، وبعضها اصطلاحي ، وقال فريق رابع بالوقف .

والمقصود هنا أنه لا يمكن أحداً أن ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ، ثم استعملوها بعد الوضع ، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني ، فإن ادعى مدع أنه يعلم وضعاً يتقدم ذلك ، فهو مبطل ، فإن هذا لم ينقله أحد من الناس . ولا يقال : نحن نعلم ذلك بالدليل ؛ فإنه إن لم يكن اصطلاح متقدم ، لم يمكن الاستعمال . قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض ، وقد سمي ذلك منطقاً وقولاً في قول سليمان : (علمنا منطق الطير)[1] . وفي قوله : (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)[2] . وفي قوله : (يا جبال أوبي معه والطير)[3] . وكذلك الآدميون ؛ فالمولود إذا ظهر منه التمييز ، سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ، ويشير إلى المعنى ، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل في ذلك المعنى ، أي : أراد المتكلم به ذلك المعنى ، ثم هذا يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ

---

(١) سورة النمل ، الاية : ١٦
(٢) سوره النمل ، الاية : ١٨
(٣) سورة سبأ ، الآية : ١٠

بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم ؛ بل ولا أوقفوه على معاني الأسماء ، وإن كان أحياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء ، فيوقف عليها ، كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني ألفاظها ، وإن باشر أهلها مدة ، علم ذلك بدون توقيف من أحدهم .

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه ، كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسماً إما منقولاً وإما مرتجلاً ، وقد يكون المسمى واحداً لم يصطلح مع غيره ، وقد يستوون فيما يسمونه . وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة ، أو يصنف كتاباً ، أو يبني مدينة ونحو ذلك ؛ فيسميه باسم ، لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة ، وقد قال الله تعالى : (الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان)[1] . و (قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء)[2]. وقال : (الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى)[3] . فهو سبحانه يلهم الإنسان المنطق ، كما يلهم غيره[4] وهو سبحانه إذا كان قد علم آدم الأسماء كلها ، وعرض المسميات على الملائكة ، كما أخبر بذلك في كتابه ، فنحن نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التي يتكلم بها جميع الناس إلى يوم القيامة ، وأن تلك اللغات اتصلت إلى أولاده ، فلا يتكلمون إلا بها فإن دعوى هذا كذب ظاهر ، فإن آدم عليه السلام إنما ينقل عنه بنوه ، وقد أغرق الله عام الطوفان جميع ذريته إلا من في السفينة ، وأهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح ، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم . فإن اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية ، فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله ، والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم ، فكيف يتصور أن ينقل

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات : ١ - ٤ (٢) سورة فصلت ، الآية : ٢١

(٣) سورة الاعلى ، الآيتان : ٢،٣

(٤) وعلى هامش النسخة الهندية : لعله كما يلهمه غيره ، اي : انه سبحانه يلهم الانسان غير النطق .

هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا في السفينة، وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل، وإنما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده، وهم ثلاثة: سام وحام ويافث، كما قال الله تعالى: (وجعلنا ذريته هم الباقين)[1]. فلم يجعل باقياً إلا ذريته، وكما روي ذلك عن النبي ﷺ: «أن أولاده ثلاثة». رواه أحمد وغيره[2]. ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله، ويمتنع نقل ذلك عنهم؛ فإن الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه، وإذا كان الناقل ثلاثة؛ فهم قد علموا أولادهم، وأولادهم علموا أولادهم، ولو كان كذلك لاتصلت. ونحن نجد بني الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى، والأب واحد، ولا يقال: إنه علم أحد ابنيه لغة وابنه الآخر لغة؛ فإن الأب قد لا يكون له الا ابنان، واللغات في أولاده أضعاف ذلك.

والذي اجرى الله عليه عادة بني آدم أنهم إنما يعلمون أولادهم لغتهم التي يخاطبونهم بها، أو يخاطبهم بها غيرهم، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم. وأيضاً فإنه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم. والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم في الأسماء التي علمها آدم قولان معروفان عن السلف.

أحدهما: أنه إنما علمه أسماء من يعقل، واحتجوا بقوله: (ثم عرضهم على الملائكة)[3]. قالوا: وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل، وما لا يعقل، يقال فيها: عرضها. ولهذا قال أبو العالية: علمه أسماء الملائكة، لأنه لم يكن حينئذ من يعقل إلا الملائكة، ولا كان إبليس قد انفصل عن الملائكة، ولا كان له ذرية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: علمه أسماء ذريته، وهذا يناسب

---

(١) سورة الصافات، الاية: ٧٧

(٢) قلت: سنده منقطع، وان صححه العراقي والذهبي تبعاً للحاكم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١

الحديث الذى رواه الترمذي وصححه عن النبي ﷺ : « أن آدم سأل ربه إن يريه صور الأنبياء من ذريته ؛ فرآهم ، فرأى فيهم من يبص[1] فقال : يارب من هذا ؟ قال : ابنك داود[2] » . فيكون قد أراه صور ذريته ؛ أو بعضهم وأسماءهم ، وهذه أسماء أعلام لا أجناس .

والثاني : إن الله علمه أسماء كل شيء ، وهذا قول الأكثرين ، كابن عباس وأصحابه ، قال ابن عباس : علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصيعه ؛ أراد أسماء الأعراض والأعيان مكبرها ومصغرها . والدليل على ذلك ما ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال في حديث الشفاعة : « إن الناس يقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وعلمك أسماء كل شيء » . وأيضاً قوله : (الأسماء كلها)[3] لفظ عام مؤكد ؛ فلا يجوز تخصيصه بالدعوى . وقوله : (ثم عرضهم على الملائكة)[3] ؛ لانه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل ، فغلب من يعقل . كما قال : (فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع)[4] . قال عكرمة : علمه أسماء الأجناس دون أنواعها ، كقولك : إنسان وجن وملك وطائر . وقال مقاتل ، وابن السائب ، وابن قتيبة : علمه أسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام والطير .

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ؛ أن أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربيه ، ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والاصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان ؛ بل إنما يستعملون في ذلك الاضافة . فلو كان آدم عليه السلام

---

(١) في الترمذي « فرأى رجلا منهم ، فأعجبه وبيص ما بين عينيه ...»

(٢) ورواه الحاكم ايضاً وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٣١ (٤) سورة النور ، الآية : ٤٥

عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة[1] ، وايضاً فكل امة ليس لها كتاب ، ليس في لغتها أيام الأسبوع ، وإنما يوجد في لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ؛ لأن ذلك عرف بالحس والعقل ؛ فوضعت له الأمم الاسماء ؛ لان التعبير يتبع التصور . وأماالاسبوع فلم يعرف إلا بالسمع ، لم يعرف أن الله خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الا بأخبار الانبياءالذين شرع لهم ان يجتمعوا في الاسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الاسبوع الاول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم ؛ ففي لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم ، أيام الاسبوع ؛ بخلاف الترك ونحوهم ؛ فإنه ليس في لغتهم ايام الاسبوع ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، فلم يعبروا عنه . فعلم أن الله ألهم النوع الانساني أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه ، وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم ، وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات . وقد أوحى الله إلى موسى بالعبرانية ، والى محمد بالعربية ؛ والجميع كلام الله ، وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه وامره ، وان كانت هذه اللغة ليست الاخرى ، مع ان العبرانية من اقرب اللغات الى العربية ، حتى إنها اقرب اليها من لغة بعض العجم الى بعض .

فبالجملة نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك ؛ بل يكفينا ان يقال : هذا غير معلوم وجوده ، بل الإلهام كاف في النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة وإذا سمي هذا توقيفاً ؛ فليسم توقيفاً ، وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الاجناس ؛ فقد قال ما لا علم له به . وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال . ثم هؤلاء يقولون : تتميز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فإذا دل اللفظ بمجرده فهو حقيقة ، واذا لم يدل الا مع القرينة ؛ فهو مجاز ، وهذا امر متعلق باستعمال اللفظ في المعنى لا بوضع متقدم .

---

(١) وعلى هامش الهندية وفي نسخة: « متشابهة »

ثم يقال ثانياً : هذا التقسيم لا حقيقة له ؛ وليس لمن فرق بينها حد صحيح يميز به بين هذا وهذا ، فعلم أن هذا التقسيم باطل ، وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول ، بل يتكلم بلا علم ؛ فهم مبتدعة في الشرع ، مخالفون للعقل ، وذلك انهم قالوا : الحقيقة : اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز : هو المستعمل في غير ما وضع له ؛ فاحتاجوا الى إثبات الوضع السابق على الاستعمال ، وهذا يتعذر . ثم يقسمون الحقيقة الى لغوية ، وعرفية ، واكثرهم يقسمها الى ثلاث : لغوية ، وشرعية ، وعرفية .

فالحقيقة العرفية : هي ما صار اللفظ دالاً فيها على المعنى بالعرف لا باللغة ، وذلك المعنى يكون تارة أعم من اللغوي ، وتارة أخص ، وتارة يكون مبايناً له لكن بينها علاقة استعمل لأجلها ، فالاول : مثل لفظ الرقبة والرأس ونحوهما ، كان يستعمل في العضو المخصوص ، ثم صار يستعمل في جميع البدن . والثاني مثل لفظ الدابة ونحوها ، كان يستعمل في كل ما دب ، ثم صار يستعمل في عرف بعض الناس في ذوات الاربع ، وفي عرف بعض الناس في الفرس ، وفي عرف بعضهم في الحمار . والثالث مثل لفظ الغائط والظعينة والرواية والمزادة ؛ فإن الغائط في اللغة هو المكان المنخفض من الارض ، فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الانسان باسم محله . والظعينة اسم الدابة ، ثم سموا المرأة التي تركبها باسمها ، ونظائر ذلك .

والمقصود أن هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطئوا على نقلها ، ولكن تكلم بها بعض الناس وأراد منها ذلك المعنى العرفي ، ثم شاع الاستعمال ، فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ، ولهذا زاد من زاد منهم في حد الحقيقة في اللغة التي بها التخاطب ، ثم هم يعلمون ، ويقولون : إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الألفاظ ، فيصير المعنى العرفي أشهر فيه ، ولا يدل عند الاطلاق إلا عليه ؛ فتصير الحقيقة العرفيه ناسخة للحقيقة اللغويه ، واللفظ مستعمل في هذا الاستعمال الحادث العرفي ، وهو حقيقة من غير أن يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع ، فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح .

وإن قالوا : نعني بما وضع له ما استعملت فيه أولاً ؛ فيقال : من أين يعلم أن هذه الألفاظ التي كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله ، لم تستعمل قبل ذلك في معنى شيء آخر . وإذا لم يعلموا هذا النفي ؛ فلا يعلم أنها حقيقة ، وهذا خلاف ما اتفقوا عليه . وأيضاً فيلزم من هذا أن لا يقطع بشيء من الألفاظ أنه حقيقة ، وهذا لايقوله عاقل . ثم هؤلاء الذين يقولون هذا ، نجد أحدهم يأتي إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعي أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة ، ولا وضعت مجردة ، مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس ، والعين النابعة ، وعين الذهب ؛ للمشابهة . لكن أكثرهم يقولون : إن هذا من باب المشترك ، لا من باب الحقيقة والمجاز ؛ فيمثل بغيره ، مثل لفظ الرأس ، يقولون : هو حقيقة في رأس الإنسان ، ثم قالوا : رأس الدرب لأوله ، ورأس العين لمنبعها ، ورأس القوم لسيدهم ، ورأس الأمر لأوله ، ورأس الشهر ، ورأس الحول ، وأمثال ذلك على طريق المجاز . وهم لايجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً ؛ بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس الإنسان ، كقوله تعالى : (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)[1] ونحوه وهذا القيد يمنع أن يدخل فيه تلك المعاني .

فإذا قيل : رأس العين ، ورأس الدرب ، ورأس الناس ، ورأس الأمر ؛ فهذا القيد غير ذاك القيد الدال ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك ؛ لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة في لام التعريف ، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان أولاً ، لأن الإنسان يتصور رأسه قبل غيره ، والتعبير أولاً هو عما يتصور أولا ، فالنطق بهذا المضاف أولاً ، لايمنع ان ينطق به مضافا إلى غيره ثانيا ، ولايكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات ، فإذا قيل : ابن آدم اولاً ؛ لم

---

(١) سورة ، المائدة ، الآية : ٦

يكن قولنا : ابن الفرس ، وابن الحمار مجازاً وكذلك اذا قيل : بنت الانسان ؛ لم يكن قولنا : بنت الفرس ، مجـازاً . وكذلك إذا قيل : رأس الإنسان اولاً ؛ لم يكن قولنا : رأس الفرس مجازاً ، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل: يده او رجله .

فإذا قيل : هو حقيقة فيما أضيف إلى الحيوان ؛ قيل ليس: جعل هذا هو الحقيقة بأولى من أن يجعل ما أضيف إلى الإنسان رأس ، ثم قد يضاف إلى مالا يتصوره اكثر الناس من الحيوات الصغار التي لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة . فإذا قيل : إنـــه حقيقة في هذا ، فلماذا لايكون حقيقة في رأس الجبل والطريق والعين ؟! و كذلك سائر ما يضاف الى الإنسان مـن أعضائه ، وأولاده ، ومسـاكنه ؛ يضاف مثله إلى غيره ويضاف ذلك الى الجمادات ؛فيقال : رأس الجبل ، ورأس العين ، وخطم الجبل اي أنفه وفم الوادي ، وبطن الوادي ، وظهـــر الجبل . وبطن الأرض وظهرها ، ويستعمل مع الألف وهو لفظ الظاهر والباطن في امور كثير ، والمعني في الجميـع ان الظاهر لما ظهر فتبين ، والباطن لما بطن فخفي . وسمي ظهر الانسان ظهراً لظهوره وبطن الانسان بطناً لبطونه . فإذا قيل : إن هذا حقيقة ، وذاك مجاز ؛لم يكن هذا أولى من العكس . وأيضاً من الأسماء ما تكلم به أهل اللغة مفرداً ، كلفظ الإنسان ونحوه ، ثم قد يستعمل مقيداً بالاضافة ، كقولهم : إنسان العين ، وإبرة الذراع ،ونحو ذلك ،وبتقدير أن يكون في اللغة حقيقة ومجاز ؛ فقد ادعى بعضهم أن هنا من المجاز ؛ وهو غلط ، فإن المجاز :هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً ، وهنا لم يستعمل اللفظ ؛ بل ركب مع لفظ آخر ، فصار وضعاً آخر بالاضافة . فلو استعمل مضافاً في معنى ، ثم استعمل بتلك الاضافة في غيره كان مجازاً ، بل إذا كان بعلبك وحضرموت ونحوهما مما يركب تركيب مزج بعد أن كان الأصل فيه الاضافة ؛ لا يقال: إنه مجاز ، فما لم ينطق به الا مضافاً ؛ أولى أن لا يكون مجازاً .

وأما من فرق بين الحقيقة والمجاز ؛ بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجرداً عن القرائن ،

والمجاز ما لا يفيد ذلك المعنى إلا مع قرينة . أو قال: الحقيقة : مايفيده اللفظ المطلق ، والمجاز: ما لا يفيد إلا مع التقييد . أو قال : الحقيقة : هي المعنى الذي يسبق الى الذهن عند الاطلاق ، والمجاز ما لا يسبق إلى الذهن . أو قال : المجاز ما صح نفيه ، والحقيقة ما لا يصح نفيها ؛ فإنه يقال : ما تعني بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن ؟

إن عنى بذلك القرائن اللفظية ، مثل كون الاسم يستعمل مقروناً بالاضافة ، أو لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلاً ومفعولاً ومبتدأ وخبراً ؛ فلا يوجد قط في الكلام المؤلف اسم الا مقيداً . وكذلك الفعل ، إن عنى بتقييده أنه لا بد له من فاعل وقد يقيد بالمفعول به وظرفي الزمان والمكان ، والمفعول له ومعه ، والحال فالفعل لا يستعمل قط الا مقيداً ، وأما الحرف فأبلغ ؛ فإن الحرف أتي به لمعنى في غيره . ففي الجملة ، لا يوجد قط في كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف الا مقيداً بقيود تزيل عنه الاطلاق . فإن كانت القرينه مما يمنع الاطلاق عن كل قيد ؛ فليس في الكلام الذي يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد ، سواء كانت الجملة اسمية أوفعلية ؛ ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة في لغة العرب، بل وفي لغة غيرهم، لا تستعمل الا في المقيد، وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية ، إن قيل: إنها قسم ثالث .

فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة ، وإنما تسمية هذا كلمة ، اصطلاح نحوي كما سموا بعض الالفاظ فعلاً ، وقسموه إلى فعل ماض ومضارع وأمر ، والعرب لم تسم قط اللفظ فعلاً ؛ بل النحاة اصطلحوا على هذا ، فسموا اللفظ باسم مدلوله ؛ فاللفظ الدال على حدوث فعل في زمن ماض سموه فعلاً ماضياً ، وكذلك سائرها ، وكذلك حيث وجد في الكتاب والسنة ، بل وفي كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة — فإنما يراد به المفيد — التي تسميها النحاة جملة تامة ، كقوله تعالى : (وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ؛ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون

إلا كذباً)[١] . وقوله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله العليا)[٢] . وقوله تعالى : (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم)[٣] . وقوله : (وجعلها كلمة باقية في عقبه)[٤] . وقوله : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها)[٥] . وقول النبي ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[٦]

وقوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان ،ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٧] . وقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة »[٨] . وقوله : « لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضاء نفسه ، سبحانه الله مداد كلماته »[٩] . وإذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد في الكلام ، فإنه مقيد لا مطلق ، لم يجز ان يقال : اللفظ :الحقيقة مادل مع الاطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .

فإن قيل : أريد بعض القرائن دون بعض ، قيل له : اذكر الفصل بين القرينة التي يكون معها حقيقة ، والقرينة التي يكون معها مجاز ، ولن تجد إلى ذلك سبيلا تقدر به على تقسيم صحيح معقول . ومما يدل على ذلك أن الناس اختلفوا في العام

---

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ٤-٥
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٤٠
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤
(٤) سورة الزخرف ، الآية : ٢٨
(٥) سورة الفتح ، الآية : ٢٦
(٦) متفق عليه
(٧) متفق عليه
(٨) رواه البخاري مع اختلاف يسير في بعض الفاظه
(٩) رواه مسلم

إذا خص هل يكون استعماله فيما بقي حقيقة أو مجازاً ؟ وكذلك لفظ الأمر اذا أريد به الندب ، هل يكون حقيقة أو مجازاً ؟ وفي ذلك قولان لأكثر الطوائف : لأصحاب أحمد قولان ، ولاصحاب الشافعي قولان ، ولاصحاب مالك قولان.

ومن الناس من ظن أن هذا الخلاف يطرد في التخصيص المتصل ، كالصفة والشرط والغاية والبدل ، وجعل يحكي في ذلك أقوال من يفصل ، كما يوجد في كلام طائفة من المصنفين في أصول الفقه ، وهذا مما لم يعرف أن أحداً قاله ؛ فجعل اللفظ العام المقيد في الصفات والغايات والشروط مجازاً ، بل لما أطلق بعض المصنفين أن اللفظ العام إذا خص يصير مجازاً،ظن هذا الناقل أنه عنى التخصيص المتصل،وأولئك لم يكن في اصطلاحهم عام مخصوص إلا اذا خص بمنفصل . وأما المتصل ؛ فلا يسمون اللفظ عاماً مخصوصاً ، فإنه لم يدل إلا متصلاً ،والاتصال منعه العموم ، وهذا اصطلاح كثير من الأصوليين ؛ وهو الصواب . لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما : إنه داخل فيما خص من العموم ، ولا في العام المخصوص ؛ لكن يقيد فيقال : تخصيص متصل ، وهذا المقيد لا يدخل في التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : إذا كان هذا مجازاً ؛ فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به وبظرف الزمان والمكان ، مجازاً . وكذلك بالحال ، وكذلك كل ما قيد بقيد ، فيلزم أن يكون الكلام كله مجازاً ، فأين الحقيقة ؟

فإن قيل : يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة ، فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة ، وما كان مع المنفصلة كان مجازاً ؛ قيل : تعني بالمتصل ما كان في اللفظ أو ما كان موجوداً حين الخطاب ؟ فإن عنيت الأول ؛ لزم أن يكون ما علم من حال المتكلم أو المستمع أولاً قرينة منفصلة . فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه ، كما يقول : قال النبي ﷺ وهو عند المسلمين رسول الله ، أو قال الصديق ، وهو عندهم أبو بكر ، واذا قال الرجل لصاحبه : اذهب الى الامير او القاضي أو الوالي

يريد ما يعرفانه ؛ انه يكون مجازا . وكذلك الضمير يعود الى معلوم غير مذكور كقوله : (إنا أنزلناه) [1] . وقوله : (حتى توارت بالحجاب) [2] وامثال ذلك ، ان يكون هذا مجازا؛وهذا لايقوله احد . وايضا فإذا قال لشجاع : هذا الأسد فعل كذا ، ولبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا ، او لعالم او جواد : هذا البحر جرى منه اليوم كذا ؛ ان يكون حقيقة ، لأنقوله هذا قرينة لفظية ، فلا يبقى قط مجازا.

وإن قال : المتصل أعم من ذلك ، وهو ما كان موجودا حين الخطاب ؛ قيل له : فهذا اشد عليك من الأول ؛ فإن كل متكلم بالمجاز لا بد ان يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده ، وإلا لم يجز التكلم به .

فإن قيل . أنا أجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة ؛ قيل: أكثر الناس لا يجوزون أن يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى إلا إذا بين ، وانما يجوزون تأخير بيان مالم يدل اللفظ عليه ، كالمجملات . ثم نقول: إذا جوزت تأخير البيان ، فالبيان قد يحصل بجملة تامة ، وبأفعال من الرسول ، وبغير ذلك .ولا يكون البيان المتأخرالا مستقلا بنفسه ، لا يكون بما يجب اقترانه بغيره . فإن جعلت هذا مجازاً ؛ لزم أن يكون ما يحتاج في العمل الى بيان مجازاً ، كقوله : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [3] .

ثم يقال : هب أن هذا جائز عقلا ؛ لكن ليس واقعاً في الشريعة أصلا ، وجميع ما يذكر من ذلك باطل ، كما بسط في موضعه ؛ فإن الذين قالوا : الظاهر الذي لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه ، احتجوا بقوله : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) [4] . وادعوا أنها كانت معينة ، وأخر بيان التعيين . وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة

---

(١) سورة القدر ، الآية : ١
(٢) سورة ص ، الآية : ٣٢
(٣) سورة التوبة ، الآيه : ١٠٣
(٤) سورة البقرة ، الآية ٦٧

فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها ؛ أجزأ عنهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم .
والآية نكرة في سياق الإثبات ؛ فهي مطلقة . والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمهم
على السؤال بما هي ، ولو كان المأمور به معيناً ؛ لما كانوا ملومين . ثم ان مثل هذا لم
يقع قط في أمر الله ورسوله ان يأمر عباده بشيء معين ، ويبهمه عليهم مرة بعد مرة ،
ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء . واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة
والحج ، وان هذه الألفاظ لها معان في اللغة بخلاف الشرع ؛ وهذا غلط ، فإن الله
انما أمرهم بالصلاة بعد أن عرفوا المأمور به ، وكذلك الصيام ، وكذلك الحج ، ولم
يؤخر الله قط بيان شيء من هذه المأمورات ، ولبسط هذه المسألة موضع آخر .

واما قول من يقول : ان الحقيقة ما يسبق الى الذهن عند الاطلاق ؛ فمن أفسد
الأقوال ، فإنه لا يقال[1] : اذا كان اللفظ لم ينطق به الا مقيداً ؛ فإنه يسبق الى
الذهن في كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع . وأما إذا أطلق ؛ فهو لا يستعمل
في الكلام مطلقاً قط ، فلم يبق له حال اطلاق محض حتى يقال : ان الذهن يسبق اليه
أم لا .

وايضاً ، فأي ذهن ؟! فإن العربي الذي يفهم كلام العرب ؛ يسبق الى ذهنه
من اللفظ ما لا يسبق الى ذهن ذلك النبطي الذي صار يستعمل الألفاظ في غير معانيها ،
ومن هنا غلط كثير من الناس ؛ فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه ، إما من خطاب
عامتهم ، واما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى ، فإذا سمعوه في القرآن
والحديث ظنوا انه مستعمل في ذلك المعنى ، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم
النبطية ، وعادتهم الحادثة . وهذا مما دخل به الغلط على طوائف ، بل الواجب ان
يعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل في القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : في النسخ الخطية : (يقال)

من الرسول عند سماع تلك الالفاظ ؛ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله ، لا بما حدث بعد ذلك .

وايضاً ، فقد بينا في غير هذا الموضع ان الله ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن والحديث الا بين معناه للمخاطبين ، ولم يحوجهم الى شيء آخر ، كما قد بسطنا القول فيه في غير هذا الموضع . فقد تبين ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ؛ لا يوجد الا مقدراً في اللسان ، لا موجوداً في الكلام المستعمل . كما ان ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد الا مقدراً في الذهن ، لا يوجد في الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد . ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم الى تصور وتصديق ، وأن التصور هو تصور المعنى الساذج الخالي عن كل قيد لا يوجد . وكذلك ما يدعونه من البسائط التي تتركب منها الأنواع ، وانها امور مطلقه عن كل قيد ؛ لا توجد . وما يدعونه من ان واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتي ؛ لا يوجد . فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغي معرفتها لمن ينظر في هذه العلوم ؛ فإنه بسبب ظن وجودها ضل طوائف في العقليات والسمعيات ، بل اذا قال العلماء : مطلق ومقيد ، انما يعنون به مطلقاً عن ذلك القيد ، ومقيد بذلك القيد ، كما يقولون : الرقبة مطلقة في آية كفارة اليمين ومقيدة في آية القتل ، اي مطلقة عن قيد الإيمان ، والا فقد قيل : (فتحرير رقبة)[1] . فقيدت بأنها رقبة واحدة ، وانها موجودة ، وانها تقبل التحرير . والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذي لا يتصف بوحدة ولا كثرة ، ولا وجود ولا عدم ، ولا غير ذلك ؛ بل هو الحقيقة من حيث هي هي ، كما يذكره الرازي تلقياً له عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة . وقد بسطنا الكلام في هذا الاطلاق والتقييد ، والكليات والجزئيات في مواضع غير هذا ، وبينا من غلط هؤلاء في ذلك ما ليس هذا موضعه .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٢

وانما المقصود هنا الإطلاق اللفظي ؛ وهو ان يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد، وهذا لا وجود له ، وحينئذ فلا يتكلم أحد لا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض ، فتكون تلك قيود ممتنعة الإطلاق . فتبين انه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين ؛ فعلم أن هذا التقسيم باطل وحينئذ فكل لفظ موجود في كتاب الله ورسوله فإنه مقيد بما يبين معناه ، فليس في شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة . ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين أن في القرآن مجازاً وذكروا ما يشهد لهم ؛ رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه . فمن أشهر ما ذكروه قوله تعالى : (جداراً يريد ان ينقض)[1] . قالوا : والجدار ليس بحيوان، والإرادة إنما تكون للحيوان ؛ فاستعمالها في ميل الجدار مجاز . فقيل لهم : لفظ الإرادة قد استعمل في الميل الذي يكون معه شعور وهو ميل الحي ، وفي الميل الذي لا شعور فيه ، وهو ميل الجماد ، وهو من مشهور اللغة ؛ يقال : هذا السقف يريد ان يقع ، وهذه الارض تريد ان تحرث ، وهذا الزرع يريد ان يسقى ، وهذا الثمر يريد ان يقطف ، وهذا الثوب يريد ان يغسل ، وأمثال ذلك .

واللفظ إذا استعمل في معنيين فصاعداً ؛ فإما أن يجعل حقيقة في أحدهما ،مجازاً في الآخر ، أو حقيقة فيما يختص به كل منها ، فيكون مشتركاً اشتراكاً لفظياً ، أو حقيقة في القدر المشترك بينها ، وهي الأسماء المتواطئة ، وهي الأسماء العامة كلها . وعلى الأول يلزم المجاز . وعلى الثاني يلزم الاشتراك ؛ وكلاهما خلاف الأصل ، فوجب أن يجعل من المتواطئة . وبهذا يعرف عموم الأسماء العامة كلها ، وإلا فلو قال قائل : هو في ميل الجماد حقيقة ، وفي ميل الحيوان مجاز ؛ لم يكن بين الدعويين فرق إلا كثرة الاستعمال في ميل الحيوان ؛ لكن يستعمل مقيداً بما يبين أنه أريد ميل الحيوان ، وهنا استعمل مقيداً بما يبين أنه أريد ميل الجماد . والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلي عام لا يوجد كلياً عاماً الا في الذهن ، وهو مورد التقسيم بين

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٧٧

الأنواع ، لكن ذلك المعنى العام الكلي كان أهل اللغة لا يحتاجون إلى التعبير عنه ؛ لأنهم إنما يحتاجون إلى ما يوجد في الخارج ، وإلى ما يوجد في القلوب في العادة . وما لا يكون في الخارج إلا مضافاً إلى غيره ؛ لا يوجد في الذهن مجرداً ، بخلاف لفظ الإنسان والفرس، فإنه لما كان يوجد في الخارج غير مضاف ، تعودت الأذهان تصور مسمى الانسان ، ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الارادة ومسمى العلم ، ومسمى القدرة ، ومسمى الوجود المطلق العام ؛ فإن هذا لا يوجد له في اللغة لفظ مطلق يدل عليه ، بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيداً بالمريد ، ولا لفظ العلم الا مقيداً بالعالم ، ولا لفظ القدرة إلا مقيداً بالقادر . بل وهكذا سائر الأعراض لما لم توجد إلا في محالها مقيدة بها ، لم يكن لها في اللغة لفظ الا كذلك .

فلا يوجد في اللغة لفظ السواد والبياض ، والطول والقصر ، الا مقيداً بالأسود والأبيض ، والطويل والقصير ونحو ذلك ، لا مجرداً عن كل قيد ؛ وإنما يوجد مجرداً في كلام المصنفين في اللغة ؛ لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ، ومنه قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)[1] . فإن من الناس من يقول : الذوق حقيقة في الذوق بالفم ، واللباس بما يلبس على البدن ، وإنما استعير هذا وهذا، وليس كذلك ؛ بل قال الخليل : الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء ، والاستعمال يدل على ذلك ، قال تعالى : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر)[2] . وقال : (ذق إنك أنت العزيز الكريم)[3] . وقال : (فذاقت وبال أمرها)[4] . وقال : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)[5] — (فذوقوا عذابي ونذر)[6] — (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)[7] —

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١١٢
(٢) سورة السجدة ، الآية : ٢١
(٣) سورة الدخان ، الآية : ٤٩
(٤) سورة الطلاق ، الآية : ٩
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٦
(٦) سورة القمر ، الآية : ٣٩
(٧) سورة الدخان ، الآية : ٥٦

(لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً)[1] . وقال النبي ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »[2] . وفي بعض الأدعية : أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك .

فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ، ويجد أله أو لذته ، فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه ، لكن ذاك مقيد فيقال : ذقت الطعام ، وذقت هذا الشراب ؛ فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم ، وإذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الإنسان بباطنه ، أو بظاهره ، حتى الماء الحميم يقال: ذاقه ، فالشراب إذا كان بارداً او حاراً يقال : ذقت حره وبرده .

وأما لفظ اللباس : فهو مستعمل في كل ما يغشى الإنسان ، ويلتبس به ، قال تعالى : (وجعلنا الليل لباساً)[3] . وقال : (ولباس التقوى ذلك خير)[4] . وقال: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)[5] . ومنه يقال : لبس الحق بالباطل ، إذا خلطه به حتى غشاه فلم يتميز .فالجوع الذي يشمل ألمه جميع الجائع : نفسه وبدنه ،و كذلك الخوف الذي يلبس البدن . لو قيل : فأذاقها الله الجوع والخوف ؛ لم يدل ذلك على أنه شامل لجميع أجزاء الجائع ، بخلاف ما إذا قيل: لباس الجوع والخوف.ولو قال : فألبسهم ، لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم إلا بالعقل من حيث أنه يعرف أن الجائع الخائف يألم . بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف ؛ فإن هذا اللفظ يدل على الإحساس بالمؤلم ، وإذا أضيف الى الملذ دل على الإحساس به ، كقوله

---

(١) سورة النبأ ، الآيتان : ٢٥،٢٤ (٢) رواه مسلم

(٣) سورة النبأ ، الآية : ١٠ (٤) سورة الاعراف ، الآية : ٢٦

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٨٧

ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً »[1] .

فإن قيل : فلِم لم يصف نعيم الجنة بالذوق ؟ قيل : لأن الذوق يدل على جنس الإحساس ، ويقال : ذاق الطعام ، لمن وجد طعمه وإن لم يأكله . وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق ؛ بل استعمل لفظ الذوق في النفي ، كما قال عن أهل النار : (لايذوقون فيها برداً ولا شراباً)[2] ؛ أي لايحصل لهم من ذلك ولا ذوق ، وقال عن أهل الجنة : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)[3] .

وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن كلفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله ، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز ، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له ، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله ، كانت عدلا ، كما قال تعالى : (كذلك كدنا ليوسف)[4] . فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه : (لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً)[5] . وقال تعالى : (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً)[6] . وقال تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم)[7] . وقال : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم)[8] . ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم ، كما روي عن ابن عباس : أنه يفتح

---

(١) تقدم قريباً
(٢) سورة النبأ ، الآية : ٢٤
(٣) سورة الدخان ، الآية : ٥٦
(٤) سورة يوسف ، الآية : ٧٦
(٥) سورة يوسف ، الآية : ٥
(٦) سورة الطارق ، الآيتان : ١٥، ١٦
(٧) سورة النمل ، الآيتان ، ٥٠، ٥١
(٨) سورة التوبة ، الآية : ٧٩

لهم باب من الجنة وهم في النارفيسرعون اليه فيغلق ، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق ، فيضحك منهم المؤمنون . قال تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون)[1] .

وعن الحسن البصري : إذا كان يوم القيامة ؛ خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة[2]، فيمشون فيخسف بهم . وعن مقاتل : إذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فيبقون في الظلمة فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . وقال بعضهم :استهزاؤه :استدراجه لهم . وقيل : إيقاع استهزائهم وردخداعهم ومكرهم عليهم . وقيل : إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة . وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه ؛ وهذا كله حق وهو استهزاء بهم حقيقة .[3]

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن : (واسأل القرية)[4] .قالوا المراد به أهلها ، فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب ، وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحل وكلاهما داخل في الاسم . ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل . وجرى النهر ، وهو الماء .

---

(١) سورة المطففين الآيات ، ٣٤ - ٣٦ (٢) وعلى هامش النسخة الهندية زيادة : (من القدر)

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية

وفي بعض الآثار : ان الله سبحانه يامر بناس من الناس الى الجنة حتى اذا رأوها وشاهدوا مافيها من الكرامة قال الله للملائكة : اصرفوهم عنها لاحظ لهم فيها . قالوا : ياربنا لو ادخلتنا النار قبل ان ترينا ما أريتنا كان اهون في عذابنا قال الله : ذلك اردت بكم اذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين متواضعين ، واذا خلوتم بارزتموني بالعظائم أجللتم الناس ولم تجلوني ، وعظمتم الناس ولم تعظموني ، وخفتم الناس ولم تخافوني ، فاليوم اذيقكم أليم عذابي ، كما حرمتكم جزيل ثوابي ذكره ابن ابي بالدنيا وغيره .

(٤) سورة يوسف ، الآيه : ٨٢

ووضعت الميزاب، وهو المحل . وجرى الميزاب ، وهو الماء ، وكذلك القرية . قال تعالى : (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة)[١] . وقوله : (وكم من قرية أهلكناها فجاءنا بأسنا بياتاً أو هم قائلون ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين)[٢] . وقال في آية أخرى : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون)[٣] . فجعل القرى هم السكان . وقال : (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)[٤] . وهم السكان . وكذلك قوله تعالى : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً)[٥] . وقال تعالى : (أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها)[٦] . فهذا المكان لا السكان ، لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا ؛ فلا يسمى قرية إلا إذا كان قد عمر للسكنى ، مأخوذ من القري وهو الجمع ، ومنه قولهم : قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه .

ونظير ذلك لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح ، ثم الأحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما ؛ فكذلك القرية إذا عذب أهلها خربت ، وإذا خربت كان عذاباً لأهلها ؛ فما يصيب أحدهما من الشر ، ينال الآخر ؛ كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما . فقوله : (واسأل القرية)[٧] . مثل قوله : (قرية كانت مطمئنة)[١] . فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف ، فهذا بتقدير أن يكون في اللغة مجاز ، فلا مجاز في القرآن . بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف ، والخلف فيه على قولين ، وليس النزاع فيه لفظياً ؛ بل يقال: نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ، ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق بين

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١١٢
(٢) سورة الاعراف ، الآيتان : ٤ ، ٥
(٣) سورة الاعراف ، الآية : ٩٧
(٤) سورة محمد ، الآية : ١٣
(٥) سورة الكهف ، الآية : ٥٩
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩
(٧) سورة يوسف ، الآية : ٨٢

أنها فروق باطلة ، وكلماذكر بعضهم فرقاً أبطله الثاني ، كما يدعي المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها الى داخل في ماهيتها الثابتة في الخارج ، وإلى خارج عنها لازم للماهية ، ولازم خارج للوجود[1] . وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة ،لان هذا التقسيم باطل لا حقيقة له ، بل ما يجعلونه داخلاً يمكن جعله خارجاً ، وبالعكس كما قد بسط في موضعه .

وقولهم : اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة ، وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز ؛ قد تبين بطلانه ، وأنه ليس في الألفاظ الدالة مايدل مجرداً عن جميع القرائن ، ولا فيها مايحتاج إلى جميع القرائن . وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسـد والحمار والبحر ، ونحو ذلك مما يقولون : إنه استعير للشجاع والبليد والجواد . وهـذه لا تستعمل إلا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية ، كما تستعمل الحقيقة ، كقول أبي بكر الصديق عن أبي قتادة لما طلب غيره سلب القتيل : لاها الله إذاً نعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فنعطيك سلبه . فقوله : نعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ؛ وصف له بالقوة للجهاد[2] في سبيله ، وقد عينه تعييناً أزال اللبس . وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن خالداً سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ، وأمثال ذلك .

وإن قال القائل :القرائن اللفظية موضوعة ، ودلالتها على المعنى حقيقة ، لكن القرائن الحالية مجاز ؛ قيل : للفظ لايستعمل قط إلا مقيداً بقيود لفظية موضوعة ، والحال حال المتكلم والمستمع ، لابد من اعتباره في جميع الكلام ؛ فإنه إذا عرف المتكلم ، فهم من معنى كلامه مالا يفهم اذا لم يعرف ، لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه ، واللفظ انما

---

(١) وعلى هامش الهندية : و نسخة (الموجود)

(٢) على هامش الهندية : وفي نسخة (بالقوة فى الجهاد)

يدل ذاعرف لغة المتكلم التي بها يتكلم ، وهي عادته وعرفه الذي يعتاده في خطابه ، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية ، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى ؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها ، عرف عادته في خطابه ، وتبين له من مراده مالا يتبين لغيره .

ولهذا ينبغي أن يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث ، أن يذكر نظائر ذلك اللفظ [1] ؛ ماذا عنى بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث ، وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده ، وهي العادة المعروفة من كلامه ، ثم اذا كان لذلك نظائر في كلام غيره ، وكانت النظائر كثيرة ؛ عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة ، لا يختص بها هو صلى الله عليه وسلم ؛ بل هي لغة قومه ، ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه . كما يفعله كثير من الناس ، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه . ولهذا كان استعمال القياس في اللغة ، وان جاز في الاستعمال ؛ فإنه لايجوز في الاستدلال ، فإنه قد يجوز للانسان أن يستعمل هو اللفظ في نظير المعنى الذى استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع ؛ لكن لا يجوز أن يعمد إلى ألفاظ قد عرف استعمالها في معان فيحملها على غير تلك المعاني ، ويقول : إنهم أرادوا تلك بالقياس على تلك ؛ بل هذا تبديل وتحريف . فإذا قال : « الجار أحق بسقبه »[2] فالجار هو الجار ليس هو الشريك ؛ فإن هـذا لا يعرف في لغتهم ، لكن ليس في اللفظ ما يقتضي أنه يستحق الشفعة ؛ لكن يدل على أن البيع له أولى .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي لفظ نسخة (من نظائر اللفظ)

(٢) رواه البخاري

وأما الخمر ؟ فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسماً لكل مسكر ، لم يسم النبيذ خمراً بالقياس . وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقا ، كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق أحيانا . واللائط عندهم كان أغاظ من الزاني بالمرأة . ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة ، وهـــذه مجازاً ، كما أخطأ المرجئة في اسم الإيمان، جعلوا لفظ الايمان حقيقة في مجرد التصديق ، وتناوله للأعمال مجازاً .

فيقال : ان لم يصح التقسيم إلي حقيقة ومجاز ، فلا حاجة إلى هذا ، وان صح ، فهذا لا ينفعكم ، بل هو عليكم لا لكم ؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الذى يدل بإطلاقه بلا قرينة ، والمجاز إنما يدل بقرينة . وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة ، دخلت فيه الأعمال ، وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد ؛ وهذا يدل على أن الحقيقة قوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة » .

وأما حديث جبريل ، فإن كان أراد بالايمان ما ذكر مع الاسلام ؛ فهو كذلك . وهذا هو المعنى الذي راد النبي ﷺ قطعاً . كما أنه لما ذكر الاحسان أراد الاحسان مع الايمان والاسلام ؛ لم يرد أن الاحسان مجرد عن إيمان وإسلام . ولو قدر أنه أريد بلفظ الايمان مجرد التصديق ؛ فلم يقع ذلك إلا مع قرينة ، فيلزم أن يكون مجازاً ، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث ، بخلاف كون لفظ الايمان في اللغة مرادفاً للتصديق ، ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله ؛ بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص

ولا تقييد ؛ فإن هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما ، فلا يعارض اليقين ، كيف قد عرف فساد كل واحد من المقدمتين ، وأنها من أفسد الكلام .

وأيضاً فليس لفظ الإيمان في دلالته على الأعمال المأمور بهـا بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ في دلاته على الصلاة الشرعية ، والصيام الشرعي ، والحج الشرعي ، سواء قيل : إن الشارع نقله ، أوأراد الحكم دون الاسم ، أوأراد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف ، أو خاطب بالاسم مقيـداً لا مطلقاً .

فان قيل : الصلاة والحج ونحوهما ، لو ترك بعضها بطلت ، بخلاف الإيمان ، فانه لايبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب ؛ قيـــل : إن أراد[1] بالبطلان أنه لا تبرأ الذمة منها كلها ؛ فـكذلك الإيمان الواجب إذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله . وإن أريد به وجوب الإعادة فهذا ليس على الاطلاق ؛ فإن في الحج واجبات إذا تركها لم يعد ، بل تجبر بدم . وكذلك في الصلاة عند اكثر العلماء إذا تركها سهواً أومطلقاً وجبت الاعادة ، فإنما تجب اذا أمكنت الإعادة ، والإ فما تعذرت إعادته ؛ يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها ، وإن أريد بذلك أنه لايثاب على ما فعله ؛ فليس كذلك ، بل قد بين النبي ﷺ في حديث المسيء في صلاته أنه إذا لم يتمها يثاب على ما فعل ، ولا يكون بمنزلة من لم يصل ، وفي عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل ، فإذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على أنه يعتد له بما فعل منها ، فكذلك الإيمان اذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله ؛ إن كان محرماً تاب منه ، وان كان واجباً فعله ؛ فإذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه ، وأثيب على مافعله كسائر العبادات ، وقد دلت النصوص على أنـه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية و في نسخة (اريد)

وقد عدلت المرجئة في هـذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، واعتمدوا على رأيهم ، وعلى ماتأولوه بفهمهم اللغة ، وهذه طريقة أهل البدع ؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس .

ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم . وما تأولوه من اللغة ؛ ولهذا تجدهم لايعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ؛ فلا يعتمدون لا على السنة ، ولا على إجماع السلف وآثارهم ؛ وانما يعتمدون على العقل واللغة ، وتجـدهم لايعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف ، وانما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم ، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً ؛ إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة ، وكتب الأدب واللغة ، وأما كتب القرآن والحديث والآثار ؛ فلا يلتفتون اليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم ، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه ، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة اهل البدع .

واذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل . والقاضي أبو بكر الباقلاني نصر قول جهم في مسألة الايمان متابعة لأبي الحسن الأشعري ، وكذلك اكثر أصحابه . فأما أبو العباس القلانسي ، وأبو علي الثقفي ، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضي أبي بكر وصاحب أبي الحسن ؛ فإنهم نصروا مذاهب السلف وابن كلاب نفسه ، والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون : هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين ، كحماد بن أبي سليمان ، ومـن اتبعه مثـــل أبي حنيفة وغيره .

فصل

وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان ، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى في الإيمان ، فيقول أنا : مؤمن ان شاء الله ؛ لأنه نصر مذهب أهل السنة في أنه لايكفر أحد من أهل القبلة ولايخلدون في النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك ، وهو دائماً ينصر في المسائل التي فيها النزاع بين اهل الحديث وغيرهم ،قول أهل الحديث ، لكنه لم يكن خبيراً بمآخذهم ، فينصره على مايراه هو من الأصول التي تلقاها عن غيرهم ؛ فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في مسألة الإيمان ، ونصر فيها قول جهم مع نصره للاستثناء ؛ ولهذا خالفه كثير من من أصحابه في الاستثناء كما سنذكر مأخذه في ذلك ، واتبعه اكثر اصحابه على نصر قول جهم في ذلك . ومن لم يقف الا على كتب الكلام ، ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة في هذا الباب ؛ فيظن ان ما ذكروه هو قول اهل السنة ؛ وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة ، بل قد كفر أحمد بن حنبل وو كيع وغيرهما من قال بقول جهم في الإيمان الذي نصره أبو الحسن،وهو عندهم شر من قول المرجئة ؛ ولهذا صار من يعظم الشافعي من الزيدية والمعتزلة ونحوهم ، يطعن في كثير ممن ينتسب اليه يقولون : الشافعي لم يكن فيلسوفاً ولامرجئاً ، وهؤلاء فلاسفة أشعرية مرجئة ، وغرضهم ذم الأرجاء ، ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهوراً عند كثير من المتأخرين المنتسبين الى السنة .

قال القاضي أبو بكر في «التمهيد»: فإن قالوا : فخبرونا ما الإيمان عندكم؟ قيل: الإيمان هو التصديق بالله وهو العلم ، والتصديق يوجد بالقلب ؛ فإن قال : فما الدليل على ما قلتم ؟ قيل : اجماع أهل اللغة قاطبة على ان الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق ، لايعرفون في اللغة ايماناً غير ذلك ويدل على ذلك قوله تعالى : (وما أنت بمؤمن لنا)[1] أي بمصدق لنا. ومنه قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لايؤمن بعذاب القبر ، أي : لايصدق بذلك . فوجب أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة ؛ لأن الله ما غير اللسان العربي ولاقلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله ، وتوفرت دواعي الامة على نقله ، ولغلب إظهاره على كتمانه ، وفي علمنا بأنه لم يفعل ذلك ؛ بل إقرار أسماء الأشياء والتخاطب بأسره على ما كان ، دليل على أن الايمان في الشريعة هو الايمان اللغوي ، ومما يبين ذلك قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)[2] وقوله: (إنا جعلناه قرآنا عربياً)[3]. فأخبر انه انزل القرآن بلغة العرب ، وسمى الأسماء[4] بمسمياتهم ، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لاسيما مع القول بالعموم ، وحصول التوقيف على أن القرآن نزل بلغتهم ؛ فدل على ما قلناه من أن الايمان ماوصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات ، هذا لفظه .

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان ، وللجمهور من أ ل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة .

أحدهما : قول من ينازعه في أن الإيمان في اللغة مرادف للتصديق ، ويقول هو بمعنى الإقرار وغيره .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٧
(٢) سورة ابراهيم الآية : ٤
(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٣
(٤) وعلى هامش النسخة الهندية وفي نسخة: الاشياء

والثاني : قول من يقول : وان كان في اللغـــة هو التصديق ؛ فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما قال النبي ﷺ : « والفرج يصدق ذلـك أو يكذبه »[1] .

والثالث : ان يقال : ليس هو مطلق التصديق ، بل هو تصديق خاص مقيـد بقيود اتصل اللفظ بها ،وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له ، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق ، بل بإيمان خاص وصفه وبينه .

والرابع : ان يقال : وان كان هو التصديق ؛ فالتصديق التام القائم مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هذه لوازم الايمان التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ، ويقول : ان هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى

الخامس : قول من يقول : ان اللفظ باق على معناه في اللغة ، ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً .

السادس : قول من يقول : ان الشـــارع استعمله في معنـــاه المجازي ؛ فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي .

السابع : قول من يقول : إنه منقول .

فهذه سبعة أقوال: الأول: قول من ينازع في ان معناه في اللغة التصديق، ويقول: ليس هو التصديق ؛ بل بمعنى الإقرار وغيره . قوله : إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن هو التصديق . فيقال له : من نقل هذا الاجماع ؟ ومن أين يعلم هذا الاجماع ؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الاجماع ؟ .

الثاني : أن يقال : أتعني بأهل اللغـــة نقلتها ، كأبي عمرو ، والأصمعي ، والخليل ، ونحوهم ، أو المتكلمين بها ؟ فإن عنيت الأول ؛ فهؤلاء لا ينقلون كل

---

(١) هو عجز حديث اخرجه الشيخان عن ابي هريرة

ما كان قبل الاسلام بإسناد ، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم ، وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالاسناد ، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الايمان فضلا عن أن يكونوا أجمعوا عليه . وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الاسلام ؛ فهؤلاء لم نشهدهم ، ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك .

الثالث : أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا : الايمان في اللغة هو التصديق ؛ بل ولا عن بعضهم ، وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان ؛ فليس هذا اجماعاً .

الرابع : أن يقال : هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا : معنى هذا اللفظ كذا وكذا ؛ وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب ، وأنه يفهم منه كذا وكذا وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلاماً عن العرب يفهم منه أن الايمان هو التصديق ؛ لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبي ﷺ . وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده ؛ فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى .

الخامس : أنه لو قدر أنهم قالوا هـذا ؛ فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر ، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة ، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن ؟ إنهم كانوا لا يعرفون للايمان معنى غير التصديق .

فإن قيل : هـذا يقدح في العلم باللغة قبل نزول القرآن ؛ قيل : فليكن ، ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن ، والقرآن نزل بلغة قريش ، والذين خوطبوا به كانوا عرباً ، وقد فهموا ما أريد به وهم الصحابة ، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه إلى التابعين حتى انتهى إلينا ، فلم يبق بنا حاجة إلى أن تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى ، وعرفنا أنه نزل بلغتهم ؛ عرفنا أنه كان في لغتهم

لفظ السماء والأرض ، والليل والنهار : والشمس والقمر ، ونحو ذلك على ما هو معناها في القرآن . وإلا فلو كلفنا نقلاً متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن ؛ لتعذر علينا ذلك في جميع الألفاظ ،لا سيما إذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ، فإن هذا يتعذر العلم به . والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفاً على شيء من ذلك ؛ بل الصحابة بلغوا معاني القرآن ، كما بلغوا لفظه . ولو قدرنا أن قوماً سمعوا كلاماً عجمياً ، وترجموه لنا بلغتهم ؛ لم نحتج إلى معرفة اللغة التي خوطبوا بها أولاً .

السادس : أنه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم ؛ وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس: فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لا يؤمن بذلك . ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن ؛ بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة ، لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله : فلان مؤمن يؤمن بالجنة والنار ، وفلان لا يؤمن بذلك . والقائل لذلك وإن كان تصديق القلب داخلاً في مراده ؛ فليس مراده ذلك وحده ، بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فإن مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

السابع : أن يقال : من قال ذلك ؛ فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء ؛ بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ، ويصدق بالشفاعة ويرجوها . وإلا فلو صدق بأنه يعذب في قبره ، ولم يكن في قلبه خوف من ذلك أصلاً ؛ لم يسموه مؤمناً به ، كما أنهم لا يسمون مؤمناً بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بأنه حق . كما لا يسمون إبليس مؤمناً بالله ، وإن كان مصدقاً بوجوده وربوبيته ، ولا يسمون فرعون

مؤمناً ، وإن كان عالماً بأن الله بعث موسى ، وأنه هو الذي أنزل الآيات ، وقد استيقنت بها أنفسهم مع جحدهم لها بألسنتهم . ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول ، وإن كانوا يعرفون أنه حق ، كما يعرفون أبناءهم . فلا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ، ويجب حبه وتعظيمه ، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ، ولا يخافه ولا يرجوه ؛ بل يجحدبه ويكذب به بلسانه ؛ أنهم يقولون : هو مؤمن به ، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه ؛ لم يقولوا : هو مصدق به . ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه ؛ لم يقولوا : هو مؤمن به . فلا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه . وقوله : (وما أنت بمؤمن لنا)[1] قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع ؛ فإن هذا استدلال بالقرآن ، وليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن ، فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر ، كما بسطناه في موضعه .

الوجه الثامن : قوله : لا يعرفون في اللغة إيمانا غير ذلك . من أين له هذا النفي الذي لا تمكن الإحاطة به ؟ بل هو قول بلا علم .

التاسع : قول من يقول : أصل الإيمان مأخوذ من الأمن ، كما ستأتي أقوالهم إن شاء الله . وقد نقلوا في اللغة الإيمان بغير هذا المعنى . كما قاله الشيخ أبو البيان في قول[2] .

الوجه العاشر : انه لو فرض أن الإيمان في اللغة التصديق ؛ فمعلوم أن الايمان ليس هو التصديق بكل شيء ، بل بشيء ، مخصوص وهو ما أخبر به الرسول ، صلى الله عليه وسلم ؛ وحينئذ فيكون الايمان في كلام الشارع أخص من الايمان

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٧

(٢) هنا بياض في الاصل . هكذا كتب في سائر النسخ التي بين ايدينا

في اللغة . ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العام ، كالحيوان إذا أخذ بعض أنواعه وهو الانسان ؛ كان فيه المعني العام ، ومعنى اختص به ، وذلك المجموع ليس هو المعنى العام . فالتصديق الذي هو الإيمان ؛ أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام ، فلا يكون مطابقا له في العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه ؛ بل يكون الايمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص ، كالانسان الموصوف بأنه حيوان وأنه ناطق .

الحادي عشر : أن القرآن ليس فيه ذكر إيمان مطلق غير مفسر ؛ بل لفظ الايمان فيه إما مقيد ، وإما مطلق مفسر . فالمقيد كقوله : (يؤمنون بالغيب)[١] وقوله : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه)[٢] والمطلق المفسر كقوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[٣] الآية . وقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئـــك هم الصادقون)[٤] ونحو ذلك . وقوله : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[٥] وامثال هذه الآيات . وكل ايمان مطلق في القرآن فقد يبين فيه انه لا يكون الرجل مؤمنا إلا بالعمل مع التصديق ؛ فقد بين في القرآن ان الايمان لا بد فيه من عمل مع التصديق ، كما ذكر مثل ذلك في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فإن قيل : تلك الأسماء باقية ، ولكن ضم الى المسمي أعمالاً في الحكم لا في الاسم ، كما يقول القاضي أبو يعلى وغيره ، قيل : ان كان هذا صحيحا قبل مثله في

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣
(٢) سورة يونس ، الآية : ٨٣
(٣) سورة الانفال ، الآية : ١
(٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٥
(٥) سورة النساء لآية : ٦٥

الايمان . وقد أورد هذا السؤال لبعضهم ، ثم لم يجب عنه بجواب صحيح ، بل زعم ان القرآن لم يذكر فيه ذلك ، وليس كذلك ؛ بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق . وهذا في القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة ؛ فإن تلك انما فسرتها السنة ، والايمان بين معناه الكتاب والسنة ، واجماع السلف .

الثاني عشر : انه إذا قيل : إن الشارع خاطب الناس بلغة العرب؛ فإنما خاطبهم بلغتهم المعروفة ، وقد جرى عرفهم ان الاسم يكون مطلقا وعاماً ، ثم يدخل فيه قيد اخص من معناه ، كما يقولون : ذهب الى القاضي والوالي والأمير ، يريدون شخصاً معيناً يعرفونه [١] دلت عليه اللام مع معرفتهما به . وهذا الاسم في اللغة اسم جنس لا يدل على خصوص شخص،وامثال ذلك . فكذلك الايمان والصلاة والزكاة ، انما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف ، وقد عرفهم قبل ذلك ان المراد الايمان الذي صفته كذا وكذا ، او الدعاء الذي صفته كذا وكذا . فبتقدير ان يكون في لغتهم التصديق ؛ فإنه قد يبين أني لا اكتفي بتصديق القلب واللسان ، فضلا عن تصديق القلب وحده ؛ بل لا بد ان يعمل بموجب ذلك التصديق ، كما في قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا)[٢] (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[٣] وفي قوله ﷺ : « لاتؤمنون حتى يكون كذا» . وفي قوله تعالى: (لاتجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادونمن حاد الله ورسوله)[٤] . وفي قوله : (ولو كانوايؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء)[٥] .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : صوابه معروفا به : كما في نسخة خطية .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٥ (٣) سورة الانفال ، الآية : ٢

(٤) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ (٥) سورة ، المائده الآية : ٨١

ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة ، كقوله عليه السلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وقـــوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » . وأمثال ذلك .

فقد بين لهم أن التصديق الذي لا يكون الرجل مومنا إلا به ، هو أن يكون تصديقا على هذا الوجه . وهذا بين في القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .

الثالث عشر : أن يقال : بل نقل وغير . قوله : لو نقل [١] لتواتر ؛ قيل : نعم . وقد تواتر أنه أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة . وأراد بالايمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لا يكون مؤمنا إلا به ، كقوله : (إنما المؤمنون)[٢] وهذا متواتر في القرآن «والسنن» ، ومتواتر أيضا أنه لم يكن يحكم لأحد بحكم الايمان إلا أن يؤدي الفرائض . ومتواتر عنه أنه أخبر أنه : من مات مؤمنا دخل الجنة ولم يعذب . وان الفساق لا يستحقون ذلك ؛ بل هم معرضون للعذاب . فقد تواتر عنه من معاني اسم الايمان وأحكامه ما لم يتواتر عنه في غيره . فأي تواتر أبلغ من هذا ؟ ! وقد توفرت الدواعي على نقل ذلك وإظهاره ، ولله الحمد . ولا يقدر أحد أن ينقل عن النبي ﷺ نقلا يناقض هذا . لكن أخبر أنه يخرج منها من كان معه شيء من الايمان . ولم يقل : إن المؤمن يدخلها ، ولا قال: إن الفساق مؤمنون . لكن أدخلهم في مسمى الايمان في مواضع ، كما أدخل المنافقين في اسم الايمان في مواضع مع القيود . وأما الاسم المطلق الذى وعد أهله بالجنة ؛ فلم يدخل فيه هؤلاء ولا هؤلاء .

الرابع عشر : قوله : ولا وجه للعدول – بالآيات التي تدل على أنه عربي – عن ظاهرها ؛ فيقال له : الآيات التي فسرت المؤمن ، وسلبت الايمـان عمن لم يعمل ؛

(١) في الاصل لوفعل ، والتصحيح من المخطوطة .
(٢) سورة الانفال ، الآية : ٢

أصرح وأكثر من هذه الآيات . ثم اذا دلت على أنه عربي ؛ فما ذكر لا يخرجه عن كونه عربيا . ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك ؛ لم يقولوا : هـذا ليس بعربي . بل خاطبهم باسم المنافق ، وقد ذكر أهل اللغة أن هذا الاسم لم يكن يعرف في الجاهلية ، ولم يقولوا : إنه ليس بعربي ؛ لأن المنافق مشتق من نفق اذا خرج ، فإذا كان اللفظ مشتقا من لغتهم ، وقد تصرف فيه المتـكلم به كما جرت عادتهم في لغتهم ؛ لم يخرج ذلك عن كونه عربيا .

الخامس عشر أنه لو فرض أن هذه الألفاظ ليست عربية ، فليس تخصيص عموم هــذه الألفاظ بأعظم من إخراج لفظ الايمان عما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، فإن النصوص التي تنفي الإيمان عمن لا يحب الله ورسوله ، ولا يخاف الله ولا يتقيه ، ولا يعمل شيئا من الواجب ، ولا يترك شيئا من المحرم ؛ كثيرة صريحة . فإذا قدر أنها عارضها آية ؛ كان تخصيص اللفظ القابل العـــام أولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة .

السادس عشر : ان هؤلاء واقفة في ألفاظ العموم لا يقولون بعمومها ، والسلف يقولون : الرسول وقفنا على معاني الايمان ، وبينه لنا ، وعلمنا مراده منه بالاضطرار ، وعلمنا من مراده علما ضرورياً أن من قيل : انه صدق ، ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ، ولا صلى ولا صام ، ولا أحب الله ورسوله ، ولا خاف الله ، بل كان مبغضا للرسول ، معادياً له يقاتله ؛ أن هذا ليس بمؤمن . كما علمنا أن الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله ، وفعلوا ذلك معه ؛ كانوا عنده كفاراً لا مؤمنين ، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار أكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربي . فلو قدر التعارض ؛ لـكان تقديم ذلك العلم الضروري أولى .

فإن قالوا : من علم أن الرسول كفره ؛ علم انتفاء التصديق[1] من قلبه .

قيل لهم : هذه مكابرة ، ان أرادوا أنهم كانوا شاكين مرتابين . وأما إن عنى التصديق الذي لم يحصل معه عمل ؛ فهو ناقص كالمعدوم : فهذا صحيح . ثم انما يثبت ، اذا ثبت أن الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه[2] ، وذاك انما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التي منها هذا ، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها . ثم يقال : قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله ؛ وكان يحكم بكفرهم . فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته في القلب ، اذا لم يعمل بهذا التصديق ، بحيث يحبه ويعظمه ، ويسلم لما جاء به .

ومما يعارضون به أن يقال ؛ هذا الذي ذكرتموه ، إن كان صحيحا ؛ فهو أدل على قول المرجئة ، بل على قول الكرامية[3] منه على قولكم ، وذلك أن الإيمان إذا كان هو التصديق كما ذكرتم ، فالتصديق نوع من أنواع الكلام ، فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك ، في المعنى واللفظ ، بل في اللفظ الدال على المعنى ، أكثر في اللغة من استعماله في المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لا يوجد قط إطلاق اسم الكلام ولا أنواعه ، كالخبر او التصديق والتكذيب والأمر والنهي ، على مجرد المعنى من غير شيء يقترن به من عبارة ولا إشارة ولا غيرهما ؛ وإنما يستعمل مقيداً . واذا كان الله إنما أنزل القرآن بلغة العرب ؛ فهي لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرهما من الأقوال ، إلا ما كان معنى ولفظا ، أو لفظا يدل على معنى ؛ ولهذا لم يجعل الله أحدا مصدقا للرسل بمجرد العلم والتصديق الذي في قلوبهم ، حتي يصدقوهم

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية وفي نسخة : علم انتفاء ايمانه

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية وفي نسخة : وعمله

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : فالكرامية يقولون : هو النطق باللسان فقط

بألسنتهم . ولا يوجد في كلام العرب أن يقال: فلان صدق فلاناً أو كذبه ، إذا كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك . كما لا يقال: أمره أو نهاه ، إذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ أو اشارة أو نحوهما . ولما قال النبي ، ﷺ : « ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس »[1]. وقال : « إن الله يحدث من أمره ما شاء ، وان مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة »[2] . اتفق العلماء على أنه اذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها ؛ بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب ؛ لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها التكلم بذلك . فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

وأيضا ففي « الصحيحين » عن النبي ، ﷺ ، أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »[3] فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس الى[4] أن تتكلم ؛ ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان ، باتفاق العلماء . فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة ؛ لأن الشارع ، كما قرر إنما خاطبنا بلغة العرب .

وأيضا ففي « السنن » أن معاذاً قال له : يا رسول الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟فقال:« وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم» ، فبين أن الكلام انما هو ما يكون باللسان . وفي « الصحيح » عن النبي ، ﷺ ، أنه قال: « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

وفي « الصحيحين » عنه أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في

---

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه
(٣) متفق عليه
(٤) وعلى هامش النسخة الهندية وفي نسخة: إلا

الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وقد قال الله تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً) [1] وفي « الصحيح » عن النبي ﷺ انه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن في القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله اكبر » . رواه مسلم . وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل صالح يرفعه) [2] ومثل هذا كثير .

وفي الجملة ، حيث ذكر الله في كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء ، أو أتباعهم ، او مكذبيهم ، انهم قالوا ، ويقولون ، وذلك قولهم ، وامثال ذلك ؛ فإنما يعني به المعنى مع اللفظ . فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وامر ، ومصدر واسم فاعل ، من لفظ القول والكلام ونحوهما ، انما يعرف في القرآن والسنة ، وسائر كلام العرب ، اذا كان لفظاً ومعنى ، وكذلك انواعه ، كالتصديق والتكذيب ، والأمر والنهي ، وغير ذلك . وهذا مما لا يمكن احداً جحده ؛ فإنه اكثر من ان يحصى . ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وتابعيهم لا من اهل السنة ، ولا من اهل البدعة . بل اول من عرف في الاسلام انه جعل مسمى الكلام المعنى فقط ، هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهو متأخر في زمن محنة احمد بن حنبل . وقد انكر ذلك عليه علماء السنة ، وعلماء البدعة ، فيمتنع ان يكون الكلام الذي هو اظهر صفات بني آدم ، كما قال تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) [3] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة ، لم يعرفه احد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه اليه أحد من المسلمين ، ولا غيرهم .

---

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ٤،٥ (٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠

(٣) سورة الذاريات ، الآية : ٢٣

فان قالوا : فقد قال الله تعالى (ويقولون في أنفسهم)[1] وقال : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة)[2] ونحو ذلك .

قيل : إن كان المراد انهم قالوه بألسنتهم سراً ، فلا حجة فيه . وهذا هو الذي ذكره المفسرون . قالوا . كانوا يقولون : سام عليك ، فاذا خرجوا يقولون في انفسهم اي يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذبنا بقولنا له مانقول . وان قدر انه أريد بذلك انهم قالوه في قلوبهم ، فهذا قول مقيد بالنفس ، مثل قوله : « عما حدثت بها أنفسها » ولهذا قالوا :(لولا يعذبنا[3] الله بمانقول ،فأطلقوا لفظ القول هنا ، والمراد به ما قالوه بألسنتهم ، لأنه النجوى والتحية(التي نهوا عنها)[4] كما قال تعالى : (الم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومصية الرسول ، واذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)[5] مع ان الاول هو الذي عليه أكثر المفسرين[6] وعليه تدل نظائره ، فان النبي ﷺ قال : «يقول الله : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[7] ،ليس المراد انه لايتكلم به بلسانه ، بل المراد انه ذكر الله بلسانه .

وكذلك قوله : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول)[2] هو الذكر باللسان يقيد بالنفس لفظ الحديث يقال : حديث النفس ، ولم يوجد عنهم انهم قالوا : كلام النفس ، كما قالوا : حديث النفس ، ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التي ترى في المنام ، كقول يعقوب عليه السلام : (ويعلمك من

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٨ (٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥

(٣) في الأصل : يؤاخذنا ، والتصحيح من المخطوطة .

(٤) زيادة من المخطوطة . (٥) سورة المجادلة . الآية : ٨

(٦) في الأصل الذي عليه المفسرون ، والتصحيح من المخطوطة. (٧) متفق عليه .

تأويل الأحاديث) [١] وقول يوسف : (علمتني من تأويل الاحاديث) [٢] تلك في النفس ، لاتكون باللسان ، فلفظ الحديث قد يقيد بما في النفس ، بخلاف لفظ الكلام فإنه لم يعرف انه أريد به ما في النفس فقط .

وأما قوله تعالى : (وأسروا قولكم أواجهروا به انه عليم بذات الصدور)[٣] فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الانسان، وتارة يجهر به فيسمعونه، كما يقال: أسر القراءة وجهربها ، وصلاة السر وصلاة الجهر . ولهذا لم يقل : قولوه بألسنتكم او بقلوبكم ، وما في النفس لا يتصور الجهر به ، وإنما يجهر بما في اللسان ، وقوله :

(إنه عليم بذات الصدور)[٣] من باب التنبيه . يقول : إنه يعلم ما في الصدر ، فكيف لا يعلم القول ، كما قال في الآية الأخرى : (وان تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى)[٤] فنبه بذلك على أنه يعلم الجهر ، ويدل على ذلك أنه قال : (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور)[٣] فلو أراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدر ، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر وإن قيل : نبه ، قيل : بل نبه على القسمين . وقوله تعالى : (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزاً)[٥] قد ذكر هذا في قوله : (ثلاث ليال سويا)[٦] وهناك لم يستثن شيئاً ، والقصة واحدة ، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع ، والمعنى ، آيتك ألا تكلم الناس ، لكن ترمز لهم رمزاً ، كنظائره في القرآن ، وقوله : (فأوحى اليهم)[٧] هو الرمز ولو قدر أن الرمز استثناء متصل لكان قد دخل في الكلام المقيد بالاستثناء ، كما في قوله : (وما كان لبشر أن

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٦ (٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠١
(٣) سورة الملك ، الآية : ١٣٠ (٤) سورة طه ، الآية : ٧
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٤١ (٦) سورة مريم ، الآية : ١٠
(٧) سورة مريم ، الآية : ١١

يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء)[1].

ولا يلزم من ذلك أن يدخل في لفظ الكلام المطلق ؛ فليس في لغة القوم أصلاً ما يدل على أن ما في النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق ؛ فضلاً عن التصديق والتكذيب ، فعلم أن من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمناً ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقول عمر رضي الله عنه : زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها ، حجة عليهم . قال أبو عبيد : التزوير : إصلاح الكلام وتهيئته ، قال : وقال أبو زيد : المزور من الكلام والمزوق واحد ، وهو المصلح الحسن ، وقال غيره : زورت في نفسي مقالة ، أي هيأتها لأقولها . فلفظها يدل على أنه قدر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعلم أنه لا يكون قولاً إلا إذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولاً ، لكن كان مقدراً في النفس يراد أن يقال ، كما يقدر الانسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي ، وأنه يسافر ، إلى غير ذلك ، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس ، ولكن لايسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجدت في الخارج ، كما أنه لا يكون حاجا ومصلياً إلا إذا وجدت هذه الأفعال في الخارج ، ولهذا كان ما يهم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لاتكتب عليه حتى يقوله ويفعله ، وماهم به من القول الحسن والعمل الحسن إنما يكتب له به حسنة واحدة ، فإذ صار قولاًوفعلاً كتب له به عشر حسنات إلى سبعمائة ،وعوقب عليه (إذا قال أو فعل)[2] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل »[3] . وأما البيت الذي يحكى عن الأخطل أنه قال :

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٥١ (٢) زيادة من هامش النسخة الهندية .
(٣) متفق عليه

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره . وقالوا : إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه ، وهذا يروى عن محمد [1] بن الخشاب ، وقال بعضهم : لفظه : إن البيان لفي الفؤاد .

ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في « الصحيحين » عن النبي ﷺ لقالوا : هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول ،فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة ، فضلاً عن مسمى الكلام ثم يقال : مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر ، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة ، وعرفوا معناه في لغتهم ، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل .

وأيضاً فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ في معانيها ، لا بما [2] يذكرونه من الحدود ، فإن أهل اللغة الناطقين لا يقول أحد منهم : إن الرأس كذا ، واليد كذا ، والكلام كذا ، واللون كذا ، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها ، فتعرف لغتهم من استعمالهم .

فعلم أن الأخطل لم يرد بهذا أن يذكر مسمى الكلام ، ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة ، وإنما أراد . إن كان قال ذلك مافسره به المفسرون للشعر ، أي أصل الكلام من الفؤاد ، وهو المعنى ، فإذا قال الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه فلا تثق به [3] ، وهذا كالأقوال التي ذكرها الله عن المنافقين ، ذكر أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ؛ ولهذا قال :

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : صوابه : عن أبي محمد .

(٢) في الأصل : لأن ما . (٣) في الأصل : فلا يثق به .

لا يعجبنك من أثــير خطبة[1]   حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنمـا   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

نهاه أن يعجب بقوله الظاهر حتى يعـلم ما في قلبه من الأصل ، ولهذا قال : حتى يكون مع الكلام أصيلا . وقوله : مع الكلام . دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاماً ، وإن لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه ، وهذا حجة عليهم ، فقـد اشتمل شعره على هذا وهذا ، بل قوله : مع الكلام ، مطلق ، وقوله : إن الكلام لفي الفؤاد . أراد به أصله ومعناه المقصود به ، واللسان دليل على ذلك .

وبالجملة فمن احتاج إلى أن يعرف مسمى الكلام في لغـة العرب ، والفرس ، والروم ، والترك ، وسائر أجناس بني آدم بقول شاعر ، فإنه من أبعد الناس عن معرفة طرق العلم . ثم هو من المولدين ، وليس من الشعراء القدماء ، وهو نصراني كافر مثلث ، واسمه الأخطل ، والخطل فساه في الكلام ، وهو نصراني ، والنصارى قد اخطؤوا في مسمى الكلام ، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .

فتبين أنه إن كان الايمان في اللغة هو التصديق ، والقرآن إنما أراد به مجرد التصديق الذي هو قول ، ولم يسم العمل تصديقاً ، فليس الصواب إلا قول المرجئة : إنه اللفظ والمعنى . أو قول الكرامية : إنه قول باللسان فقط ، فإن تسمية قول اللسان قولاً أشهر في اللغة من تسمية معنى في القلب قولاً . كقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم)[2] وقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين)[3] وأمثال ذلك ، بخلاف ما في النفس ، فإنه إنما يسمى حديثاً . والكرامية[4]

---

(١) وفي نسخة : لا يعجبنك منطق من امرىء .
وفي نسخة أخرى : لا يعجبنك من أثير لفظة .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١١   (٣) سورة البقرة ، الآية : ٨

(٤) وعلى هامش النسخة الهندية : قوله : الكرامية . بفتح الكاف وتشديد الراء ، نسبة إلى إمامهم — أبي عبد الله محمد بن كرم النيسابوري ، وكان والده يحفظ الكرم فقيل له : الكرام . وكان =

يقولون : المنافق مؤمن وهو مخلد في النار ، لأنه آمن ظاهراً لاباطناً ، وانما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً .

قالوا : والدليل على شمول الايمان له أنه يدخل في الأحكام الدينية [١] المتعلقة باسم الايمان كقوله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة) [٢] ويخاطب في الظاهر بالجمعة ، والطهارة ، وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا .

وأما من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ، فانه لا يعلق به شيء من أحكام الايمان ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله :(ياأيها الذين آمنوا) [٣] فعلم أن قول الكرامية في الايمان وإن كان باطلاً مبتدعاً لم يسبقهم اليه أحد ، فقول الجهمية أبطل منه ، وأولئك أقرب الى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية .

والكرامية توافق المرجئة والجهمية في أن ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الايمان ؛بل يقولون : هو مؤمن حقاً لمن أظهر الايمان ، واذا كان منافقاً فهو مخلد في النار عندهم ، فانه انما يدخل الجنة من آمن باطناً وظاهراً ، ومن حكي عنهم أنهم يقولون : المنافق يدخل الجنة ، فقد كذب عليهم ، بل يقولون : المنافق مؤمن لا أن الايمان هو القول الظاهر ، كما يسميه غيرهم مسلم ، اذا الاسلام : هو الاستسلام الظاهر ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعاً ولغة وعقلاً .

واذا قيل : قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين ،قيل : وقول

= أبو عبد الله هذا من أهل نيسابور ثم أنزع عنها ، وانتقل إلى بيت المقدس وسكنها ومات بها سنة ٢٤٤ سمع على ابن حجر وأحمد بن حرب وغيرهما . روى عن ابراهيم بن محمد بن سفيان، وابراهيم بن الحجاج وغيرهما .

(١) وعلي هامش النسخة الهندية : وفي ثلاث نسخ خطية: الدنيوية ، والله أصوب.

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٢

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٠٤

جهم في الإيمان قول خارج عن اجماع المسلمين قبله ، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الايمان . وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة ، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر ، مثل قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين)[1] قالوا : فقـد نفى الله الايمان عن المنافقين .

فنقول : هذا حق ،فإن المنافق ليس بمؤمن ، وقد ضل من سماه مؤمنا. وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه ، كاليهود وغيرهم ، سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شي من أحكام الايمان ، بخلاف المنافق فإنـه يدخل في أحكام الايمان الظاهرة في الدنيا ، بل قد نفى الله الايمان عمن قال بلسانه وقلبه اذا لم يعمل ، كما قال تعالى: (قالت الاعراب آمنا ،قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا)[2] الى قوله : (انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[3] فنفى الايمان عمن سوى هؤلاء ، وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريـق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين)[4] والتولي هو التولي عن الطاعة كما قال تعالى : (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتـكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما)[5] وقال تعالى : (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى)[6] وقد قال تعـالي : (لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى)[7] وكذلك قال موسى وهارون: (أن العذاب على من كذب وتولى)[8] فعلم أن التولي ليس هو التكذيب ، بل هو التولي عن الطاعة ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٨
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٤
(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٥
(٤) سورة النور ، الآية : ٤٧
(٥) سورة الفتح ، الآية : ١٦
(٦) سورة القيامة ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٧) سورة الليل ، الآيتان : ١٥ ، ١٦
(٨) سورة طه ، الآية : ٤٨

فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما[٥] أخبر ويطيعوه فيما أمر . وضد التصديق التكذيب ، وضد الطاعة التولي ، فلهذا قال : (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى)[١] وقد قال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين)[٢] فنفى الايمان عمن تولى عن العمل ، وإن كان قد أتى بالقول . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)[٣] وقال : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[٤] .

ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة ، كما نفي فيها الايمان عن المنافق . وأما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة ، فهذا لم يسم قط مؤمناً ، وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل الايمان ، ايمانه كايمان النبيين ، ولو قال وعمل ماذا عسى أن يقول ويعمل ؟ ولا يتصور عندهم أن ينتفي عنه الايمان الا اذا زال ذلك العلم من قلبه .

ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء في الايمان ، ويقولون : الايمان في الشرع : هو ما يوافي به العبد ربه ، وإن كان في اللغة أعم من ذلك ، فجعلوا في مسألة الاستثناء مسمى الايمان ما ادعوا أنه مسماه في الشرع ، وعدلوا عن اللغة ، فهلا فعلوا هذا في الأعمال ، ودلالة الشرع على أن الأعمال الواجبة من تمام الايمان لا تحصى كثرة ، بخلاف دلالته على أنه لا يسمى إيمانا ؛ إلا ما مات الرجل عليه فإنه ليس في الشرع ما يدل على هذا ، وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف ، لكن

---

(١) سورة القيامة الآيتان : ٣١، ٣٢ (٢) سورة النور ، الآية : ٤٧

(٣) سورة النور ، الآية : ٦٢ (٤) سورة الأنفال ، الآية : ٢

هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا في الايمان من السلف كان هذا مأخذهم ، لأن هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف ، بل ينصرون ما يظهر من أقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من أهل البدع ، فيبقى الظاهر قول السلف ، والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة في الايمان ، وسنذكر - إن شاء الله - أقوال السلف في الاستثناء[1] ولهذا لما صار يظهر لبعض أتباع أبي الحسن فساد قول جهم في الايمان ، خالفه كثير منهم ، فمنهم من اتبع السلف .

قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في « شرح الارشاد » لأبي المعالي ، بعد أن ذكر قول اصحابه قال : وذهب أهل الأثر إلى أن الايمان جميع الطاعات ، فرضها ونفلها ، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر به فرضاً ونفلاً ، والانتهاء عما نهى عنه تحريماً وأدباً[2] . قال : وبهذا كان يقول أبو علي الثقفي من متقدمي أصحابنا، وأبو العباس القلانسي .

وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال : وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

ومنهم من يقول بقول المرجئة : إنه التصديق بالقلب واللسان .

ومنهم من قال : إذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافراً بالشرع ، وإن كان في قلبه التصديق والعلم . وكذلك قال أبو إسحاق الاسفرائيني

قال الأنصاري : رأيت في تصانيفه أن المؤمن إنما يكون مؤمناً حقاً إذا حقق إيمانه بالأعمال الصالحة ، كما أن العالم إنما يكون عالماً حقاً إذا عمل بما علم ، واستشهد بقول الله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)[3] إلى قوله : (أولئك هم المؤمنون حقاً)[4] وقال

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : في الاستثناء في الايمان .

(٢) في الهندية : تحريماً واذنا . (٣) سورة الأنفال ، الآية : ٢

(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٤

أيضاً أبو إسحاق : حقيقة الايمـان في اللغة : التصديق ، ولا يتحقق ذلك إلا بالمعرفة والائتمار ، وتقوم الاشارة والانقياد مقام العبارة[1].

وقال أيضاً أبو اسحاق في كتاب « الأسماء والصفات » : اتفقوا على أن ما يستحق به المكلف اسم الايمان في الشريعة أوصاف كثيرة ، وعقائد مختلفة ، وإن اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه ، واختلفوا في اضافة مالا يدخل في جملة التصديق اليه لصحة الاسم ، فمنها ترك قتل[2] الرسول ، وترك إيذائه ، وترك تعظيم الأصنام ، فهذا من التروك ، ومن الأفعال نصرة الرسول والذب عنه ، وقالوا : إن جميعه يضاف الى التصديق شرعاً ، وقال آخرون : إنه من الكبائر ، لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الايمان .

قلت : وهذان القولان ليسا قول جهم ، لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب ، وليس هو شيئاً واحداً ، وقال : إن الشرع تصرف فيه ، وهذا أهم[3] أصلهم ، ولهذا كان حذاق هؤلاء ، كجهم ، والصالحي ، وأبي الحسن ، والقاضي أبي بكر ، على أنه لا يزول عنه اسم الايمان الا بزوال العلم من قلبه .

قال أبو المعالي : باب في ذكر الأسماء والأحكام : اعلم أن غرضنا في هـذا الباب يستدعي تقديم ذكر حقيقة الإيمان . قال : وهذا مما تباينت فيه مذاهب الإسلاميين ، ثم ذكر قول الخوارج ، والمعتزلة ، والكرامية ، ثم قال : وأما مذاهب[4] أصحابنا ، فصار التحقيق من أصحاب الحديث والنظار منهم إلى أن الإيمان هو التصديق ، وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليه ، واختلف رأيه في معنى التصديق ، وقال مرة : المعرفة بوجوده وقدمه وإلهيته ، وقال مرة: التصديق : قول في النفس ، غير أنه يتضمن المعرفة ، ولا يصح أن يوجد دونها ، وهذا مقتضاه،

---

(١) وفي الهندية : العبادة : (٢) وفي الهندية : ترك قيل الرسول .
(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : يهدم . (٤) في المخطوطة : مذهب .

فإن التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالأقوال أجدر ، فالتصديق إذاً قول في النفس يعبر عنه باللسان ، فتوصف العبادة بأنها تصديق ، لأنها عبارة عن التصديق: وقال بعض أصحابنا : التصديق لا يتحقق إلا بالقول والصدق جميعاً ، فإذا اجتمعا كانا تصديقاً واحداً .

ومنهم من اكتفى بترك العناد ؛ فلم يجعل الاقرار أحد ركني الايمان ،فيقول : الايمان : هو التصديق بالقلب ، وأوجب ترك العناد بالشرع ، وعلى هذا الأصل يجوز أن يعرف الكافر الله ، وإنما يكفر بالعناد ، لا لأنه ترك ما هو الأهم في الإيمان .

وعلى هذا الأصل يقال : إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد ﷺ ، إلا أنهم كفروا عناداً وبغياً وحسداً . وعلى قول شيخنا أبي الحسن : كل من حكمنا بكفره فنقول : إنه لا يعرف الله أصلاً ، ولا عرف رسوله ولا دينه .

قال أبو القاسم الأنصاري تلميذه : كأن المعنى : لا حكم لإيمانه ولا لمعرفته شرعاً[1] .

قلت : وليس الأمر على هذا القول كما قاله الأنصاري هذا ، ولكن على قولهم : المعاند كافر شرعاً ، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الإيمان الذي في القلب ، وتارة بالعناد ، ويجعل هذا كافراً في الشرع وإن كان معه حقيقة الايمان الذي هو التصديق، ويلزمه أن يكون كافراً في الشرع ، مع أن معه الايمان ألذي هو مثل ايمان الأنبياء والملائكة . والحذاق في هذا المذهب ، كأبي الحسن ، والقاضي ، ومن قبلهم من أتباع جهم ، عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل فقالوا : لا يكون واحد[2] كافراً الا اذا ذهب ما في قلبه من التصديق ، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره ،

---

(١) في الهندية : لا يحكم لايمانه ولا لمعرفته شرعاً .

(٢) في الهندية : أحد .

فإنه ليس في قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله ، ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء ، وقالوا : هذا مكابرة وسفسطة .

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الى قوله : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) [1] الآية . قالوا : ومفهوم هذا ، ان لم يعمل بمقتضاه لم يكتب في قلوبهم الإيمان .

قالوا : فإن قيل : معناه : لا يؤمنون ايماناً مجزئاً معتداً به ، أو يكون المعنى : لا يؤدون حقوق الايمان ، ولا يعملون بمقتضاه . قلنا : هذا عام لا يخصص الا بدليل .

فيقال لهم : هذه الآية فيها نفي الايمان عمن يواد المحادين لله ورسوله ، وفيه [2] أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه ، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ، ومن بغض من يحاد الله ورسوله ، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذي في قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لا يبقي منه شيء ، والإيمان الذي كتب [3] ليس هو مجرد العلم والتصديق ، بل هو تصديق القلب وعمل القلب ، ولهذا قال : (وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) [1] فقد وعدهم بالجنة . وقد اتفق الجميع على أن الوعد بالجنة لا يكون الا مع الإتيان بالمأمور به وترك المحظور ، فعلم أن هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، قد أدوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الابرار المتقين ، ودل هذا على

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢

(٢) في المخطوطة : وفيها .

(٣) في المخطوطة : والإيمان الذى كتب في القلب . خ

أن الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد ، ودلت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار [١] ، ومعلوم أن خلقاً كثيراً من الناس يعرف من نفسه أن التصديق في قلبه لم يكذب الرسول ، وهو مع هذا يواد بعض الكفار ، فالسلف يقولون : ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب ، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذي هو حب الله ورسوله ، وخشية الله ، نحو ذلك لا يستلزم أن لا يكون في القلب من التصديق شيء ، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع ايمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلاً ، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء .

وكذلك حكى ابن فورك عن أبي الحسن قال : الايمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقاداً،هو علم ، ومنه ليس[٢] بعلم ؛ والايمان بالله وهو اعتقادصدقه إنما يصح إذا كان عالما بصدقه في أخباره ، وإنما يكون كذلك إذا كان عالماً بأنه يتكلم ، والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حي ؛ والعلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل ، والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل ، وهو كون العالم فعلاً له ، وقال : وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قدرة وعالماً وله علم ، ومريداً وله أرادة ، وسائر مالايصح العلم بالله إلا بعد العلم به من شرائط الايمان .

قلت : هذا مما اختلف فيه قول الأشعري ، وهو ان الجهل ببعض الصفات ، هل يكون جهلا بالموصوف ، أم لا ؟ على قولين ، والصحيح الذي عليه الجمهور وهو آخر قوليه ، أنه لا يستلزم الجهل بالموصوف ، وجعل إثبات الصفات من الايمان ، مما خالف فيه الأشعري جهماً ، فإن جهماً غالى في نفي الصفات ، بل وفي الأسماء .

قال أبو الحسن : ثم السمع ورد بضم شرائط أخر إليه ، وهو أن لا يقترن به ما يدل على كفر من يأتيه فعلاً وتركا ، وهو أن الشرع أمره بترك العبادة والسجود للصنم ، فلو أتى به دل على كفره ، وكذلك من قتل نبياً أواستخف به ، دل على كفره ،وكذلك لو ترك تعظيم المصحف أوالكعبة دل على كفره ، قال : وأحدمااستدللنا

(١) في المخطوطة : الكفار والفساق . (٢) في الهندية : ومنه ماليس .

به على كفره ما منع[1] الشرع ، أن يقرنه بالايمان أو أوجب ضمه إلى الايمان لو وجد ، دلنا ذلك على أن التصديق الذي هو الايمان مفقود من قلبه ، و كذلك كل ما كفر به المخالف من طريق التأويل فإنما كفرناه به لدلالته على ما فقد ما هو ايمان من قلبه ، لاستحالة أن يقضي السمع بكفر من معه الايمان والتصديق بقلبه .

فيقال : لا ريب أن الشارع لا يقضي بكفر من معه الإيمان بقلبه ، لكن دعواكم أن الايمان هو التصديق وإن تجرد عن جميع أعمال القلب ، غلط ، ولهذا قالوا : أعمال التصديق والمعرفة من قلبه ، ألا ترى أن الشريعة حكمت بكفره ، والشريعة لا تحكم بكفر المؤمن المصدق ، ولهذا نقول : ان كفر ابليس لعنه الله كان أشد من كفر كل كافر ، وانه لم يعرف الله بصفاته قطعاً ، ولا آمن به ايماناً حقيقياً باطنا وان وجد منه القول والعبادة ، و كذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الكفرة لم يوجد في قلوبهم حقيقة الايمان المعتد به في حال حكمنا لهم بالكفر . قال الله تعالى :(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء) [2] وقوله: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) [3] الآية فجعل الله هذه الأمور شرطاً في ثبوت حكم الايمان ، فثبت أن الإيمان المعرفة بشرائط لا يكون معتداً به دونها .

فيقال : إن قلتم : انه ضم الى معرفة القلب شروطاً في ثبوت الحكم أو الاسم ، لم يكن هذا قول جهم ، بل يكون هذا قول من جعل الايمان كالصلاة ، والحج هو وان كان في اللغة بمعنى القصد والدعاء ، لكن الشارع ضم اليه أموراً إما في الحكم وإما في الحكم والاسم ، وهذا القول قد سلم صاحبه أن حكم الايمان المذكور في الكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب ، بل لابد من تلك الشرائط ، وعلى هذا لا يمكنه جعل الفاسق مؤمناً إلا بدليل يدل على ذلك ، لا بمجرد قول : ان معه تصديق القلب ، ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول : كل كافر في النار ليس معه من التصديق بالله شيء ، لا مع إبليس ولا مع غيره وقد قال الله تعالى: (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا

---

(١) في الهندية : ما مانع . (٢) سورة المائدة ، الآية : ٨١
(٣) سورة النساء . الآية : ٦٥ وتمامها : ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما .

لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا انا كلٌ فيها ان الله قد حكم بين العباد)[1] وقال تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)[2] فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا ؛ فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار . وقال تعالى : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء)[3] فقد كذبوا بوجوده و كذبوا بتنزيله . وأما في الآخرة فعرفوا الجميع . وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)[4] وقال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد)[5] إلى قوله : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)[6] إلى آيات أخر كثيرة تدل على أن الكفار في الآخرة يعرفون ربهم فإن كان مجرد المعرفة إيماناً كانوا مؤمنين في الآخرة :

فإن قالوا : الإيمان في الآخرة لا ينفع ، وإنما الثواب على الإيمان في الدنيا .

قيل : هذا صحيح ، لكن إذا لم يكن الإيمان إلا مجرد العلم ؛ فهذه الحقيقة لا تختلف ، فإن لم يكن العمل من الإيمان ، فالعارف في الآخرة لم يفته شيء من الإيمان ، لكن أكثر ما يدعونه أنه حين مات لم يكن في قلبه من التصديق بالرب شيء ، ونصوص القرآن في غير موضع تدل على أن الكفار كانوا في الدنيا مصدقين بالرب ، حتى فرعون الذي أظهر التكذيب كان في باطنه مصدقاً . قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً)[7] وكما قال موسى لفرعون : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)[8] ومع هذا لم يكن

---

(١) سورة غافر ، الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ (٢) سورة الزمر ، الآية : ٧١
(٣) سورة الملك ، الآيتان : ٨،٧ (٤) سورة الانعام ، الآيه : ٣٠
(٥) سورة ق ، الآية : ١٩ (٦) سورة ق ، الآية : ٢٢
(٧) سورة النمل ، الآية : ١٤ (٨) سورة الاسراء الآية : ١٠٢

مؤمنا ، بل قال موسى : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) [١] : قال الله : (قد أجيبت دعوتكما) [٢] ولما قال فرعون : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل) [٣] . قال الله : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) [٤] فوصفه بالمعصية ، لم يصفه بعدم العلم في الباطن ، كما قال : (فعصى فرعون الرسول) [٥] وكما قال عن إبليس : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) [٦] فلم يصفه إلا بالإباء والاستكبار ومعارضته الأمر ، لم يصفه بعدم العلم ، وقد أخبر الله عن الكفار أنهم كانوا معترفين بالصانع في مثل قوله : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [٧] .

ثم يقال لهم : إذا قلتم هو [٨] التصديق بالقلب ، أو باللسان ، أو بهما ، فهل هو التصديق المجمل ؟ أو لا بد فيه من التفصيلي ؟ فلو صدق أن محمداً رسول الله ولم يعرف صفات الحق ، هل يكون مؤمناً أم لا ؟ فإن جعلوه مؤمناً . قيل : فإذا بلغه ذلك فكذب به ، لم يكن مؤمناً باتفاق المسلمين ، فصار بعض الإيمان أكمل من بعض ، وإن قالوا : لا يكون مؤمناً ، لزمهم أن لا يكون أحد مؤمناً حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول ؛ ومعلوم أن أكثر الأمة لا يعرفون ذلك ؛ وعندهم الإيمان لا يتفاضل إلا بالدوام فقط .

قال أبو المعالي : فإن قال القائل : أصلكم يلزمكم أن يكون إيمان المتهتك [٩] في فسقه كإيمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٨٨
(٢) سورة يونس ، الآية : ٨٩
(٣) سورة يونس ، الآية : ٩٠
(٤) سورة يونس ، الآية : ٩١
(٥) سورة المزمل ، الآية : ١٦
(٦) سورة ص ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤
(٧) سورة الزخرف ، الآية : ٨٧
(٨) في المخطوطة : إذا قلتم : الايمان هو .
(٩) في المخطوطة : ايمان المنهمك .

قلنا : الذي يفضل إيمانه على إيمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله إياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب، والتصديق عرض من الأعراض لا يبقى، وهو متوال للنبي ﷺ ثابت لغيره في بعض الأوقات ، وزائل عنه في أوقات الفترات ، فيثبت للنبي ﷺ أعداد من التصديق ، ولا يثبت لغيره إلا بعضها ، فيكون إيمانه لذلك أكثر وأفضل ؛ قال : ولو وصف الايمـان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيماً .

قلت : فهذا هو الذي يفضل به النبي غيره في الايمان عندهم ، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد من وجوه كثيرة ، كما قد بسط في مواضع أخرى .

فصل

قال الذين نصروا مذهب جهم في الإيمان من المتأخرين — كالقاضي أبي بكر وهذا لفظه :

فإن قال قائل : وما الاسلام عندكم ؟ قيل له : الاسلام : الانقياد والاستسلام ، فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لأمره فهي إسلام ، والإيمان : خصلة من خصال الاسلام ؛ وكل إيمان اسلام ، وليس كل اسلام إيماناً ، فإن قال : فلم قلتم : إن معنى الاسلام ما وصفتم : قيل : لأجل قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[١] فنفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام ، وإنما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام ، ومنه : (ألقوا اليـكم السلم)[٢] وكل من استسلم لشيء فقد أسلم ، وان كان أكثر ما يستعمل ذلك في المستسلم لله ولنبيه .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٢) سورة النساء ، الآية : ٩٠

قلت : وهذا الذي ذكروه مع بطلانه ومخالفته للكتاب والسنة هو تناقض ، فانهم جعلوا الايمان خصلة من خصال الاسلام ، فالطاعات كلها إسلام وليس فيها ايمان الا التصديق ، والمرجئة وان قالوا : ان الايمان تضمن الاسلام ، فهم يقولون : الايمان هو تصديق القلب واللسان ، وأما الجهمية فيجعلونه تصديق القلب ، فلا تكون الشهادتان ، ولا الصلاة ، ولا الزكاة ، ولا غيرهن من الايمان ، وقد تقدم ما[1] بينه الله ورسوله ، من أن الاسلام داخل في الايمان ، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون مسلماً ، كما أن الايمان داخل في الاحسان ، فلا يكون محسناً حتى يكون مؤمناً .

واما التناقض ، فإنهم اذا قالوا : الايمان خصلة من خصال الاسلام ، كان من أتى بالايمان إنما أتى بخصلة من خصال الاسلام ، لا بالاسلام الواجب جميعه . فلا يكون مسلماً حتى يأتي بالاسلام كله ، كما لا يكون عندهم مؤمناً ، حتى يأتي بالايمان كله ، والا فمن اتى ببعض الايمان عندهم لا يكون مؤمناً ، ولا فيه شيء من الايمان ، فكذلك يجب ان يقولوا في الاسلام ، وقد قالوا : كل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، وهذا ان ارادوا به أن كل إيمان هو الاسلام الذي أمر الله به ، ناقض قولهم : ان الإيمان خصلة من خصاله ، فجعلوا الايمان بعضه ولم يجعلوه اياه ، وان قالوا : كل ايمان فهو اسلام ، أي هو طاعة لله ، وهو جزء من الاسلام الواجب ، وهذا مرادهم . قيل لهم : فعلى هذا يكون الاسلام متعدداً بتعدد الطاعات ، وتكون الشهادتان وحدهما إسلاما ، والصلاة وحدها اسلاماً ، والزكاة اسلاماً ، بل كل درهم تعطيه للفقير إسلاماً ، وكل سجدة اسلاماً ، وكل يوم تصومه اسلاماً ، وكل تسبيحة تسبحها في الصلاة او غيرها اسلاماً .

ثم المسلم إن كان لا يكون مسلماً إلا بفعل كل ماسميتموه إسلاماً ، لزم أن يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملي الايمان عندكم ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الكرامية ، ويلزم أن الفساق من أهل القبلة

---

(١) في المخطوطة :فيا .

ليسوا مسلمين ؛ وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل وأن يكون من ترك التطوعات ليس مسلماً ، إذ كانت التطوعات طاعة لله ، ان جعلتم كل طاعة فرضاً او نفلا إسلاماً .

ثم هذا خلاف ما احتججتم به من قوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[1] فأثبت لهم الاسلام دون الايمان ، وايضاً فإخراجكم الفساق من اسم الاسلام ان اخرجتموهم ، اعظم شناعة من اخراجهم من اسم الايمان ، فوقعتم في أعظم ما عبتموه على المعتزلة ، فإن الكتاب والسنة ينفي[2] عنهم اسم الايمان أعظم مما ينفي اسم الاسلام، واسم الايمان في الكتاب والسنة أعظم

وإن قلتم : بل كل من فعل طاعة سمي مسلماً ، لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً ،ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه أن يكون مسلماً عندكم ، لأن الايمان عندكم إسلام ، فمن أتي به فقد أتى بالاسلام، فيكون مسلماً عندكم من تكلم بالشهادتين ولا أتى بشيء من الأعمال .

واحتجاكم بقوله : (قالب الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[1] قلتم: نفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام .فيقال : هذه الآية حجة عليكم لأنه لما أثبت[3] الاسلام مع انتفاء الايمان ، دل ذلك على أن الايمان ليس بجزء من الاسلام ، إذ لو كان بعضه لما كانوا مسلمين إن لم يأتوا به ، وإن قلتم . أردنا بقولنا : أثبت لهم الاسلام أي إسلاماً ما ، فإن كل طاعة من الاسلام إسلام عندنا ، لزمكم ما تقدم، من أن يكون صوم يوم اسلاماً ، وصدقة درهم إسلاماً ، وأمثال ذلك .

وهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، قالو : هذا من حيث الاطلاق ، والا فالتفصيل ماذكرناه من أن الايمان خصلة من خصال الاسلام والدين، وليس هو جميع الاسلام والدين ، فإن الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للأمر ، والايمان اعظم خصلة من خصال الاسلام ، واسم الاسلام شامل لكل

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٢) وعلى هامش النسخة الهندية : ينفيان .

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : أثبت لهم .

طاعة انقاد بها العبد لله ، من إيمان ، وتصديق ، وفرض سواه ، ونفل ، غير أنه لايصلح التقرب بفعل ما عدا الايمان من الطاعات دون تقديم فعل الايمان ، قالوا : والدين مأخوذ من التدين ، وهو قريب من الاسلام في المعنى .

فيقال لهم : اذا كان هذا قولهم[١] ، فقولكم : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً يناقض هذا ، فان المسلم هو المطيع لله ، ولاتصح الطاعة من أحد الا مع الايمان ، فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئاً من الاسلام إلا وهو مؤمن ، ولو كان ذلك أدنى الطاعات ، فيجب أن يكون كل مسلم مؤمناً ، سواء أريد بالاسلام فعل جميع الطاعات ، أو فعل واحدة منها ، وذلك لا يصح كله الا مع الايمان ، وحينئذ فالآية حجة عليكم لا لكم .

ثم قولكم : كل مؤمن مسلم ، وأنكم[٢] تريدون بالايمان تصديق القلب فقط ، فيلزم أن يكون الرجل مسلماً ولو لم[٣] يتكلم بالشهادتين ولا أتى بشيء من الأعمال المأمور بها ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام ، بل عامة اليهود والنصارى يعلمون أن الرجل لا يكون مسلماً حتى يأتي بالشهادتين أو مايقوم مقامهما ، وقولكم : كل مؤمن مسلم ، لايريدون أنه أتى بالشهادتين ولا بشيء من المباني الخمس ، بل أتى بما هو طاعة وتلك طاعة باطنة ، وليس هذا هو المسلم المعروف في الكتاب والسنة ، ولا عند الأئمة الأولين والأخرين ، ثم استدللتم بالآية ، والأعراب إنما أتوا بإسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين ، سواء كانوا صادقين أو كاذبين ، فأثبت الله لهم الاسلام دون الايمان ، فيظن من لا يعرف حقيقة الأمر أن هذا هو قول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة من أن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وبينهما من التباين أعظم مما بين قول السلف . وقول المعتزلة في الايمان والاسلام ، فإن قول المعتزلة في الايمان والاسلام أقرب من قول الجهمية بكثير ، ولكن قولهم في تخليد أهل القبلة أبعد عن قول السلف من قول الجهمية ، فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم في مسألة الايمان

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : قولكم . (٢) وعلى هامش النسخة الهندية : وإن كنتم .

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : وإن لم .

يظهرون قول السلف في هذا وفي الاستثناء ، وفي انتفاء الايمان الذي في القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك. وذلك كله موافق للسلف في مجرد اللفظ ، وإلا فقولهم في غاية المباينة لقول للسلف ، ليس في الأقوال أبعد عن السلف منه ، وقول المعتزله والخوارج والكرامية في اسم الايمان والاسلام أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية ، لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة ، وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول ، فهم أقرب في الاسم وأبعد في الحكم ، والجهمية وإن كانوا في قولهم : بأن الفساق لايخلدون أقرب في الحكم إلى السلف ، فقولهم في مسمى الاسلام والايمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة ، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة مالا يوجد مثله لغيرهم .

فصل

وبما يدل من القرآن على أن الايمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى : (إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون)[1] فنفى الايمان عن غير هؤلاء ، فمن كان إذا ذكر بالقرآن لايفعل مافرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين ، وأما سجود التلاوة ففية نزاع ؛ وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه ، لكن ليس هذا موضع بسط هذ المسألة ، فهذه الآية مثل قوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم)[2] وقوله :(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[3] وقوله :(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٥ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٥
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٢

أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)[١] ومن ذلك قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون)[٢] .

وهذه الآية مثل قوله : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)[٣] وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وماأنزل اليه مااتخذوهم أولياء)[٤] بين سبحانه أن الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده موادة من حاد الله ورسوله ، ومن أضداده استئذانه في ترك الجهاد ، ثم صرح بأن استئذانه انما يصدر من الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، ودل قوله: (والله عليم بالمتقين)[٥] على أن المتقين هم المؤمنون ؟

ومن هذا الباب قوله ﷺ : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[٦] وقوله : « لايؤمن من لايأمن جاره بوائقه »[٧] وقوله « لا تؤمنوا حتى تحابوا »[٨] وقوله «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[٩] وقوله «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير مايحب لنفسه »[١٠] : وقوله : « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا»[١١] .

---

(١) سورة النور ، الآية : ٦١
(٢) سورة التوبة ، الآيات : ٤٣ - ٤٥
(٣) سورة المجادلة : الآية : ٢٢
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٨١
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١١٥
(٦) متفق عليه
(٧) متفق عليه وقد تقدم.
(٨) رواه مسلم وتقدم
(٩) متفق عليه
(١٠) متفق عليه
(١١) رواه مسلم

فصل

وأما اذا قيد الايمان فقرن بالاسلام أو بالعمل الصالح ، فانه قد يراد به ما في القلب من الايمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضاً المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام ، أو لا يكون حين الاقتران داخلاً في مسماه؟ بل لا يكون[1] لازماً له ، على مذهب أهل السنة ، لا يكون بعضاً ولا لازماً ؛ هذا فيه ثلاثة أقوال للناس ، كما سيأتي ان شاء الله ، وهذا موجود في عامة الأسماء يتنوع مسماها بالإطلاق والتقييد ، مثال ذلك اسم المعروف والمنكر اذا أطلق كما في قوله تعـالى : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)[2] وقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)[3] وقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[4] يدخل في المعروف كل خير ، وفي المنكر كل شر ، ثم قد يقرن بما أخص منه كقوله : (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)[5] فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الإيمان والعمل ، واسم الايمان والاسلام ، وكذلك قوله تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[6] غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله: (وينهون عن المنكر)[4] ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله: (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر

---

(١) في الهندية : بل يكون ، ولعل الصواب أن يقال : بل ما يكون .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ (٣) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠
(٤) سورة التوبة ، الآية : ٧١ (٥) سورة النساء ، الآية : ١١٤
(٦) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥

والبغي)[1] جعل البغي هنا مغايراً لهما، وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين

ومن هذا الباب لفظ العبادة ، فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله ، فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به ؛ فيدخل ذلك في مثل قوله: (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[2] وفي قوله:(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)[3] وقوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم)[4] وقوله: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين)[5] (قل الله أعبد مخلصا له ديني)[6] وقوله : (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)[7] ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين)[8] وقوله : (فاعبده وتوكل عليه)[9] وقول نوح: (اعبدوا الله واتقوه وأطيعون)[10] وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته ، وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به ، وترك كل محظور .

قال طلق بن حبيب : التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ، وهذا كما في قوله: (إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر)[11] وقد يقرن بها اسم آخر كقوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[12] وقوله : (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[13] وقوله: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)[14] وقوله: (اتقوا

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٠
(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٩٦
(٣) سورة النساء ، الآية : ٣٦
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢١
(٥) سورة الزمر ، الآية : ٢
(٦) سورة الزمر ، الآية : ١٤
(٧) سورة الزمر ، الآية : ٦٤
(٨) سورة الفاتحة ، الآية : ٥
(٩) سورة هود ، الآية : ١٢٣
(١٠) سورة نوح ، الآية : ٧٠
(١١) سورة القمر ، الآيتان : ٥٤ ، ٥٥
(١٢) سووة الطلاق ، الآيتان : ٢ ، ٣
(١٣) سورة يوسف ، الآية : ٩٠
(١٤) سورة النساء ، الآية : ١

الله وقولوا قولا سديداً)[1] وقوله : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[2] وقوله : (اتقوا الله حق تقاته ولا ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[3] وأمثال ذلك .

فقوله : (اتقوا الله وقولوا قولا سديداً)[4] مثل قوله : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)[5] وقوله : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)[6] فعطف قولهم على الإيمان كما عطف القول السديد على التقوى ، ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد ، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول ، وكذلك قوله: (آمنوا بالله ورسوله)[5]،وإذا أطلق الإيمان باللهفي حق أمة محمد دخل فيه الإيمان بالرسول ، وكذلك قوله : (كل آمن بالله وملائكتهوكتبهورسله)[7] وإذا أطلق الإيمان بالله دخل فيه الإيمان بهذه التوابع ، وكذلك قوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)[8] وقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم)[9] الآية .

وإذا قيل : قوله : (آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي)[10] دخل في الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والنبيين ، وكذلك إذا قيل : (آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته)[11] وإذا قيل : (آمنوا باللهورسولهوأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)[5] دخل في الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله ، والانفاق يدخل في قولهفي الآية الأخرى: (آمنوا بالله ورسوله)[5] كما يدخل القول السديد في مثل قوله :

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٠
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٩
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢
(٤) سورةالاحزاب ، الآية : ٧٠
(٥) سورة الحديد ، الآية : ٧
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥
(٨) سورة البقرة ، الآية : ٤
(٩) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦
(١١) سورة الحديد ، الآية : ٢٨
(١٠) سورة الاعراف ، الآية : ١٥٨

(ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب)[1] .

وكذلك لفظ البر إذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله : (إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم) [2] وقوله : (ولكن البر من اتقى) [3] وقوله : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) [4] فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى ، والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ، ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) [5] .

وكذلك لفظ الاثم اذا أطلق دخل فيه كل ذنب ، وقد يقرن بالعدوان كما في قوله تعالى : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) [5] وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم، كما في قوله : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً) [6] ثم قد يقرن بغيره كما في قوله : (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا) [7] وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما أمر به كما في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) [8] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً . وكذلك قوله : (هدى للمتقين) [9] المراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ، ولهذا صاروا مفلحين ، وكذلك قول أهل الجنة: (الحمد لله الذي هدانا لهذا)[10] وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ، ثم قد يقرن الهدى

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٣١
(٢) سورة الانفطار ، الآيتان : ١٣، ١٤ (٣) سورة البقرة ، الآية : ١٨٩
(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ (٥) سورة المائدة ، الآية : ٢
(٦) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ (٧) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٧
(٨) سورة الفاتحة ، الآية : ٦
(٩) سورة البقرة الآية : ٢ (١٠) سورة الاعراف ، الآية : ٤٣

اما بالاجتباء كما في قوله (واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم)[1] وكما في قوله : (شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه)[2] (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب)[3] وكذلك قوله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)[4] والهدى هنا الايمان ودين الحق هو الاسلام ، واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا .

ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى ، سواء كان عمداً أو جهلاً ، ولزم أن يكون معذباً كقوله : (انهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون)[5] وقوله : (ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً)[6] وقوله : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)[7] ثم قد يقترن بالغي أو الغضب كما في قوله : (ماضل صاحبكم وما غوى)[8] وفي قوله : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[9] وقوله : (ان المجرمين في ضلال وسعر)[10] وكذلك لفظ الغي اذا أطلق تناول كل معصية لله كما في قوله عن الشيطان : (لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين)[11] وقد يقرن بالضلال كما في قوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى)[8] .

وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين ، واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير ، واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر ؛ فالأول كقوله : (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم)[12] وقوله : (فكفارته اطعام عشرة مساكين)[13]

---

(١) سورة الانعام الآية : ٨٧ (٢) سورة النحل ، الآية : ١٢١
(٣) سورة الشورى ، الآية : ١٣ (٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٨
(٥) سورة الصافات ، الآيتان : ٦٩ و ٧٠
(٦) سورة الاحزاب ، الآيتان ٦٧ و ٦٨
(٧) سورة طه ، الآية : ١٢٣ (٨) سورة النجم ، الآية : ٢
(٩) سورة الفاتحة ، الآية : ٧ (١٠) القمر ، الآية: ٤٧
(١١) سورة الحجر ، الآيتان : ٣٩ و ٤٠
(١٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١ (١٣) سورة المائدة ، الآية : ٨٩

والثاني كقوله : (انما الصدقات للفقراء والمساكين)[1] .

وهذه الاسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا افرد أحدهما أعم من ذلك الآخر ، كاسم الايمان والمعروف مع العمل ومع الصدق ؛ وكالمنكر مع الفحشاء ومع البغي ونحو ذلك ، وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص ، كلفظ الايمان والبر والتقوى ، ولفظ الفقير والمسكين ؛ فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر ؛ وكذلك لفظ التلاوة فإنها اذا أطلقت في مثل قوله : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته)[2] تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالو : يتلونه حق تلاوته ، يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه : وقيل : هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله : (والقمر اذا تلاها)[3] وهذا يدخل فيه من لم يقرأه وقيل : بل من تمام قراءته أن يفهم معناه ويعمل به كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وقوله : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته)[2] قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة . وروى محمد بن نصر باسناده الثابت عن ابن عباس : (يتلونه حق تلاوته)[2] قال يتبعونه حق اتباعه . وروي أيضاً عن ابن عباس : يتلونه حق تلاوته ، قال : يحلون حلاله . ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه ، وعن قتادة : يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، قال : أولئك أصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه ، ذكر لنا ابن مسعود كان يقول : ان حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وأن نقرأه كما أنزل الله ولانحرفه

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٦٠
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٢١
(٣) سورة الشمس ، الآية : ٢

عن مواضعه ، وعن الحسن: يتلونه حق تلاوته ، قال : يعملون بحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه ، وعن مجاهد : يتبعونه حق اتباعه وفي رواية : يعملون به حق عمله .

ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها كقوله : (أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) . قال أحمد بن حنبل وغيره: تلاوة الكتاب : العمل بطاعة الله كلها ، ثم خص بالذكر كما في قوله : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) (٢) وقوله : (فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) (٣) وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) (٤) وقوله : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) (٥) وقوله : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (٦) وقد يقرن به غيره كقوله : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) (٧) وقوله : (اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) (٨) وقوله : (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) (٩) .

وكذلك لفظ الأبرار اذا أطلق دخل فيه كل تقي من السابقين والمقتصدين ، واذا قرن بالمقربين كان أخص ، قال تعالى في الأول : (إن الأبرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) (١٠) وقال في الثاني : (ان كتاب الأبرار لفي عليين ، وماأدراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون) (١١) وهذا باب واسع يطول استقصاؤه.

ومن أنفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقاً وخصوصاً ألفاظ الكتاب

---

(١) سورة العنكبوت ،الآية: ٤٥
(٢) سورة الاعراف ، الآية : ١٧٠
(٣) سورة طه ، الآية : ١٤
(٤) سورة الاعراف الآية : ٣
(٥) سورة طه ، الآية : ١٢٣
(٦) سورة الانعام ، الآية : ١٥٣
(٧) سورة الانعام،الآية : ١٥٥
(٨) سورة الانعام ، الآية : ١٠٦
(٩) سورة يونس،الآية:١٠٩
(١٠) سورة الانفطار ، الآيتان : ١٣،١٤
(١١) سورة المطففين ، الآيات : ١٨ - ٢١

والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس ، من جملتها مسألة الايمان والاسلام ؛ فإن النزاع في مسماهما أول اختلاف وقع، افترقت الأمة لأجله وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة ، وكفر بعضهم بعضاً كما قد بسطنا هذا في مواضع أخر ، اذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين أن الهدى كله مأخوذ من كلام الله ورسوله باقامة الدلائل الدالة ، لا بذكر الأقوال التي لا تقبل بلادليل وترد بلا دليل ، أو يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول فإن الواجب أن يقصد معرفة ما جاء به الرسول واتباعه بالادلة الدالة على ما بينه الله ورسوله .

ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان ، فتارة يقولون: هو قول وعمل : وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية واتباع السنة ، وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وكل هذا صحيح . فإذا قالوا : قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب [1] واللسان جميعاً ؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام، ونحو ذلك اذا أطلق ؛ والناس في مسمى الكلام والقول عند الاطلاق أربعة أقوال ، فالذى عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً. وقيل : بل مسماه هو اللفظ ، والمعني ليس جزء مسماه ، بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السنة ،وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ . وقيل : بل مسماه هو المعنى واطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه ، وقيل : بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ، ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف الكلام القرآني ؛ فإنه لا يقوم عنده بالله ، فيمتنع أن يكون كلامه ، ولبسط هذا موضع آخر .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : وقول القلب : هو إقراره ومعرفته وتصديقه ، وعمله هو انقياده لما صدق به .

والمقصود هنا أن من قال من السلف : الايمان قول وعمل ، أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ؛ ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال : قول وعمل ونية ، قال . القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ،ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم ، كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الايمان اذا كان قولا بلا عمل فهو كفر ، واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق ، واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة .

فصل

وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزؤه ، ولا يعرف لزومه له كقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام)[1] ونحو ذلك ، وقوله: (وجبريل وميكال)[2] وقوله :(وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان)[3] وهذا هو الغالب. ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله: (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق)[4] وقوله :(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٥٩
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٨
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٣
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٤٢

الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين)[1] وقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله)[2] فإن من كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم المعطوف عليه ، وفي الآية التي قبلها المعطوف عليه لازم ، فإنه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وفي الثاني نزاع ، وقوله : (لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق)[3] هما متلازمان ، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به ، خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً ، ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا .

وهكذا أهل البدع لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة ، ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة ، كما جاء في الحديث : « ما ابتدع قوم بدعة إلا تركوا من السنة مثلها » رواه الأمام احمد . وقد قال تعالى: (فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء)[4] فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى:(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين)[5] أي عن الذكر الذي أنزله الرحمن، وقال تعالى:(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامه أعمى)[6] وقال: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون)[7] فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن يتبع أحدهما اتبع الآخر ، ولهذا قال (ويتبع غير سبيل المؤمنين)[8] قال العلماء: من لم يكن متبعا سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم، فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب ، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه.

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١ٵ
(٢) سورة النساء ، الآية : ١٣٦
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٢
(٤) سورة المائدة ، الآية : ١٤
(٥) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦
(٦) سورة طه، الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤
(٧) سورة الأعراف ، الآية : ٣
(٨) سورة النساء الآية : ١١٥

وكذلك من لم يفعل المأمور ، فعل بعض المحظور ، ومن فعل المحظور ، لم يفعل جميع المأمور ، فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر مع فعله لبعض ما حظر ، لا يمكنه ترك كل ماحظر مع تركه لبعض ما أمر ، فان ترك ماحظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور ، فكل ماشغله عن الواجب فهو محرم ، وكل مالا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ، ولهذا كان لفظ الأمر اذا أطلق يتناول النهي ، واذا قيد بالنهي كان النفي نظير ماتقدم ، فاذا قال تعالى عن الملائكة: (لايعصون الله ما امرهم)[1] دخل في ذلك أنه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه ، وأما قوله: (ويفعلون مايأمرون)[1] فقد قيل : لايتعدون ما أمروا به ، وقيل: يفعلونه في وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه .

وقد يقال : هو لم يقل : ولا يفعلون إلا ما يأمرون ، بل هذا دل عليه قوله: (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)[2] وقد قيل: لا يعصون ما أمرهم في الماضي ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل ، وقد يقال : هذه الآية خبر عما سيكون ، ليس ما أمروا به هنا ماضيا بل الجميع مستقبل ، فإنه قال: (قوا أنفسكم وأهليكم نارا)[1] وما يتقى به إنما يكون مستقبلا ، وقد يقال : ترك المأمور تارة يكون لمعصية الأمور وتارة يكون لعجزه ، فإذا كان قادراً مريداً ، لزم وجود الأمور المقدورة ، فقوله (لا يعصون)[1] لا يمتنعون عن الطاعة ، وقوله (ويفعلون ما يؤمرون)[1] أي هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ما أمروا به وقد يكون في ضمن ذلك أنهم لايفعلون إلا المأمور به كما يقول القائل: أنا أفعل ما أمرت به أي أفعله ولا أتعداه إلى زيادة ولا نقصان .

وأيضاً فقوله : (لا يعصون الله ما أمرهم)[1] إن كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك من أمره ، وإن كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه .

والمقصود أن لفظ الأمر إذا أطلق تناول النهي ، ومنه قوله : (أطيعوا الله

---

(١) سورة التحريم ، الآية : ٦ (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٧

وأطيعوا الرسول وأولي الامر) (١) أي أصحاب الامر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي ووجبت طاعته في هذا وهذا، فالنهي داخل في الأمر، وقال موسى للخضر: (ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) (٢) وهذا نهي له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكرا ولما خرق السفينة قال له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً) (٣) فسأله قبل إحداث الذكر ، وقال في الغلام (أقتلت نفساً زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكراً) (٤) فسأله قبل إحداث الذكر ، وقال عن الجدار (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) (٥) وهذا سؤال من جهة المعنى ، فإن السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول: لو نزلت عندنا لأكرمناك ، فإن بت الليلة عندنا أحسنت الينا ، ومنه قول آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (٦) وقول نوح (رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) (٧) ومثله كثير ولهذا قال موسى (ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) (٨) فدل على أنه سأله الثلاث قبل أن يحدث الذكر ، وهذا معصية لنهيه وقد دخل في قوله (ولا أعصي لك أمراً) (٣) فدل على أن عاصي النهي عاصي الأمر، ومنه قوله تعالى: (ألا له الخلق والأمر) (٩) وقد دخل النهي في الأمر، ومنه قوله :(فليحذر الذين يخالفون عن أمره) (١٠) وقوله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (١١) فإن نهيه داخل في ذلك.

وقد تنازع الفقهاء في قوله لامرأته : إذا عصيت أمري فأنت طالق ، إذا انهاها

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩
(٢) سورة الكهف ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٧١
(٤) سورة الكهف ، الآية : ٧٤
(٥) سورة الكهف ، الآية : ٧٧
(٦) سورة الاعراف الآية : ٢٣
(٧) سورة هود ، الآية: ٤٧
(٨) سورة الكهف ، الآية : ٧٦
(٩) سورة الاعراف ، الآية : ٥٤
(١٠) سورة النور ، الآية : ٦٣
(١١) سورة الاحزاب ، الآيه : ٣٦

فعصته هل يكون ذلك داخلا في قوله ؟على قولين : قيل : لا يدخل لان حقيقة النهي غير حقيقة الامر ، وقيل: يدخل لأن ذلك يفهم منه في العرف معصيةالأمر والنهي ، وهذا هو الصواب ، لان ما ذكر في العرف هو حقيقة في اللغة والشرع ، فإن الامر المطلق في كل متكلم إذا قيل : أطع أمر فلان، أو فلان يطيع أمر فلان ، أو لا يعصي أمره ، فإنه يدخل فيه النهي ، لأن الناهي آمر بترك المنهي عنه ، فلهذا قال سبحانه : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) [1] ولم يقل : لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منها لتلازمها،وليست هذه واو الجمع التي يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم ، فإنه كأن يكون المعنى : لاتجمعوا بينها فيكون أحدهما وحده غير منهي عنه .

وأيضاً فتلك إنما تجيء إذا ظهر الفرق كقوله: (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [2] وقوله: (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص) [3] ومن عطف الملزوم قوله تعالى:(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [4] فإنهم إذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله كما قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [5] وإذا أطاع من بلغته رسالة محمد الله فانه لا بد أن يطيع الرسول ، فإنه لا طاعة لله إلا بطاعته ، والثالث عطف بعض الشيء عليه كقوله: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) [6] وقوله(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) [7] وقوله: (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال)[8] وقوله:(وأورثكم أرضهم

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٢ (٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢
(٣) سورة الشورى ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥
(٤) سورة النساء ، الآية : ٥٩ (٥) سورة النساء ، الآية : ٨٠
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨ (٧) سورة الاحزاب ، الآية : ٧
(٨) سورة البقرة ، الآية : ٩٨

وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها)[1] والرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى)[2] وقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)[3] وقد جاء في الشعر ما ذكر انه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله : وألفى قولها كذباً وميناً .

ومن الناس من يدعي أن مثل هذا جاء في كتاب الله كما يذكرونه في قوله : (شرعة ومنهاجا)[4] وهذا غلط ، مثل هذا لا يجيء في القرآن ولا في كلام فصيح وغاية ما يذكر منها يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ ، كما ادعى بعضهم أن من هذا قوله :

ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأي والبعد

فزعموا أنهما بمعنى واحد. واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من أن الشرعة هي المنهاج ، فقال لهم المخالفون لهم : النأي أعم من البعد ، فإن النأي كلما قل بعده أو كثر كأنه مثل المفارقة . والبعد إنمـــا يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته ، وقد قال تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه)[5] وهم مذمومون على مجانبته والتنحي عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين ، وليس كلهم كان بعيداً عنه، لاسيما عند من يقول: نزلت في أبي طالب ، وقد قال النابغة : والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد .

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة ، أي صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية : ٢٧
(٢) سورة الاعلى ، الآيات : ١ - ٤
(٣) سورة البقرة ، الآيتان : ٣، ٤
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٨
(٥) سورة الانعام ، الآية : ٢٦

فصل

فإذا تبين هذا ، فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر ، وبلفظ التقوى ، وبلفظ الدين كما تقدم ، فإن النبي ﷺ بين أن « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الايمان ، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق ، وكذلك لفظ التقوى ، وكذلك الدين أو دين الاسلام ، وكذلك روي أنهم سألوا عن الايمان فأنزل الله هذه الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) [1] الآية ، وقد فسر البر بالايمان وفسر بالتقوى وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله ، والجميع حق ، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه فسر البر بالإيمان .

قال محمد بن نصر : حدثنا إسحاق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقري والملائي قالا : حدثنا المسعودي [2] عن القاسم قال : جاء رجل إلى أبي ذر فسأله عن الايمان فقرأ : (ليس البر أن تولوا وجوهكم) [1] إلى آخر الآية ؛ فقال الرجل : ليس عن البر سألتك . فقال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه ، فقرأ عليه الذي قرأت عليك ، فقال له الذي قلت لي . فلما أبى ان يرضى قال له : ان المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها ، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله وكان اختلط .

وقال : حدثنا إسحاق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الايمان فقرأ عليه : (ليس البر أن تولوا وجوهكم) [١] إلى آخر الآية ، [٢] وروي باسناده عن عكرمة قال: سئل الحسن بن علي بن أبي طالب مقبله من الشام عن الايمان فقرأ : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) [١] وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال: قلت لسالم الأفطس: رجل أطاع الله فلم يعصه، ورجل عصى الله فلم يطعه ، فصار المطيع إلى الله فأدخله الجنة، وصار العاصي إلى الله فأدخله النار، هل يتفاضلان في الايمان؟ قال: لا، قال فذكرت ذلك لعطاء فقال : سلهم الايمان طيب أو خبيث؟ فإن الله قال: (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) [٣] فسألتهم فلم يجيبوني ، فقال بعضهم : إن الايمان يبطن ليس معه عمل ، فذكرت ذلك لعطاء فقال: سبحان الله أما يقرؤون الآية التي في البقرة: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) [١] قال: ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال :(وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - إلى قوله - وأولئك هم المتقون) [١] فقال: سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم. وقال : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) [٤] فألزم الاسم العمل والعمل الاسم .

والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل ، لا على ايمان خال عن عمل ، فإذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧

(٢) قلت : هذا سند صحيح . وسيأتي من طريق أخرى عن مجاهد نحوه أتم منه

(٣) سورة الانفال ، الآية : ٣٧ (٤) سورة الإسراء ، الآية : ١٩

فائدة فيه، بل يكون نزاعا لفظياً،مع أنهم مخطئون في اللفظ ، مخالفون للكتاب والسنة ، وإن قالوا: إنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح ؛ وبعض الناس يحكي هذا عنهم وأنهم يقولون : إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها ، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد ، لكن ما علمت معيناً أحكي عنه هذا القول ، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله ، وقد يكون من لا خلاق له من الفساق والمنافقين يقولون: لا يضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد ، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا ، ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية :(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[1] فقوله: صدقوا أي في قولهم: آمنوا[2] كقوله:(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولم يدخل الايمان في قلوبكم)[3] إلى قوله:(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[4] أي هم الصادقون في قولهم: آمنا بالله،بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ؛ والله يعلم إنك لرسوله ؛ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)[5] وقال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)[6] ويكذبون قراءتان مشهورتان فإنهم كذبوا في قولهم : آمنا بالله واليوم الآخر، وكذبوا الرسول في الباطن وان صدقوه في الظاهر ، وقال تعالى: (الم ؛ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون،ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : في الخطية : آمنا ، وهو الصواب .

(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٥

(٥) سورة المنافقون ، الآية : ١ (٦) سورة البقرة ، الآيات : ٨ - ١٠

وليعلمن الـكاذبين) [1] فبين أنه لا بد أن يفتن الناس وأن يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم. يقال: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به، ومنه قول موسى: (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) [2] أي محنتك وابتلاؤك، كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره، وابتليتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليتبين المؤمن من الـكافر فيجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدى آخرين.

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق، والمنافقين بالكذب، لأن الطائفتين قالت بألسنتهم: آمنا، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق، ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب، قال تعالى: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) [3] فلما قال في آية البر: (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) [4] دل على ان المراد صدقوا في قولهم: آمنا، فإن هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه، ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا: نحن أبرار أو بررة، بل إذا قال الرجل: أنا بر فهذا مزك لنفسه، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل: تزكي نفسها فسماها النبي ﷺ زينب؛ بخلاف إنشاء الايمان بقولهم: آمنا فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه، قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم) [5] وكذلك في أول آل عمران (قل آمنا بالله وما أنزل

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١ - ٣

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٥٥

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٧ (٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٦

على إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم)[1] وقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله)[2] فقوله : (لا نفرق)[2] دليل على أنهم قالوا: آمنا ولا نفرق ، ولهذا قال : (وقالوا سمعنا وأطعنا)[2] فجمعوا بين قولهم: آمنا وبين قولهم : سمعنا واطعنا ، وقــد قال في آية البر : (وأولئك هم المتقون)[3] فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد ، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله : (وتعاونوا على البر والتقوى)[4] ودلت هذه الآية على أن مسمى الايمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الاطلاق واحد ، فالمؤمنون هم المتقون وهم الابرار .

ولهذا جاء في احاديث الشفاعة الصحيحة: «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» ، وفي بعضها : «مثقال ذرة من خير»، وهذا مطابق لقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[5] وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الاتقياء هم أهل السعادة المطلقة ، وهم أهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب ، وهؤلاء الذين قال النبي ﷺ : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا »[6] فإنه ليس من هؤلاء ،بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد أسوة أمثالهم .

---

(١) سورة ال عمران ، الآية : ٨٤
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٢
(٥) سورة الزلزال ، الآيتان : ٧ ، ٨
(٦) رواه مسلم وقد تقدم

فصل

وهذا النوع من نمط أسماء الله وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء دينه . قال الله تعالى : (قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)[1] وقال تعالى : (ولله لأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه)[2] وقال الله تعالى:(هو اللهالذي لا إلهإلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم،هو الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[3] فأسماؤه كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة ، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته . ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر ؛ فالعزيز يدل على نفسه مع عزته ، والخالق يدل على نفسه مع خلقه ، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ، ونفسه تستلزم جميع صفاته ، فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة ، وعلى أحدهما بطريق التضمن ، وعلىالصفة الأخرى بطريق اللزوم .

وهكذا أسماء كتابه:القرآن والفرقان والكتاب والهدىوالبيان والشفاءوالنور

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١١٠ (٢) سورة الاعراف ، الآية : ٨٠

(٣) سورة الحشر ، الآيات : ٢٢ - ٢٤

ونحو ذلك هي بهذه المنزلة . وكذلك أسماء رسوله : محمد وأحمد والماحي والحاشر والمقفى ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة ، كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى ، وهكذا ما يثنى ذكره من القصص في القراءة كقصة موسى وغيرها، ليس المقصود بها أن تكون سمراً ، بل المقصود بها ان تكون عبراً، كما قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)[1] فالذي وقع ، شيء واحد له صفات، فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التي يعتبر بها المعتبرون ، وليس هذا من التكرير في شيء .

وهكذا أسماء دينه الذي أمر الله به ورسوله يسمى إيماناً وبراً وتقوى وخيراً وديناً وعملاً صالحاً وصراطا مستقيما ونحو ذلك ، وهو في نفسه واحد، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر، وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ والباقي كان تابعاً لها لازماً لها، ثم صارت دالة عليه بالتضمن، فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين: تصديق بالقلب ، وإقراره ومعرفته. ويقال لهذا :قول القلب . قال الجنيد بن محمد : التوحيد: قول القلب. والتوكل: عمل القلب ، فلا بد فيه من قول القلب وعمله ، ثم قول البدن وعمله ، ولابد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله ، وحب ما يحبه الله ورسوله ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان .

ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة ، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب »[2] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١١١ (٢) متفق عليه

وقال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبي هريرة تقريب . وقول النبي ﷺ أحسن بياناً ، فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه ، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط ، كما قال النبي ﷺ :«إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت لها سائر الجسد» .

فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالايمان المطلق ، كما قال أهل الحديث: قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد ، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه [1] ، فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنو أشد حبا لله) [2] فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين .

وفي الآية قولان : قيل: يحبونهم كحب المؤمنين الله ، والذين آمنوا أشد حباً منهم لأوثانهم . وقيل: يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ،

---

(١) لا نعلم له أصلا عن احد من الصحابة ، والمعروف - كما قال العراقي - أنه من قول سعيد ابن المسيب . رواه ابن المبارك في « الزهد » وابن ابي شيبه في « المصنف » بسند ضعيف . فيه رجل لم يسم . وقد روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن فيه رجل وضاع . وقد وهم فيه المؤلف أيضاً فجزم بعزوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم التنبيه عليه ص ٢٣

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥

وهذا هو الصواب ، والأول قول متناقض وهو باطل ، فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله ، وتستلزم الارادة ، والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل ، فيمتنع أن يكون الانسان محباً لله ورسوله ، مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله ، فإذا لم يتكلم بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه .

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، لم يجعلوا أعمال القلب من الايمان ، وظنوا أنه قد يكون الانسان مؤمناً كامل الايمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله ، ويوالي أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الاهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لا تنافي الايمان الذي في قلبه ، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا : وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار ، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود ، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود ، فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة ، قالوا : فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه ، فالكفر عندهم شيء واحد ، وهو الجهل ، والايمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه ، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو ؟.

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الايمان، فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة ، وقد كفر السلف ـ كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم ـ من يقول بهذا القول . وقالوا : إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ، لا لكونه كذب خبراً . وكذلك فرعون

وقومه ، قال الله تعالى فيهم: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) (١) وقال موسى عليه السلام لفرعون: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) (٢) بعد قوله: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً) (٣) فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) (٢) فدل على أن فرعون كان عالما بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عناداً وبغياً لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه . قال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) (٤) وقال تعالى: (وجحدوا بها وأستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا) (١) وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (٥) وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم: (فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) (٦)

فهؤلاء غلطوا في أصلين :

أحدهما : ظنهم أن الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ، ليس معه عمل ، وحال حركة وإرادة ومحبة ، وخشية في القلب ؛ وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا ، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كلها فيها مما فرضه الله ورسوله ، فهو من الايمان

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤ (٢) سورة الاسراء ، الآية : ١٠٢

(٣) سورة الاسراء ، الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢

(٤) سورة القصص ، الآية : ٤

(٥) سورة البقرة ، الاية : ١٤٦ (٦) سورة الانعام ، الاية : ٣٣

الواجب ، وفيها ما أحبه ولم يفرضه ، فهو من الايمان المستحب ، فالأول لا بد لكل مؤمن منه ، ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين ، والثاني للمقربين السابقين ، وذلك مثل حب الله ورسوله ، بل أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب اليه من أهله وماله ، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين ، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين ، والإنابة اليه مع خشيته كما قال تعالى : (هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)[1] ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله .

والثاني : ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار ، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق ، وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع ، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار ؛ فإن الانسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه ،أو لطلب علوه عليه ، أو لهوى النفس ، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق ، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه ، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون ، لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة ، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك ، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة اليهم أو حصول أمور مكروهة اليهم ، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من اكفر الناس كإبليس وفرعون ، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ، ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح في صدق الرسل ،انما يعتمدون على مخالفة أهوائهم، كقولهم

---

(١) سورة ق ، الايتان : ٣٢ ، ٣٣

لنوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) [١] ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه ، لكن كرهوا مشاركة أولئك ، كما طلب المشركون من النبي ﷺ ، ابعاد الضعفاء ، كسعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وبلال ونحوهم ، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل صفة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين) [٢] .

ومثل قول فرعون : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) [٣] وقول فرعون : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) [٤] ومثل قول مشركي العرب : (إن نتبع الهدى نتخطف من أرضنا) [٥] قال الله تعالى : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا) [٥] ومثل قول قوم شعيب له : (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) [٦] ومثل قول عامة المشركين : (انا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [٧] .

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججا تقدح في صدق الرسل ، بل تبين أنها

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١١ (٢) سورة الانعام ، الايتان : ٥٢ و ٥٣

(٣) سورة المؤمنون ، الاية : ٤٧

(٤) سورة الشعراء ، الايتان : ١٨ و ١٩

(٥) سورة القصص ، الاية: ٥٧ (٦) سورة هود ، الاية : ٨٧

(٧) سورة الزخرف ، الآية :٢٣

تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم ، فلذلك لم يتبعوهم ، وهؤلاء كلهم كفار ؛ بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته ، وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون في متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم ، فما احتملت نفوسهم ترك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بل لهوى النفس ، فكيف يقال : ان كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله .

ولم يكف الجهمية أن جعلوا كل كافر جاهل بالحق حتى قالوا : هو لا يعرف أن الله موجود حق ، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان ، بل الجهل بهذا الحق المعين . ونحن والناس كلهم يرون خلقا من الكفار يعرفون في الباطن أن دين الاسلام حق ، ويذكرون ما يمنعهم من الايمان ، إما معاداة أهلهم وإما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم ، واما خوفهم اذا آمنوا أن لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم ، وأمثال ذلك من اغراضهم التي يبينون أنها المانعة لهم من الايمان ، مع علمهم بأن دين الاسلام حق ، ودينهم باطل . وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق ، يوجد من يعرف بقلبه أنها حق وهو في الظاهر يجحد ذلك ، ويعادي أهله لظنه أن ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) [1]

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الاسلام وفي

---

(١) سورة المائدة ، الآيات : ٥١ – ٥٣

قلبه مرض ، خاف أن يغلب أهل الإسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم ، لا لاعتقادهم أن محمداً كاذب واليهود والنصارى صادقون ، وأشهر النقول في ذلك أن عبادة بن الصامت قال : يا رسول الله إن لي موالي من اليهود وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود ، فقال : عبد الله بن أبي : لكني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود ، فنزلت هذه الآية .

والمرجئة الذين قالوا : الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان،والأعمال ليست منه ، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها ، ولم يكن قولهم مثل قول جهم ، فعرفوا أن الانسان لا يكون مؤمنا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه ، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم ، لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الايمان لزمهم قول جهم ، وإن أدخلوها في الايمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا فإنها لازمة لها ، ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم ، فإنهم رأوا أن الله قد فرق في كتابه بين الايمان والعمل ، فقال في غير موضع: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[1] ورأوا أن الله خاطب الانسان بالإيمان قبل وجود الأعمال فقال : (يا ايها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)[2] (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة)[3] وقالوا : لو أن رجلا آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمناً ، وكان من أهل الجنة ، فدل على أن الأعمال ليست من الايمان . وقالوا : نحن نسلم أن الايمان يزيد، بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها ، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله ، لكن بعد كمال ما أنزل الله ، ما بقي الايمان يتفاضل عندهم ، بل إيمان الناس كلهم سواء

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥ (٢) سورة المائدة ، الآية : ٦

(٣) سورة الجمعة ، الآية : ٩

إيمـان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر ، وإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبي مسلم الخراساني وغيرهما .

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : إن الأعمال قد تسمى إيمانا مجازا ، لأن العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ،ولأنها دليل عليه ، ويقولون: قوله : الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، مجاز .

والمرجئة ثلاث أصناف: الذين يقولون: الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه ، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم ، لكن ذكرنا جمل أقوالهم ، ومنهم من لا يدخلها[1] كجهم ومن اتبعه كالصالحي ، وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه ، والقول الثاني من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية ، والثالث : تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم ، وهؤلاء غلطوا من وجوه :

أحدها : ظنهم أن الايمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد ، وأن الايمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الأمر كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ، وأوجب على أمة محمد من الايمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والايمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ، ليس هو مثل الايمان الذي يجب بعـد نزول القرآن ، والايمـان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلا ليس مثل الايمـان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا ، فإنه لابد في الايمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر ، لكن من صدق الرسول أو مات عقب ذلك لم يجب عليه من الايمان غير ذلك . وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية :زيادة :«في الايمان»

المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر مالا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر .

وأيضا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به ، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب أن يعرف أمره المفصل في الزكاة . ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة ، فصار يجب من الايمان تصديقا وعملا على أشخاص مالا يجب على آخرين .

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم : خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال . فنقول : إن قلتم : إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال ، فقبل وجوبها لم تكن من الايمان ، وكانوا مؤمنين الايمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه ، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ، ولهذا قال تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)[1] ولهذا لم يجيء ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الاسلام والايمان ، كحديث وفد عبد القيس ، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له : ضمام بن ثعلبة وغيرهما ، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل ، وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس ، فكان قبل فرضه لا يدخل في الايمان والاسلام ، فلما فرض أدخله النبي ﷺ في الايمان إذا أفرد ، وأدخله في الاسلام إذا قرن بالايمان وإذ أفرد ، وسنذكر إن شاء الله متى فرض .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٩٧

وكذلك قولهم : من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنا ، صحيح ، لأنه أتى بالايمان الواجب عليه، والعمل لم يكن وجب عليه بعد ، فهذا مما يجب أن يعرف، فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين.

فإذ قيل : الاعمال الواجبة من الايمان . فالايمان الواجب متنوع ليس شيئا واحداً في حق جميع الناس . وأهل السنة والحديث يقولون : جميع الاعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الايمان ، أي من الايمان الكامل بالمستحبات . ليست من الايمان الواجب . ويفرق بين الايمان الواجب وبين الايمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم إلى مجزىء وكامل . فالمجزىء : ما أتي فيه بالواجبات فقط . والكامل : ما أتي فيه بالمستحبات . ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب . وقد يراد به الكمال المستحب .

وأما قولهم : إن الله فرق بين الايمان والعمل في مواضع ، فهذا صحيح . وقد بينا أن الايمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الاعمال المأمور بها . وقد يقرن به الاعمال، وذكرنا نظائر ذلك[1] كثيرة . وذلك لان أصل الايمان هو ما في القلب . والاعمال الظاهرة لازمة لذلك . لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح ، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الايمان الذي في القلب ، فصار الايمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب ، وحيث عطفت عليه الاعمال ،فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لا بد معه من الاعمال الصالحة .

ثم للناس في مثل هذا قولان : منهم من يقول : المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصا له ، لئلا يظن أنه لم يدخل في الاول ، وقالوا : هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام ، كقوله : (من كان عدواً لله

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : لذلك .

وملائكته ورسله وجبريل وميكال)[1] وقوله : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم)[2] وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم)[3] فخص الايمان بما نزل على محمد بعد قوله : (والذين آمنوا)[3] وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين . وقوله : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[4] وقوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)[5] والصلاة والزكاة من العبادة ، فقوله : (آمنوا وعملوا الصالحات)[3] كقوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)[5] فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان ، فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما ، وكذلك يذكر الايمان أولاً لأنه الاصل الذي لا بد منه ، ثم يذكر العمل الصالح فإنه ايضا من تمام الدين لا بد منه ، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح ، وكذلك قوله : (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون)[6] وقد قيل : هؤلاء هم اهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما انزل على من قبله ، كابن سلام ونحوه ، وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب ، وقد قيل : هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد ، وإنما

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٩٨
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٧
(٣) سورة محمد ، الآية : ٢
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨
(٥) سورة البينة ، الآية : ٥
(٦) سورة البقرة ، الآيات : ١ – ٥

عطفوا لتغاير الصفتين كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى)[1] فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض ، وكذلك قوله : (والصلاة الوسطى)[2] ، وهي صلاة العصر .

والصفات : إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح او الذم . تقول : هذا الرجل هو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا . تعدد محاسنه ، ولهذا مع الإتباع قد يعطفونها وينصبون ، أو يرفعون ، وهذا القول هو الصواب ، فإن المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين ، وكذلك الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله إن لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، لم يكونوا على هدى من ربهم ، ولم يكونوا مفلحين ، ولم يكونوا متقين ، فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل إلى محمد ، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع أنها داخلة فيها ، لكن المقصود صفة إيمانهم ، وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه ، لا يفرقون بين أحد منهم ، وإلا فإذا لم يذكر إلا الإيمان بالغيب ، فقد يقول : من يؤمن ببعض ويكفر ببعض : نحن نؤمن بالغيب .

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ، ويقال : إنها أول سورة نزلت بالمدينة ، افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين ، انه من حين هاجر النبي ﷺ صار الناس ثلاثة أصناف : إما مؤمن ، وإما كافر مظهر للكفر ، وإما منافق . بخلاف ما كانوا

---

(١) سورة الاعلى ، الآيات : ١ — ٥ (٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨

بمكة ، فإنه لم يكن هناك منافق ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره : لم يكن من المهاجرين منافق ، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار ، فإن مكة كانت الكفار مستولين عليها ، فلا يؤمن ويهاجر الا من هو مؤمن ، ليس هنــاك داع يدعو إلى النفاق ، والمدينة آمن[1] بها أهل الشوكة ، فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار ، فمن لم يظهر الإيمان آذوه ، فاحتاج المنافقون الى إظهار الإيمان ، مع أن قلوبهم لم تؤمن ، والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الانبياء ، فقال في أولها ما تقدم ،وقال في وسطها : (قولوا آمنا بالله وما نزل الينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقــد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق)[2] الآيتان : وقال في آخرها : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير)[3] والآية الأخرى .

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « الآيتان من آخر سورة البقرة : من قرأ بهما في ليلة كفتاه » والآية الوسطى قد ثبت في « الصحيح » أنه كان يقرأ بها في ركعتي الفجر : وبـ(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)[4] الآية، تارة : وبـ(قل يا أيها الكافرون)[5](وقل هو الله أحد)[6] تارة فيقرأ بما فيه ذكر الايمان والاسلام ، أو بما فيه ذكر التوحيد والاخلاص .

---

(١) في الاصل : من ، وما أثبتناه من النسخة الهندية .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ١٣٦ ، ١٣٧
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤
(٥) سورة الكافرون ، الآية : ١
(٦) سورة الاخلاص ، الاية : ١

فعلى قول هؤلاء يقال : الأعمال الصالحة المعطوفة على الايمان دخلت في الايمان ، وعطفت عليه عطف الخاص على العام ، إما لذكره خصوصاً بعد عموم ، وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام ، وقيل : بل الأعمال في الأصل ليست من الايمان ، فإن أصل الايمان هو ما في القلب ، ولكن هي لازمة له،فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفياً ، لأن انتفاءاللازم يقتضي انتفاء الملزوم ؛لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الايمان إذا أطلق ، كما تقدم في كلام النبي ﷺ ، فإذا عطفت عليه ذكرت ، لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للايمان يوجب الوعد ، فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيصاً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً ؛ لا يكون لمن ادعى الايمان ولم يعمل ، وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله : آمنت لا بد أن يقوم بالواجب ، وحصر الايمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم .

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب « الموجز » ، وهو أن القرآن نفى الايمان عن غير هؤلاء ، كقوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) [1] ولم يقل : إن هذه الأعمال من الايمان ، قالوا : فنحن نقول : من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً ، لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لايمان القلب ، فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان ، وهذا هو المطلوب ، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءاً ، نزاع لفظي .

---

(١) سورة الانفال ، الآية : ٣

الثاني : أن نصوصاً صرحت بأنها جزء ، كقوله : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » .

الثالث : أنكم إن قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال من كل إيمان ، كان قولكم قول الخوارج ، وأنتم في طرف ، والخوارج في طرف ، فكيف توافقونهم[1] !؟ومن هذه الأمور إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، والحج ، والجهاد ، والاجابة الى حكم الله ورسوله ، وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه ، وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج :

الرابع : أن قول القائل : إن انتفاء بعض هذه الاعمال يستلزم أن لا يكون في قلب الانسان شيء من التصديق بأن الرب حق ، قول يعلم فساده بالاضطرار .

الخامس : أن هذا اذا ثبت في هذه ثبت في سائر الواجبات ، فيرتفع النزاع المعنوي .

فصل

الوجه الثاني من غلط المرجئة : ظنهم أن ما في القلب من الايمان ليس الا التصديق فقط ، دون أعمال القلوب ، كما تقدم عن جهمية المرجئة .

الثالث : ظنهم أن الايمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الاعمال ، ولهذا يجعلون الاعمال ثمرة الايمان ، ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ، ولا يجعلونها

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : « زيادة في هذه الامور »

لازمة له ، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع أن يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب ، مثل أن يقولوا : رجل في قلبه من الايمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر ، وهو لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان ، ويزني بأمه وأخته ، ويشرب الخمر نهار رمضان ؛ يقولون : هذا مؤمن تام الايمان ، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا خلف بن حيان [1] ، حدثنا معقل بن عبيد الله العنسي [2] قال : قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء ، فنفر منه أصحابنا نفوراً شديداً ، منهم ميمون بن مهران ، وعبد الكريم بن مالك ، فإنه عاهد الله أن لا يؤويه وإياه سقف بيت الا المسجد ، قال معقل : فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر من أصحابي وهو يقرأ : (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) [3] قلت : إن لنا حاجة فأخلنا ، ففعل ؛ فأخبرته أن قوماً قبلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا : إن الصلاة والزكاة ليسا من الدين ، فقال : أو ليس الله تعالى يقول : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) [4] فالصلاة والزكاة من الدين ، قال : فقلت : إنهم يقولون :

---

(١) لم أجد في الرواة من هذه الطبقة من اسمه خلف بن حيان ، حتى ولا في «تعجيل المنفعة» لابن حجر ، وانما رايت في تاريخ بغداد » (٨/٣٣٠) ما نصه «خلف بن حيان بن صدقة ، والد وكيع القاضي : ذكر احمد بن كامل انه كان احد الموصوفين بالشطارة . وحدث عن يزيد بن هارون روى عنه ابنه محمد المعروف بوكيع » . قلت : فهو من طبقة احمد ، فيبعد ان يكون من شيوخه مع كونه غير معروف بالرواية ، فالله اعلم .

(٢) الصواب « العبسي » بالباء الموحدة كما في « التقريب » وهو ثقة من رجال مسلم .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ١١٠

(٤) سورة البينة ، الآية : ٥

ليس في الايمان زيادة ، فقال : أو ليس قد قال الله فيما أنزل : (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) [١] هذا الايمان ، فقلت : إنهم انتحلوك . وبلغني أن ابن ذر دخل عليك في أصحاب له ، فعرضوا عليك قولهم فقبلته . فقلت هذا الأمر ، فقال : لا والله الذي لا إله الا هو ، مرتين أو ثلاثاً ثم قال : قدمت المدينة فجلست الى نافع فقلت : يا أبا عبد الله : ان لي اليك حاجة ، فقال : سر أم علانية ؟ فقلت : لا بل سر : قال : رب سر لا خير فيه ، فقلت : ليس من ذلك ، فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبي ، ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص ، فقال : حاجتك ؟ قال : فقلت : أخلني هذا . فقال : تنح ؛ قال : فذكرت له قولهم . فقال : قال رسول الله صلى عليه وعلى آله وسلم : «أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا : لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ؛ قال : قلت : إنهم يقولون : نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلي ؛ وبأن الخمر حرام ونشربها ؛ وأن نكاح لامهات حرام ونحن ننكح . فنثر يده من يدي وقال : من فعل هذا فهو كافر .

قال معقل : فرأيت الزهري فأخبرته بقولهم . فقال : سبحان الله ، فقد أخذ الناس في هذه الخصومات ، قال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال معقل : فلقيت الحكم بن عتبة فقلت له : إن عبد الكريم وميموناً بلغهما أنه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا قولهم عليك فقبلت قولهم ، قال : فقيل ذلك على ميمون ، وعبد الكريم ؟! لقد دخل علي اثنا عشر رجلاً وأنا مريض فقالوا : يا أبا محمد بلغك أن رسول الله ﷺ أتاه رجل بأمة سوداء ، أو حبشية ، فقال : يا رسول الله ! عليّ رقبة مؤمنة ،

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٤

أفترى هذه مؤمنة ؟فقال رسول الله ﷺ: « أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ » : فقالت : نعم . قال : « وتشهدين ان محمداً رسول الله ؟» : قالت : نعم ، قال : «وتشهدين ان الجنة حق والنار حق؟ » قالت : نعم . قال : « وتشهدين ان الله يبعثك من بعد الموت ؟ » . قالت : نعم ، قال : « فاعتقها فإنها مؤمنة » : فخرجوا وهم ينتحلون ذلك .

قال معقل : ثم جلست إلى ميمون بن مهران ، فقلت يا أبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها ، قال : فقرأ : (إذا الشمس كورت) [1] حتى إذا بلغ : (مطاع ثم أمين) [2] قال : ذاكم جبريل ، والخيبة لمن يقول : إن إيمانه كإيمان جبريل ، ورواه حنبل عن أحمد ، ورواه أيضاً عن ابن أبي مليكة قال : لقد أتى عليّ برهة من الدهر وما أراني أدرك قوماً يقول أحدهم : إني مؤمن مستكمل الإيمان ، ثم ما رضي حتى قال : إيماني على إيمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم : إني مؤمن وإن نكح أخته وأمه وبنته ، والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي ﷺ ، ما مات أحد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذ المعنى عنه البخارى في « صحيحه » قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إيمانه كإيمانه جبريل .

وروى البغوي عن عبد الله بن محمد عن ابن [3] مجاهد قال : كنت عند عطاء ابن أبي رباح ، فجاء ابنه يعقوب فقال : يا أبتاه إن أصحاباً لي يزعمون أن إيمانهم كإيمان جبريل ؛ فقال : يا بني ليس إيمان من أطاع الله كإيمان من عصى الله .

---

(١) سورة التكوير ، الآية : ١ (٢) سورة التكوير ، الآية : ٢١

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : وفي نسخة خطية : ابي مجاهد .

قلت : قوله عن المرجئة : إنهم يقولون : إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، قد يكون قول بعضهم ، فإنهم كلهم يقولون : ليستا من الإيمان . وأما من الدين فقد حكي عن بعضهم أنه يقول : ليستا من الدين ، ولا نفرق بين الإيمان والدين ، ومنهم من يقول : بل هما من الدين ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين ، وهذا هو المعروف من أقوالهم التي يقولونها عن أنفسهم : ولم أر أنا في كتاب أحـــد منهم أنه قال : الأعمال ليست من الدين ، بل يقولون : ليست من الإيمان ، وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم ، فإن أبا عبيد وغيره يحتجون بأن لأعمال من الدين ؛ فذكر قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم)[1] أنها نزلت في حجة الوداع. قال أبو عبيد : فأخبر أنه إنما كمل الدين الآن في آخر الإسلام في حجة[2] النبي ﷺ ، وزعم هؤلاء انه كان كاملاً قبل ذلك بعشرين سنة من اول ما نزل عليه الوحي بمكة حين دعا الناس إلى الاقرار ، حتى قال : لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه هذه الحجة ... إلى ان قال : إن الإيمان ليس بجميع الدين ، ولكن الدين ثلاثة أجزاء : الإيمان جزء ، والفرائض جزء ، والنوافل جزء ،

قلت : هذا الذي قاله هذا هو مذهب القوم ، قال أبو عبيد : وهذا غير مانطق به الكتاب ، ألا تسمع إلى قوله : (إن الدين عند الله الإسلام)[3] وقال : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)[4] وقال : (ورضيت لكم الإسلام ديناً)[1] فأخبر أن الإسلام هو الدين برمته ؛ وزعم هؤلاء أنه ثلث الدين .

قلت : إنما قالوا : إن الإيمان ثلث ، ولم يقولون : إن الايمان ثلث الدين ، لكنهم فرقوا بين مسمى الإيمان ومسمى الدين ، وسنذكر إن شاء الله تعالى الكلام

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : حجة الوداع التي حجها النبي

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ (٤) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥

في مسمى هذا ومسمى هذا ، فقد يحكى عن بعضهم أنه يقول : ليستا من الدين ولا يفرق بين اسم الإيمان والدين ، والشافعي رضي الله عنه كان معظماً لعطاء بن أبي رباح ، ويقول : ليس في التابعين أتبع للحديث منه ، وكذلك أبو حنيفة قال : ما رأيت مثل عطاء ، وقد أخذ الشافعي هذه الحجة عن عطاء . فروى ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي : حـــدثنا أبي ، حدثنا ميمون ، حدثنا أبو عثمان بن الشافعي ، سمعت أبي يقول ليلة للحميدي : ما يحتج عليهم ، يعني أهل الإرجاء بآية أحج من قوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)[١] .

وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب « الأم » في باب النية في الصلاة : يحتج بأن لا تجزىء صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » ثم قال : وكان الإجماع من الصحابة ، والتابعين من بعدهم ، ومن أدركناهم يقولون : الإيمان قول وعمل ونية ، لا يجزىء واحد من الثلاث إلا بالآخر .

وقال حنبل : حدثنا الحميدي قال : وأخبرت أن ناساً يقولون: من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت ، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت ؛ فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة ، فقلت : هذا الكفر الصراح ، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين. قال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)[١] الآية . وقال حنبل : سمعت أبا عبدالله احمد بن حنبل يقول : من قال هذا فقد كفر بالله ورد على أمره وعلى الرسول ما جاء به[٢] .

قلت : واما احتجاجهم بقوله للأمة : « اعتقها فإنها مؤمنة » فهو من حججهم

---

(١) سورة البينة ، الآية : ٥

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : زيادة « عن الله » .

المشهورة ، وبه احتج ابن كلاب ، وكان يقول : الإيمان هو التصديق والقول جميعاً ، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه ، وهذا لا حجة فيه ، لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة ، فإن المنافقين الذين قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[1] في الظاهر مؤمنون ، يصلون مع الناس ، ويصومون ، ويحجون ، ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر ، لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك ؛ بل لما مات عبد الله بن ابي بن سلول – وهو من أشهر الناس بالنفاق – ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين ، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون ؛ وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين .

وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته ، هل يرث ويورث؟ على قولين ، والصحيح أنه يرث ويورث وان علم في الباطن انه منافق ، كما كان الصحابة على عهد النبي ﷺ لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة ، لا على المحبة التي في القلوب ، فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته ، والحكمة إذا كانت خفية او منتشرة علق الحكم بمظنتها ، وهو ما أظهره من موالاة المسلمين ، فقول النبي ﷺ : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم »[2] لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، بل كانوا يورثون ويرثون ؛ وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين ، وقد أخبر الله عنهم انهم يصلون ويزكون ، ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)[3] وقال : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا)[4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٨
(٢) أخرجه الشيخان .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٥٤
(٤) سورة النساء ، الاية : ١٤٢

وفي « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » ، وكانوا يخرجون مع النبي ﷺ في المغازي ، كما خرج ابن أبي في غزوة بني المصطلق وقال فيها : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)[1] .

وفي « الصحيحين » عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيها شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)[1] فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي ، فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ، وقالوا : كذب زيد يا رسول الله ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي في (إذا جاءك المنافقون)[2] فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وفي غزوة تبوك استنفرهم النبي ﷺ كما استنفر غيرهم ، فخرج بعضهم معه ، وبعضهم تخلفوا ، وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق ، هموا بحل حزام ناقته ليقع في واد هناك ، فجاءه الوحي ، فأسر إلى حذيفة أسماءهم ، ولذلك يقال : هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » ، ومع هذا ففي الظاهر تجري عليهم أحكام أهل الايمان .

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام ، فإن كثيراً من المتأخرين ما بقي في المظهرين للاسلام عندهم إلا عدل أو فاسق ، وأعرضوا عن حكم المنافقين ، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة ، والنفاق شعب كثيرة ، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم .

ففي « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ،

---

(١) سورة المنافقون ، الآية : ٨ (٢) سورة المنافقون ، الآية : ١

وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » وفي لفظ لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ انه قال . « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : إذاحدث كذب ، وإذا ائتمن خان، وإذاعاهدغدر، وإذاخاصم فجر».

وكان النبي ﷺ أولاً يصلي عليهم ويستغفر لهم ، حتى نهاه الله عن ذلك فقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) [1] وقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم،إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) [2] فلم يكن يصلي عليهم ولا يستغفر لهم ، ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الايمان، فإنه ﷺ قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » [3] ولما قال لأسامة بن زيد : « أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله ؟ » قال : إنما قالها تعوذاً . قال : « هلا شققت عن قلبه ؟ » وقال : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » [4] وكان إذا استؤذن في قتل رجل يقول : « أليس يصلي ، أليس يتشهد ؟ » [5] فإذا قيل له : إنه منافق. قال : ذاك» [6] ، فكان ﷺ حكمه في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً إلا بأمر ظاهر ، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم ، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه. قال تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٨٤

(٢) سورة التوبة ، الآية ٨٠

(٣) متفق عليه

(٤) رواه مسلم

(٥) متفق عليه

(٦) متفق عليه ، وهو قطعة من الحديث الذي قبله

أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم)[١] وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق ، ومن علم أنه منافق لم يصل عليه . وكان عمر اذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلي عليه حذيفة ، لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم . وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار)[٢] فأمر بامتحانهن هنا وقال : (الله أعلم بايمانهن)[٢].

والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس أن لا يعتقوا إلا من يعلموا أن الايمان في قلبه ، فان هذا كما لو قيل لهم : اعتقوا إلا من علمتم أن الايمان في قلبه . وهم لو لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ، فاذا رأوا رجلاً يظهر الايمان جاز لهم عتقه ، وصاحب الجارية لما سأل النبي ﷺ هل هي مؤمنة ، انما أراد الايمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر ، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق الا من علم أن الايمان في قلبه ، فانه لا يعلم ذلك مطلقاً ، بل ولا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً . وهذا رسول الله ﷺ أعلم الخلق والله يقول له : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين)[١] فأولئك إنما كان النبي ﷺ يحكم فيهم كحكمه في سائر المؤمنين ، ولو حضرت جنازة أحدهم صلى عليها ، ولم يكن منهياً عن الصلاة إلا على من علم نفاقه ، وإلا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم ، وهذا لا يقدر عليه بشر .

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله : (ومنهم ، ومنهم)[٣] صار يعرف

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ (٢) سورة الممتحنة ، الآية : ١٠

(٣) سورة التوبة ، الآيات ٤٩ ، ٥٨ ، ٧٥ ، وهي :(ومنهم من يقول ائذن لي ولاتفتني ... ٤٩ ومنهم من يلمزك في الصدقات ... ٥٨ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ... ٧٥

نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك ، فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم ، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم ، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه ، فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة ، بخلاف حالهم لما نزل القرآن ، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق وما بقي يمكنهم من إظهاره أحيانا ما كان يمكنهم قبل ذلك ، وأنزل الله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)[1] فلما توعدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق ، كتموه .

ولهذا لما[2] تنازع الفقهاء في استتابة الزنديق.فقيل:يستتاب . واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل أمرهم إلى الله ، فيقال له : هذا كان في أول الأمر ، وبعد هذا أنزل الله : (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً)[1] فعلموا أنهم إن أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا ، فكتموه .

والزنديق : هو المنافق ، وإنما يقتله من يقتله إذا ظهر منه أنه يكتم النفاق ، قالوا:ولا تعلم توبته ، لأن غاية ماعنده أنه يظهر ما كان يظهر وقد كان يظهر الايمان وهو منافق ،ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل إلى تقتيلهم ، والقرآن قد توعدهم بالتقتيل .

والمقصود أن النبي ﷺ إنما أخبر عن تلك الأمة بالايمان الظاهر الذي علقت به الاحكام الظاهرة ، وإلا فقد ثبت عنه أن سعداً لما شهد لرجل أنه مؤمن قال : أو مسلم وكان يظهر من الإيمان ما تظهره الأمة وزيادة ، فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا ، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب، فالمؤمن المستحق للجنة لا بد أن يكون مؤمنا في الباطن باتفاق جميع أهل القبلة، حتى

---

(١) سورة الاحزاب ، الآيات : ٦٠-٦٢

(٢) في الهندية : ولهذا تنازع الفقهاء ، بدون كلمة لما .

الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً ويقولون : الايمان هو الكلمة ، يقولون : إنه لا ينفع في الآخرة إلا الايمان الباطن .

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة ، وغلط عليهم ، إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم بسبب شبهة المرجئة في أن الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل ، ولهذا أكثر ما اشترط الفقهاء في الرقبة التي تجزىء في الكفارة العمل الظاهر ، فتنازعوا هل يجزىء الصغير ؟ على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن أحمد ، فقيل : لا يجزىء عتقه ، لأن الايمان قول وعمل ، والصغير لم يؤمن بنفسه إنما إيمانه تبع لأبويه في أحكام الدنيا ؛ ولم يشترط أحد أن يعلم أنه مؤمن في الباطن ، وقيل : بل يجزىء عتقه ، لأن العتق من الأحكام الظاهرة وهو تبع لأبويه ، فكما أنه يرث منهما ويصلى عليه ، ولا يصلى إلا على مؤمن ، فإنه يعتق .

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ، ويدفنون في مقابر المسلمين من عهد النبي ﷺ ، والمقبرة التي كانت للمسلمين في حياته وحياة خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الايمان وإن كان منافقاً في الباطن ، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين في شيء من ديار الاسلام ، كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ، ومن دفن في مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون ، والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن ، فعلم أن ذلك بناء على الايمان الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد كان النبي ﷺ يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهي عن ذلك . وعلل ذلك بالكفر ، فكان ذلك دليلا على أن كل من لم يعلم أنه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وإن كانت فيه بدعة وإن كان له ذنوب .

وإذا ترك الامام أو أهل العلم والدين الصلاة على بعض المتظاهرين ببدعة أو فجور زجراً عنها ، لم يكن ذلك محرماً للصلاة عليه والاستغفار له ، بل قال النبي ﷺ

---

(١) متفق عليه

فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقاتل نفسه والمدين الذي لا وفاء له: «صلوا على صاحبكم» وروي أنه كان يستغفر للرجل في الباطن وإن كان في الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثل مذهبه، كما روي في حديث محلم بن جثامة.

وليس في الكتاب والسنة المظهرون للاسلام إلا قسمان: مؤمن أو منافق، فالمنافق في الدرك الأسفل من النار، والآخر مؤمن، ثم قد يكون ناقص الايمان فلا يتناوله الاسم المطلق، وقد يكون تام الايمان، وهذا يأتي الكلام عليه إن شاء الله في مسألة الاسلام والايمان، وأسماء الفساق من أهل الملة؛ لكن المقصود هنا أنه لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها — ولو دعا الناس إليها — كافراً في الباطن، إلا إذا كان منافقاً. فأما من كان في قلبه الايمان بالرسول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للأمة وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا علي بن أبي طالب ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع.

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة، من كان منهم منافقا فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقا بل كان مؤمنا بالله ورسوله في الباطن، لم يكن كافراً في الباطن، وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار. ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

وإنما قال الأئمة بكفر هذا، لأن هذا فرض ما لا يقع، فيمتنع أن يكون الرجل

لا يفعل شيئا مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات ، مثل الصلاة بلا وضوء وإلى غير القبلة ، ونـكاح الامهات ، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن ، بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الايمان الذي في قلبه، ولهذا كان أصحاب أبي حنيفة يكفرون أنواعاً ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف ، ويجعلونه مرتداً ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذي بين اصحابه وبين الجمهور في العمل: هل هو داخل في اسم الايمان أم لا ؟ ولهذا فرض متأخرو الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو أن الرجل إذا كان مقراً بوجوب الصلاة فدعي إليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل ، هل يموت كافراً أو فاسقا ؟ على قولين .

وهذا الفرض باطل ، فإنه يمتنع في الفطرة ان يكون الرجل يعتقد ان الله فرضها عليه ، وأنه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك ، هذا لا يفعله بشر قط ، بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى ، لا ينتهي الأمر إلى القتل ، وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الانسان إلا لامر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يقتل ، وسواء كان الدين حقاً أو باطلاً ، إما مع اعتقاده ان الفعل يجب عليه باطنا وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط .

ونظير هذا : لو قيل : إن رجلاً من اهل السنة قيل له: ترضى عن أبي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما ، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضي عنهما ، فهذا لا يقع قط. وكذلك لو قيل : إن رجلا يشهد ان محمداً رسول الله باطنا وظاهراً وقد طلب منه ذلك ، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها ، فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع ان يكون في الباطن يشهد ان محمداً رسول الله ، ولهذا كان القول الظاهر من الايمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية — جهماً ومن وافقه — فإنه إذا قدر انه معذور

لكونه أخرس ، أو لكونه خائفا من قوم إن أظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك ،فهذا لا يمكن ان لا يتكلم مع إيمان في قلبه ، كالمكره على كلمة الكفر. قال الله تعالى :(الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[١] وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ، فإنه[١] جعل كل من تكلم بالكفر ، من أهل وعيد الكفار ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .

فان قيل : فقد قال تعالى : (ولكن من شرح بالكفر صدرا)[٢] قيل: وهذا موافق،لأولها فانه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً، وإلا تناقض أول الآية وآخرها ،ولو كان المراد بمن كفرهو الشارح صدره،وذلك يكون بلا إكراه،لم يستثن المكره فقط،بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره،وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدراً وهى كفر، وقد دل على ذلك قوله تعالى: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[٣] فقد أخبر أنهم كفروا بعد ايمانهم مع قولهم : إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الايمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام .

والقرآن يبين أن ايمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون

---

(١) اي فان الله تبارك وتعالى .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١٠٦ (٣) سورة التوبة ، الآيات : ٦٤ - ٦٦

وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين)[1] الى قوله : (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)[2] فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ؛ فبين أن هذا من لوازم الايمان .

فصل

فإن قيل : فإذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله ، فمتى ذهب بعض ذلك فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الإيمان بالكلية كما يقوله المعتزلة ، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير ، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم .

قيل : أولاً ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار ، فإن هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان ؛ وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، واتفقوا أيضاً على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمتـــه . في « الصحيحين » عنــه أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » ، وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها . وقد نقل بعض

---

(١) سورة النور ، الآيات : ٤٧ - ٤٩ (٢) سورة النور ، الاية : ٥١

الناس عن الصحابة في ذلك خلافاً ، كما روي عن ابن عباس أن القاتل لاتوبة له ؛ وهذا غلط على الصحابة ؛ فإنه لم يقل أحد منهم أن النبي صلى الله عليه لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال : إنهم يخلدون في النار ، ولكن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه قال : إن القاتل لا توبة له ، وعن أحمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان أيضاً . والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد ، وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمي ، فلهذا حصل فيه النزاع .

وأما قول القائل : إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله ، فهذا ممنوع ، وهذا هو الأصل الذى تفرعت عنه البدع في الإيمان فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء . ثم قالت الخوارج والمعتزلة : هو مجموع ما أمر الله به ورسوله ، وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث ؛ قالوا : فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار ، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم : لاتذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة منه[1] ، إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوي فيه البر والفاجر ، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كقوله : «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل ، وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا يقول : ينقص ، كما روي عن مالك في إحدى الروايتين ، ومنهم من يقول : يتفاضل ، كعبد الله بن المبارك ، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه[2] عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ؛ فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة : عن حماد بن سلمة ، عن أبي جعفر ، عن جده عمير بن حبيب الخطمي ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ قال : الإيمان يزيد وينقص ؛ قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ؛ وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه ، وروى إسماعيل بن عياش ، عن جرير بن عثمان ، عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال : الإيمان يزيد وينقص .

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : بدل منه : من شيء من الايمان .

(٢) وعلى هامش الهندية : فيه .

وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد ، حدثنا جرير بن عثمان قال : سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان ام ينقص ؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه : وروى اسماعيل بن عياش ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي ، عن أبي هريرة قال : الإيمان يزيد وينقص .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن زبيد ، عن ذر قال : كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه : هلموا نزداد إيماناً ، فيذكرون الله عز وجل ، [1] وقال أبو عبيد في « الغريب » في حديث علي : إن الإيمان يبدو كلمظة في القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبد الله عن عمرو بن هند الجملي الأصمعي ، اللمظة : مثل النكتة أو نحوها .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن هلال ، عن عبد الله بن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول في دعائه : اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً . وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال : كان معاذبن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى [2] ، وروى أبو اليمان : حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد ، أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول : قم بنا نؤمن ساعة ، فنجلس في مجلس ذكر [3] وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي ﷺ ونزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : الانصاف من نفسه ، والانفاق من الاقتار ، وبذل السلام للعالم ، ذكره البخاري في

(١) ووراه ابن ابي شيبة ايضا في كتاب الايمان ورجاله ثقات ، لكنه منقطع بين ذر وعمر .
(٢) ورواه ابن ابي شيبة عن الأعمش عن جامع بن شداد به . وسنده صحيح.
(٣) ورواه ابن ابي شيبة من طريق ابن سابط قال : كان عبد الله بن رواحة ... الحديث نحوه
(١) هو ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني الكوفي .

«صحيحه»[١]، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما: تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، والآثار في هذا كثيرة، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة.

[قال مالك بعد دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة، فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال. وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده، جاءه عنز فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، كذلك الايمان.

وقال خيثمة بن عبد الرحمن: الايمان يسمن في الخصب، ويهزل في الجدب، فخصبه العمل الصالح، وجدبه الذنوب والمعاصي.

وقيل لبعض السلف: يزداد الايمان وينقص؟ قال: نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء.

وفي حديث حذيفة الصحيح: «حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» وفي حديثه الآخر الصحيح: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها، نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود

---

(١) يعني تعليقاً بدون اسناد، وقد وصله ابن ابي شيبة بسند صحيح عن عمار موقوفاً، وقد روي مرفوعا وله شواهد كما قال الحافظ في «الفتح».

مرباداً ، كالكوب مجخياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب هواه ، وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية ، فإنه من أعظم الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه ، لأنه وصفهم بقوة الايمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل علي قوة إيمانهم ، وتوكلهم على الله في أمورهم كلها .

وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد ، عن يزيد بن عبد الله اليزني ، عن أبي رافع أنه سمع رجلاً حدثه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : أتحب أن أخبرك بصريح الايمان ؟ قال : نعم . قال : إذا أسأت أو ظلمت أحداً ، عبدك أو أمتك ، أو أحداً من الناس ، حزنت وساءك ذلك . وإذا تصدقت أو أحسنت ، استبشرت وسرك ذلك ، ورواه بعضهم عن يزيد ، عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأله عن زيادة الايمان في القلب ونقصانه ، فذكر نحوه ، وقال البزار : حدثنا محمد بن أبي الحسن البصري ، ثناهانىء بن المتوكل ، ثنا عبد الله بن سليمان ، عن إسحاق ، عن أنس مرفوعاً : «ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الايمان ، خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن معصية الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل» .

و «أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الامل ، والحرص على الدنيا» . فالخصال الاولى تدل على زيادة الايمان وقوته ، والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه .

وقال أبو يعلى الموصلي : ثنا عبد الله القواريري ، ويحيى بن سعيد قالا : ثنا يزيد بن زريع ، ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا عوف ، حدثني عقبة بن عبد الله المزني قال يزيد في حديثه في مسجد البصرة : حدثني رجل قد سماه ، ونسي عوف اسمه قال : كنت بالمدينة في مسجد فيه عمر بن الخطاب . فقال لبعض جلسائه :

كيف سمعتم رسول الله صلى عليه وسلم يقول في الاسلام ؟ فقال : سمعته يقول : الاسلام بدأ جذعاً ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سداسياً ، ثم بازلاً . فقال عمر : فما بعد البزول إلا النقصان ، كذا ذكره أبو يعلى في « مسند عمر » وفي «مسند» هذا الصحابي المبهم ذكره أولى .

قال ابو سليمان : من أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليلة قال الشيخ :[1]

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات ، كقوله تعالى :(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً)[1] وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن ؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذا زيادة الإيمان ، وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[2] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلاً على الله ، وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم)[4] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيماناً بحسب مقتضاها ، فإن كانت أمراً بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهياً عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ، ولهذا قال: (وهم يستبشرون)[3] والاستبشار غير مجرد التصديق ، وقال تعالى : (والذين آتيناهم

---

(١) ما بين القوسين المربعين من الصفحة (١٨٨-١٩٠) زيادة من المخطوطة ، ليست في النسخ التي بين ايدينا .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢ (٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٣

(٣) سورة التوبة ، الآيتان : ١٢٤، ١٢٥

الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه)[1] والفرح بذلك من زيادة الايمان ، قال تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)[2] وقال تعالى : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)[3] وقال تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً)[4] وقال تعالى : (هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم)[5] وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية ؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان ، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ، ولهذا قال يوم حنين : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها)[6] وقال تعالى : (ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها)[7] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار ؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو ، فلما أنزل السكينة في قلوبهم ، مرجعهم من الحديبيه،ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم،دل على أن الإيمان المزيد،حال للقلب،وصفة له ،وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه ، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم ، والريب المنافي لليقين ، يكون ريباً في العلم ، وريباً في طمأنينة القلب ، ولهذا جاء في الدعاء المأثور : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به إلى جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣٦

(٢) سورة يونس ، الآية : ٥٨

(٣) سورة الروم ، الآيتان : ٤، ٥

(٤) سورة المدثر ، الآية : ٣١

(٥) سورة الفتح ، الآية : ٤

(٦) سورة التوبة ، الآية : ٢٦

(٧) سورة التوبة ، الآية : ٤٠

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال : « سلوا الله العافية واليقين ، فما أعطي أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية ، فسلوهما الله تعالى »[١] فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب ، وطمأنينته وتسليمه ، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره ، كما قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)[٢] قال علقمة : ويروى عن ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقوله تعالى : (يهد قلبه)[٢] هداه لقلبه : هو زيادة في إيمانه ، كما قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى)[٣] وقال : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)[٤] .

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيداً ، فلا يكون ذلك اللفظ متناولاً لجميع ما أمر الله به ، بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ما أمر به ، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ؛ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور)[٥] وقال تعالى في آخر السورة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم)[٥] وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى : إنها خطاب لقريش ، وفي الثانية : إنها خطاب لليهود

---

(١) وهو حديث صحيح له في « المسند » طرق .

(٢) سورة التغابن ، الآية : ١١ (٣) سورة محمد ، الآية : ١٧

(٤) سورة الكهف ، الآية : ١٣ (٥) سورة الحديد ، الآيات : ٧ - ٩

والنصارى ، وليس كذلك ، فإن الله لم يقل قط للكفار : (يا أيها الذين آمنوا)[1] ثم قال بعد ذلك : (لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله)[2] وهذه السورة مدنية باتفاق ، لم يخاطب بها المشركين بمكة ، وقد قال : (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين)[3] وهذا لا يخاطب به كافر ، وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم ، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له ، فإن كل من كان مسلماً مهاجراً، كان يبايع النبي ﷺ ، كما بايعه الأنصار ليلة العقبة ، وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله ، بأداء مايجب من تمامه باطناً وظاهراً ، كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة ؛ وإن كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة ، لكن الهدايا المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل ، وجميع هذه الهداية المفصلة الخاصة هي من الإيمان المأمور به . وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور .

فصل

وزيادة الإيمان الذي أمر الله به،والذي يكون من عباده المؤمنين من وجوه :

أحدها : الاجمال والتفصيل فيما أمروا به ، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا ، فمعلوم

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٨

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٩

(٣) سورة الحديد ، الآية : ٨

أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل بمـا أخبر به الرسول ، ما يجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها ، لزمه من الايمان المفصل بذلك مالا يلزم غيرة ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ، ثم مات قبـــل أن يعرف شرائع لدين ، مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه ، مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها ، بل إيمان هذا أكمل وجوباً ووقوعاً ، فإن ما وجب عليه من الايمان أكمل ، وما وقع منه أكمل .

وقوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) [1] أي في التشريع بالأمر والنهي ، ليس المراد أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة ، وأنه فعل ذلك ، بل في « الصحيحين » عن النبي ﷺ ، أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ، وجعل نقصان عقلها ، أن شهادة امرأتين ، شهادة رجل واحد ، ونقصان دينها إذا حاضت ، لا تصوم ولا تصلي ، وهـذا النقصان ليس هو نقص بمـا أمرت ؛ فلا تعاقب على هذا النقصان ، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله ، كان دينه كاملاً بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين .

الوجه الثاني : الاجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط ، لكن أعرض عن معرفة أمره ، ونهيه ، وخبره ، وطلب العلم الواجب عليه ، فلم يعلم الواجب عليه ، ولم يعمله ، بل اتبع هواه ، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به ، وآخر طلب علمه ، فعلمه ، وآمن به ، ولم يعمل به ، فهؤلاء وان اشتركوا في الوجوب ، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل ممن

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣

عرف ما يجب عليه والتزمه ، وأقر به ، لكنه لم يعمل بذلك كله ، وهذا المقر بما جاء به الرسول ، المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل ، أكمل إيماناً ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك ، ولا هو خائف أن يعاقب ، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنه مقر بنبوته باطناً وظاهراً .

فكلما علم القلب ، ما أخبر به الرسول فصدقه ، وما أمر به فالتزمه ، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك ؛ وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها ، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء بل آمن بها إيماناً مجملا ، أو عرف بعضها ؛ وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه به أكمل .

الثالث : أن العلم والتصديق نفسه، يكون بعضه أقوى من بعض ،وأثبت وأبعد عن الشك والريب ، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه ؛ كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد ، مثل رؤية الناس للهلال ، وان اشتركوا فيها ، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض ؛ وكذلك سماع الصوت الواحد ، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام ، وكذلك معرفة القلب وتصديقه ، يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة ! والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه ، يتفاضل الناس في معرفتها ، أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها .

الرابع : أن التصديق المستلزم لعمل القلب ، أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ، فالعلم الذي يعمل به صاحبه ، أكمل من العلم الذي لا يعمل به ، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ، ورسوله حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وهذا علمه أوجب له محبة الله ، وخشيته ، والرغبة

في الجنة ، والهرب من النار ، والآخر علمه لم يوجب ذلك ؛ فعلم الأول أكمل ؛ فإن قوة المسبب، دل على قوة السبب ، وهذه الأمور نشأت عن العلم ، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه ؛ والعلم بالمخوف ، يستلزم الهرب منه ؛ فإذا لم يحصل اللازم ، دل على ضعف الملزوم ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : «ليس المخبر كالمعاين »[1] فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل ، لم يلق الالواح . فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ؛ وليس ذلك لشك موسى في خبر الله ، لـكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر ، فقد لايتصور المخبر به في نفسه ، كما يتصوره إذا عاينه ؛ بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به ، وإن كان مصدقا به ؛ ومعلوم أنه عند المعاينة ، يحصل له من تصور المخبر به ، مالم يكن عند الخبر ، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق .

الخامس : أن أعمال القلوب ، مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله تعالى ورجائه ، ونحو ذلك ، هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف ؛ وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيما .

السادس : أن الاعمال الظاهرة مع الباطنة ، هي أيضاً من الإيمان ، والناس يتفاضلون فيها .

السابع : ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك ، بحيث لا يكون غافلاً عنه ؛ أكمل ممن صدق به وغفل عنه ، فإن الغفلة تضاد كمال العلم ، والتصديق والذكر، والاستحضار يكمل العلم واليقين ؛ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبّحناه فتلك زيادته ؛ وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه ؛ وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه : اجلسوا بنا ساعة نؤمن ، قال تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه)[2] وقال تعالى : (وذكر

---

(١) رواه احمد وغيره بسند جيد بلفظ « الخبر كالمعاينة »

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٨

فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[1] وقال تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى)[2] ثم كلما تذكر الإنسان ماعرفه قبل ذلك ؛ وعمل به، حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك ؛ وعرف من معاني أسماء الله وآياته مالم يكن عرفه قبل ذلك ، كما في الأثر « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم » ، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن .

وفي «الصحيح» ، عن النبي ﷺ : «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثل الحي والميت ». قال تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) [3] ، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه ، وتزيدهم عملا بذلك العلم ، وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه ، وعملا بتلك التذكرة ، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق ، وفي أنفسهم . قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [4] ، أي إن القرآن حق ، ثم قال تعالى : (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) [5] ، فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به ؛ فآمن به المؤمن ، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ، ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات ، أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)[6] ، فالآيات المخلوقة والمتلوة ، فيها تبصرة ، وفيها تذكرة : تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ؛ فيبصر من لم يكن عرف حتى

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٥
(٢) سورة الاعلى ، الآيتان : ١٠، ١١
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٢
(٤) سورة فصلت ، الآية : ٥٣
(٥) سورة فصلت ، الآية : ٥٣
(٦) سورة ق، الآيات : ٦ - ٨

يعرف ، ويذكر من عرف ونسي ، والانسان يقرأ السورة مرات ، حتى سورة الفاتحة ، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك ، حتى كأنها تلك الساعة نزلت ؛ فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله ، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر ، بخلاف من قرأه مع الغفلة ، ثم كلما فعل شيئاً مما أمر به ، استحضر أنه أمر به فصدق الامر ؛ فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلا عنه وإن لم يكن مكذباً .

الثامن : أن الانسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها ، وأمر بها ، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر ، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق ، ثم يسمع الآية أو الحديث ، أو يتدبر ذلك ، أو يفسر له معناه ، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه ، فيصدق بما كان مكذباً به ، ويعرف ما كان منكراً ، وهذا تصديق جديد ، وإيمان جديد ازداد به إيمانه ، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلا ؛ وهذا وان أشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليماً عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل ، وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك ، فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج ؛ وأما كثير من الناس ، بل من أهل العلوم والعبادات ، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لا يعرفون أنها تخالف ، فإذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع في الدين قولاً أخطأ فيه،أو عمل عملا أخطأ فيه،وهومؤمن بالرسول، أو عرف ما قاله وآمن به ، لم يعدل عنه ؛ هو من هذا الباب ، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول ، فهو من هذا الباب ؛ فمن علم ما جاء به الرسول ، وعمل به ، أكمل ممن أخطأ ذلك ؛ ومن علم الصواب بعد الخطأ ، وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك .

فصل

وقد أثبت في القرآن إسلاماً بلا إيمان في قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً)[1] . وقد ثبت في «الصحيحين» ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال : أعطى النبي ﷺ رهطاً ، وفي رواية : قسم قسماً ، وترك فيهم من لم يعطه ، وهو أعجبهم إليّ ، فقلت : يا رسول الله ، مالك عن فلان ؟ فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مسلماً » . أقولها ثلاثاً ، ويرددها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم قال : « إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إليّ منه ، مخافة أن يكبه الله في النار » ، وفي رواية : فضرب بين عنقي وكتفي ، وقال : « أقتال أي سعد ؟» .

فهذا الاسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم ، هل هو إسلام يثابون عليه ؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف: أحدهما : أنه إسلام يثابون عليه ، ويخرجهم من الكفر والنفاق . وهذا مروي عن الحسن ، وابن سيرين ، وإبراهيم النخعي ، وأبي جعفر الباقر ؛ وهو قول حماد بن زيد ، وأحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأبي طالب المكي ، وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤

قال أحمد بن حنبل : حدثنا مؤمل عن عمار بن زيد قال : سمعت هشاماً يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن [1]. وقال أحمد بن حنبل : حدثنا ابو سلمة الخزاعي ، قال : قال مالك ، وشريك ، وابو بكر بن عياش ، وعبد العزيز بن أبي سلمة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد : الايمان : المعرفة والإقرار والعمل ، إلا أن حماد بن زيد ، يفرق بين الإسلام والإيمان ، يجعل الإيمان خاصاً ، والإسلام عاماً [2].

والقول الثاني : أن هذا الاسلام : هو الاستسلام خوف السبي والقتل ، مثل إسلام المنافقين . قال : وهؤلاء كفار ، فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم ، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر . وهذا اختيار البخاري ، ومحمد بن نصر المروزي ، والسلف مختلفون في ذلك .

قال محمد بن نصر : حدثنا إسحاق ، أنبأنا جرير ، عن مغيرة ، قال : أتيت إبراهيم النخعي ، فقلت : إن رجلا خاصمني يقال له : سعيد العنبري ، فقال إبراهيم : ليس بالعنبري ولكنه زبيدي . قوله : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) [3] فقال : هو الاستسلام ، فقال إبراهيم : لا ، هو الاسلام .

وقال : حدثنا محمد بن يحيي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن مجاهد : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) [3] ، قال : استسلمنا خوف السبي والقتل . ولكن هذا منقطع ، سفيان لم يدرك مجاهداً . والذين قالوا : إن هذا الإسلام هو كإسلام المنافقين ، لا يثابون عليه ، قالوا : لأن الله نفى عنهم الايمان ، ومن نفي عنه الايمان فهو كافر . وقال هؤلاء : الاسلام هو

---

(١) اى ويهابان ان يقولا : هو مؤمن .
(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : يجعل الاسلام خاصاً ، والايمان عاماً .
(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٤

الايمان ، وكل مسلم مؤمن . وكل مؤمن مسلم ، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين ، لزمه ان لا يجعلهم داخلين في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة)[1] : وفي قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة)[2] ، وأمثال ذلك ، فإنهم إنما دعوا باسم الإيمان ، لا باسم الاسلام ، فمن لم يكن مؤمناً لم يدخل في ذلك .

وجواب هذا أن يقال : الذين قالوا من السلف : إنهم خرجوا من الايمان إلى الإسلام ، لم يقولوا : إنه لم يبق معهم من الايمان شيء ، بل هذا قول الخوارج ، والمعتزلة . وأهل السنة الذين قالوا هـــذا ، يقولون : الفساق يخرجون من النار بالشفاعة . وإن معهم إيماناً يخرجون به من النار . لكن لا يطلق عليهم اسم الايمان. لأن الإيمان المطلق ، هو الذي يستحق صاحبه الثواب ، ودخول الجنة ، وهؤلاء ليسوا من أهله ، وهم يدخلون في الخطاب بالايمان ، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الايمان وإن لم يستكمله ، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الايمان ، فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب ؟! وإلا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب ؛ وإنما صار من الايمان بعد أن أمروا به ،فالخطاب بـ(يا أيها الذين آمنوا)[1]،غير قوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم)[3] ونظائره، فإن الخطاب بـ(يا أيها الذين آمنوا) ، يدخل فيه من أظهر الايمان ،وإن كان منافقاً في الباطن يدخل فيه في الظاهر ، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً ، وإن لم يكن من المؤمنين حقا؟!وحقيقة أن من لم يكن من المؤمنين حقاً ، يقال فيه : إنه مسلم ، ومعه إيمان يمنعه الخلود في النار ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة .

---

(١) سورة المائده ، الآية : ٦ — (٢) سورة الجمعة ، الآية: ٩

(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٥

لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان ؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه ، فقيل : يقال مسلم ، ولا يقال : مؤمن ؛ وقيل : بل يقال: مؤمن.

والتحقيق أن يقال : إنه مؤمن ناقص الإيمان ، مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، ولا يعطى الاسم المطلق ، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق ؛ واسم الايمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله ، لأن ذلك إيجاب عليه ، وتحريم عليه ، وهو لازم له ، كما يلزمه غيره ، وإنما الكلام في اسم المدح المطلق ؛ وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف : يدخل فيه المؤمن حقا ، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة ، وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، وهو في الباطن ينفى عنه الاسلام والايمان ، وفي الظاهر يثبت له الاسلام والايمان الظاهر ؛ ويدخل فيه الذين أسلموا ولم[1] تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم ؛ لكن معهم جزء من الايمان وإسلام يثابون عليه ، ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم ، وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر ، لكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم ، فإنهم قالوا : آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً . فلا دخلت حقيقة الايمان في قلوبهم ، ولا جاهدوا في سبيل الله ، وقد كان دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد ، وقد يكونون من أهل الكبائر المعرّضين للوعيد ، كالذين يصلون ، ويزكون ، ويجاهدون ، ويأتون الكبائر ، وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام ، بل هم مسلمون ، ولكن بينهم نزاع لفظي : هل يقال : إنهم مؤمنون كما سنذكره إن شاء الله.

وأما الخوارج والمعتزلة ، فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام ، فإن الإيمان والاسلام عندهم واحد ؛ فإذا خرجوا عندهم من الايمان ، خرجوا من الاسلام ، لكن الخوارج تقول : هم كفار ، والمعتزلة تقول : لا مسلمون ولا كفار ؛ ينزلونهم

---

(١) وفي النسخة الهندية بعد التصحيح : وإن لم .

منزلة بين المنزلتين ؛ والدليل على أن الاسلام المذكور في الآية هو إسلام يثابون عليه ، وأنهم ليسوا منافقين ، أنه قال . (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)[١] : ثم قال : (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً)[١] ، فدل أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هـذا الاسلام ، آجرهم الله على الطاعة . والمنافق عمله حابط في الآخرة .

وأيضا فإنه وصفهم بخلاف صفات المنافقين ، فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم ، وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، كما قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ؛ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) ... الآيات[٢] وقال : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)[٣] ، فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب ؛ وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وبأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه ؛ وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك ، لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول : (قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ؛ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً)[١] .

ونفي الايمان المطلق ، لا يستلزم أن يكونوا منافقين ، كما في قوله : (يسألونك عن الأنفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين)[٤] ، ثم قال : (إنما المؤمنون الذين إذا

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤
(٢) سورة البقرة ، الآيات : ٨-٢٠
(٣) سورة المنافقون ، الآية : ١
(٤) سورة الأنفال ، الآية : ١

ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا)[1] ، ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك ، يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار ، بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب ، فنفي عنه ، كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها ، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايمان الواجب ، فنفي عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين ، معهم من الايمان ما يثابون عليه .

وهذا حال أكثر الداخلين في الاسلام ابتداء ، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الايمان ، فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم ، كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا ، أو أسلم بعد الأسر ، أوسمع بالاسلام فجاء فأسلم ، فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الايمان ، إن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك ، إما بفهم القرآن ، وإما بمباشرة أهل الإيمان ، والاقتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال ، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها . والانسان قد يظهر له من محاسن الاسلام ما يدعوه إلى الدخول فيه ، وإن كان قد ولد عليه وتربى بين أهله ، فإنه يحبه ، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوىء الكفار . وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه ، ولايجاهد في سبيل الله، فليس هو داخلا في قـوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجـاهدو بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله)[2] ، وليس هو منافقاً في الباطن، مضمراً للكفر ، فلا هو من المؤمنين حقاً ، ولا هو من المنافقين ، ولا هو أيضا من أصحاب الكبائر ، بل يأتي بالطاعات الظاهرة ، ولا يأتي بحقائق الايمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً ؛ فهذا معه

---

(١) سورة الانفال ، الآيات : ٢ ـ ٤

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٥

إيمان وليس هو من المؤمنين حقا ، ويثاب على ما فعل من الطاعات ، ولهذا قال تعالى: (ولكن قولوا أسلمنا)[1] ولهذا قال : (يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين)[2]،يعني في قوله [3]: (آمنا) يقول : إن كنتم صادقين ، فالله يمن عليكم أن هداكم للايمان ؛ وهذا يقتضي أنهم قد يكونون صادقين في قولهم : (آمنا) ،ثم صدقهم ، إما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون ؛ وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين ، بل معهم إيمان ، وإن لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الايمان ؛ وهذا أشبه والله أعلم ، لأن النسوة الممتحنات قال فيهن: (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار)[4]، ولايمكن نفي الريب عنهن في المستقبل ، ولأن الله إنما كذب المنافقين ، ولم يكذب غيرهم ؛ وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال : (لم تؤمنوا) كما قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه» وقوله : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»،و «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» وهؤلاء ليسوا منافقين .

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم ، لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به ، فإن الله تعالى قال : (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض)[5]، فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ؛ فإن الاسلام الظاهر يعرفه كل أحد . ودخلت الباء في قوله : (أتعلمون الله بدينكم) ، لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون ، كأنه قال : أتخبرونه وتحدثونه بدينكم ، وهو يعلم مافي السموات ومافي الارض ؛وسياق الآية يدل

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٧

(٣) وفي النسخة الهندية بعد التصحيح : قولكم .

(٤) سورة الممتحنة ، الآية : ١٠ (٥) سورة الحجرات ، الآية : ١٦

على أن الذي أخبروا به الله ، هو ما ذكره الله عنهم من قولهم : (آمنا) فإنهم أخبروا عما في قلوبهم .

وقد ذكر المفسرون ، أنه لما نزلت هاتان الآيتان ، أتوا رسول الله ﷺ ، يحلفون أنهم مؤمنون صادقون، فنزل قوله تعالى : (قل أتعلمون الله بدينكم)[1] ، وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولاً في دخولهم في الدين ، لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا في الآية ، إنما هو كلام قالوا : وهو سبحانه قال : (ولما يدخل الايمان في قلوبكم)[2]، ولفظ : (لما) ، ينفى به مايقرب حصوله ويحصل غالبا . كقوله[3] : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم)[4] وقد قال السدي : نزلت هذه الآية في أعراب مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح ،وكانوا يقولون: آمنا بالله ليأمنوا على أنفسهم ، فلما ستنفروا إلى الحديبية تخلفوا ؛ فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانوا أذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، فلما سار رسول الله ﷺ الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم . فقالوا : قدموا المدينه في سنة مجدبة ، فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين ؛ وأفسدوا طريق المدينة بالعذارت ، وأغلوا أسعارهم ، وكانوا يمنون على رسول الله ﷺ يقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، فنزلت فيهم هذه الآية ؛ وقد قال قتادة في قوله : (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هد كم للايمان إن كنتم صادقين)[5] قال : منوا على النبي ﷺ حين جاؤوا فقالو : إنا أسلمنا بغير قتال

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٦ (٢) سورت الحجرات ، الآية : ١٤

(٣) في الأصل : فقوله ، والتصحيح من النسخة الهندية .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢ (٥) سورة الحجرات ، الاية : ١٧

لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، فقال الله لنبيه : (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان)[1]

وقال مقاتل بن حيان :اهم أعراب بني أسد بن خزيمة ، قالوا : يارسول الله أتيناك بغير قتال ، وتركنا العشائر والأموال ، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرهاً في الاسلام ؛ فلنا بذلك عليك حق : فأنزل الله تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين)[1] . فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل : (ولا تبطلوا اعمالكم)[2] ، ويقال : من الكبائر التي ختمت بنار، كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها.

وهذا كله يبين انهم لم يكونوا كفاراً في الباطن ؛ ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان ؛ وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون)[3] ولم يصفهم بكفر ولا نفاق ، لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق، ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم ، وقال بعد ذلك : (ياايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)[4] وهذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ، وكان قد كذب فيما أخبر .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فسار بعض الطريق ثم رجع فقال : إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إليهم ، فنزلت هذه الآية . وهذه القصة معروفة

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٧ — (٢) سورة محمد ، الآية : ٣٣

(٣) سورة الحجرات ، الآية : ٤ — (٤) سورة الحجرات ، الآية : ٦

من وجوه كثيرة ، ثم قال تعالى في تمامها : (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) [1] وقال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى) [2] الآية . ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب وقال : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) [3] وقد قيل : معناه : لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد إيمانه ، وهذا ضعيف ، بل المراد: بئس الاسم أن تكونوا فساقا بعد إيمانكم ، كما قال تعالى في الذي كذب : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) [4] فسماه فاسقاً .

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، يقول : فإذا سابيتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فساقاً . وقد قال في آية القذف : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون)[5] يقول : فإذا أتيتم بهذه الأمور التي تستحقون بها أن تسموا فساقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الايمان ، وإلا فهم في تنابزهم ما كانوا يقولون : فاسق ، كافر ، فإن النبي ﷺ قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً .

وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية : لا تسميه بعد الاسلام بذنبه قبل الاسلام ، كقوله لليهودي إذا أسلم : يا يهودي ، وهذا مروي عن ابن عباس وطائفة من التابعين ، كالحسن ، وسعيد بن جبير ، وعطاء الخراساني ، والقرظي ، وقال عكرمة : هو قول الرجل : يا كافر، يامنافق ، وقال عبدالرحمن بن زيد : هو تسميته بالأعمال ، كقوله : يازاني ، يا سارق ، يا فاسق ، وفي تفسير العوفي عن ابن عباس قال : هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها ، ومعلوم أن اسم الكفر ، واليهودية ،

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٧
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ٩
(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١١
(٤) سورة الحجرات ، الآية : ٦
(٥) سورة النور . الآية : ٤

والزاني ، والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق ، فعلم أن قوله : (بئس الاسم الفسوق)[1] لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق ، فإن تسميته كافراً أعظم ، بل إن الساب يصير فاسقاً لقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ثم قال : (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[1] فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك وإن كانوا يدخلون في اسم المؤمنين ، ثم ذكر النهي عن الغيبة ، ثم ذكر النهي عن التفاخر بالاحساب ، وقال : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[2] ثم ذكر قول الأعراب : (آمنا) .

فالسورة تنهى عن هذه المعاصي والذنوب التي فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين ، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين . وأهل السباب[3] والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ، ليسوا من المنافقين ، ولهذا قال المفسرون : إنهم الذين استنفروا عام الحديبية ، وأولئك وإن كانوا من أهل الكبائر فلم يكونوا في الباطن كفاراً منافقين .

قال ابن إسحاق : لما أراد رسول الله ﷺ العمرة ـ عمرة الحديبيه ـ استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد ، فتثاقل عنه كثير منهم ، فهم الذين عنى الله بقوله : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا)[4] أي ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم :)[4] أي ما يبالون ، أستغفرت لهم أم لم تستغفرلهم ، وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي بالذنب ، والمنافقون قال فيهم : (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١١ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٤
(٣) وفي النسخة الهندية بعد التصحيح : من جنس الباقين ، اهل السباب .
(٤) سورة الفتح ، الآية : ٢١

ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) [1] ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الاعراب ، بل الآية دليل على أنهم لو صدقوا في طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول ، ثم قال : (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) [2] فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعي إلى الجهاد ، وتوعدهم بالتولي عن طاعته .

وهذا كخطاب أمثالهم من أهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر في الباطن، فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الأمر حتى يؤمن أولاً ، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة في الجهاد ، فان كفره أعظم من هذا .

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة ، فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذي أضعف إيمانهم ، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم ، وإن كانوا صادقين في أنهم في الباطن متدينون [3] بدين الاسلام .

وقول المفسرين : لم يكونوا مؤمنين نفي لما نفاه الله عنهم من الايمان كما نفاه عن الزاني ، والسارق ، والشارب ، وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وعمن لا يجيب الى حكم الله ورسوله ، وأمثال هؤلاء . وقد يحتج على ذلك بقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) [4] كما قال : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الايمان ، فدل على أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين .

---

(١) سورة المنافقون ، الآيتان : ٥، ٦

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٦

(٣) في الأصل : متدينين .

(٤) سورة الحجرات ، الآية : ١١

وأما ما نقل من أنهم أسلموا خوف القتل والسبي ، فهكذا كان إسلام غير المهاجرين والأنصار ، أسلموا رغبة ورهبة ، كإسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم النبي ﷺ، وإسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نجد . وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، بل يدخلون في الاسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ، ولا استنارت قلوبهم بنور الايمان ولا استبصروا فيه ، وهؤلاء قد يحسن إسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق الملة ، ومنهم من يصير منافقاً مرتاباً اذا قال له منكر ونكير : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته .

وقد تقدم قول من قال : إنهم أسلموا بغير قتال ، فهؤلاء كانوا أحسن إسلاماً من غيرهم ، وأن الله إنما ذمهم لكونهم منـــوا بالإسلام وأنزل فيهم (ولا تبطلوا أعمالكم) [١] وأنهم من جنس أهل الكبائر .

وأيضاً قوله : (ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) [٢] (ولما) إنما ينتفى بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقباً ، كقوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[٣] وقوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) [٤] فقوله : (ولما يدخل الايمان في قلوبكم) [٣] يدل على أن دخول الايمان منتظر منهم ، فإن الذي يدخل في الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الايمان ، لكنه يحصل فيما بعد، كما في الحديث : «كان الرجل يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والاسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس » . ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان في

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٣٣ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٤
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢ (٤) سورة البقرة ، الآية ٢١٤

قلوبهم بعد ذلك ، وقوله : (ولكن قولوا أسلمنا) [١] امر لهم بأن يقولوا ذلك ، والمنافق لا يؤمر بشيء ، ثم قال : (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالهم شيئا) [١] والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً .

وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى في الايمان دون الاسلام وأن اصحاب الكبائر يخرجون من الايمان إلى الإسلام. قال الميموني: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في: أنامؤمن إن شاءا لله؟ فقال: أقول: مؤمن. إن شاءالله وأقول: مسلم ولا أستثني ، قال : قلت لاحمد: تفرق بين الاسلام والايمان ؟ فقال لي : نعم ، فقلت له : بأي شيء تحتج ؟ قال لي : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) [١] وذكر أشياء . وقال الشالنجي : سألت أحمد عمن قال: أنا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما انا عند الله ؟ قال : ليس بمرجيء .

وقال أبو أيوب سليمان بن داود الهاشمي: الاستثناء جائز ، ومن قال: أنا مؤمن حقاً، ولم يقل: عند الله ، ولم يستثن ، فذلك عندي جائز وليس بمرجيء ، وبه قال أبو خيثمة وابن أبي شيبة ،وذكر الشالنجي أنه سأل أحمدبن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبه بجهده ، اي يطلب الذنب بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» يخرج من الإيمان ، ويقع في الإسلام ، ومن نحو قوله : « ولا يشرب لخمر حين يشربها وهو مؤمن،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»، ومن نحو قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) [٢] فقلت له: ما هذا الكفر ؟ قال : كفر لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض،فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه . وقال ابن أبي شيبة: لا يزني الزاني حين

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٢) سورة المائدة ، الآية : ٤٤

يزني وهو مؤمن » : لا يكون مستكمل الإيمان ، يكون ناقصاً من إيمانه .

قال الشانجي : وسألت احمدعن الإيمان والإسلام. فقال : الإيمان قول وعمل ؛ والاسلام: إقرار ،قال: وبه قال أبو خثيمة .وقال ابن أبي شيبة :لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام ؛ وإذا كان على المخاطبة فقال : قد قبلت الايمان ، فهو داخل في الإسلام ؛ وإذا قال : قد قبلت الاسلام فهو داخل في الايمان . وقال محمد بن نصر المروزي : وحكى غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل عن قول النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فقال : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ، ولا أسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ، يريد دون الكبائر ، أسميه مؤمناً ناقص الإيمان .

قلت : أحمد بن حنبل كان يقول تارة بهـذا الفرق ، وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف،وهو المتأخر عنه ، قال أبو بكر الأثرم في « السنة » : سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الإيمان ما تقول فيه ؟ فقال : أما أنا فلا أعيبه، أي من الناس من يعيبه .قال أبو عبد الله :إذا كان يقول : إن الايمان قول وعمل يزيد وينقص، فاستثنى مخافة واحتياطاً ، ليس كما يقولون على الشك ؛ إنما يستثني للعمل . قال أبو عبد الله : قال تعالى :(لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله)[١] أي إن هذا استثناء بغير شك ، وقال النبي ﷺ في أهل القبور : «وانا إن شاء الله بكم لاحقون»[٢] أي لم يكن يشك في هذا ، وقد استثناه وذكر قول النبي ﷺ : « وعليها نبعث إن شاء الله »[٣] يعني من القبر وذكر قول النبي ﷺ : «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله»[٣] قال : هذا كله تقوية للاستثناء في الإيمان .

---

(١) سورة الفتح ، الاية : ٢٧

(٢) رواه مسلم واحمد وغيرهما في حديث السلام على أهل القبور .

(٢) راوه احمد وابن ماجه بسند حسن وسيأتي قبل تمام الكتاب ؛ (٧) صفحات تقريباً اتم منه .

(٣) رواه مسلم وسيعيده المؤلف بتمامه

قلت لأبي عبد الله : وكأنك لاترى بأساً أن لايستثني . فقال : إذا كان ممن يقول : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص، فهو أسهل عندي ،ثم قال أبو عبدالله: إن قوماً تضعف قلوبهم عن لاستثناء ، كالتعجب منهم ، وسمعت أبا عبد الله وقيل له: شبابة أي شيء تقول فيه؟ : فقال: شبابة كان يدعي الارجاء ، قال : وحكي عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ، ماسمعت عن أحمد بمثله، قال أبو عبد الله : قال شبابة : إذا قال : فقد عمل بلسانه كما يقولون: فإذا قال عمل بجارحته، اي بلسانه حين تكلم به ؛ ثم قال أبو عبد الله : هذا قول خبيث ماسمعت أحداً يقول به ولا بلغني ، قيل لأبي عبد الله : كنت كتبت عن شبابة شيئاً ؟ فقال : نعم كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل أن نعلم أنه يقول بهذا ، قلت لأبي عبد الله : كتبت عنه بعد؟ قال : لا ولاحرف [1] قيل لأبي عبد الله : يزعمون أن سفيان كان يذهب الى الاستثناء في الايمان. فقال: هذا مذهب سفيان، المعروف به الاستثناء ، قلت لأبي عبد الله : من يرويه عن سفيان؟ فقال: كل من حكي عن سفيان في هذا حكاية كان يستثني، قال : وقال وكيع عن سفيان : الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ؟ ولا ندري ماهم عند الله ، قلت لأبي عبد الله: فأنت بأي شيء تقول ؟ فقال: نحن نذهب إلى الاستثناء .

قلت لأبي عبد الله : فأما إذا قال: أنا مسلم فلا يستثني ؟ فقال : نعم لايستثني إذا قال : أنا مسلم : قلت لأبي عبد الله : أقول : هذا مسلم ، وقد قال النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم أنه لايسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهري : فنرى أن الإسلام الكلمة ، والإيمان العمل ، قال أبو عبد الله : حدثناه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري . قيل لأبي عبد الله : فنقول: الايمان يزيد

---

(١) قلت : شبابة ثقة محتج به في «الصحيحين» وقد روى الخطيب في ترجمته من «تاريخه» (٢٩٩/٩) عن ابي زرعة انه رجع عن الإرجاء ، وقال : الإيمان قول وعمل .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

وينقص ؟ فقال : حديث النبي صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك ، فذكر قوله أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال كذا، اخرجوا من كان في قلبه كذا» فهو يدل على ذلك وذكر عند أبي عبد الله عيسى الأحمر ، وقوله في الإرجاء فقال : نعم وذلك خبيث القول. وقال أبو عبد الله : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن زيد ، سمعت هشاما يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم • ويهابان: مؤمن .

قلت لأبي عبد الله : رواه غير سويد؟ قال : ما علمت بذلك ، وسمعت أبا عبد الله يقول : الإيمان قول وعمل . قلت لأبي عبد الله : فالحديث الذي يروى « اعتقها فإنها مؤمنة» ،قال : ليس كل أحد يقول : إنها مومنة. يقولون : اعتقها. قال : ومالك سمعه من هذا الشيخ ، هلال بن علي لا يقول: « فإنها مؤمنة »[1] وقد قال بعضهم بأنها مؤمنة، فهي حين تقر بذاك فحكمها حكم المؤمنة ، هذا معناه. قلت لابي عبد الله: تفرق بين الايمان والاسلام ؟ فقال : قد اختلف الناس فيه ، وكان حماد ،بن زيد زعموا : يفرق بين الايمان والاسلام ، قيل له: من المرجئة ؟ قال: الذين يقولون : الايمان قول بلا عمل . قلت : فأحمد بن حنبل لم يرد قط أنه سلب جميع الايمان فلم يبق معه منه شيء ، كما تقوله الخوارج والمعتزلة ، فإنه قد صرح في غير موضع : بأن أهل الكبائر معهم إيمان يخرجون به من النار ، واحتج بقول النبي ﷺ : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[2] وليس هذا قوله ولا قول أحد من أئمة أهل السنة ، بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شي من الايمان يخرجون

---

(١) قلت : قد رواه يحيى بن ابي كثير عن هلال بن علي ، وهو ابن ابي ميمونة بزيادة « فانها مؤمنة » . اخرجه مسلم واحمد وغيرهما . ويحيى ثقة حجة ، فزيادته مقبولة ، وقد جاءت من طرق اخرى عن جماعة من الصحابة ساق احاديثهم الذهبي في اول كتاب « العلو » فهي زيادة صحيحة مقطوع بثبوتها فلا وجه للتردد في ذلك .

(٢) تقدم هذا الحديث وهو عند الشيخين .

به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، لكن إذا كان معه بعض الايمان لم يلزم أن يدخل في الاسم المطلق الممدوح، وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1] وقال : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير مايحب لنفسه »[1] وقال : « لايؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وأقسم على ذلك مرات وقال : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[2] .

والمعتزلة ينفون عنه اسم الايمان بالكلية ، واسم الاسلام أيضا ، ويقولون: ليس معه شيء من الايمان والاسلام ، ويقولون : ننزله منزلة بين منزلتين، فهم يقولون: إنه يخلد في النار لا يخرج منها بالشفاعة ، وهذا هو الذي أنكر عليهم ، وإلا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئا من الايمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة ، وكل أهل السنة متفقون على أنه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض إيمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد ، وإنما ينازع في ذلك من يقول : الايمان لايتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون : إنه كامل الايمان، فالذي ينفي إطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا : متق ، وبر ، وعلى الصراط المستقيم ، فإذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الاسماء، فكذلك اسم الايمان ، وأما دخوله في الخطاب، فلأن الخاطب باسم الايمان كل من معه شيء منه ، لأنه أمر لهم، فمعاصيهم لاتسقط عنهم الأمر .

وأما ما ذكره أحمد في الاسلام ، فاتبع فيه الزهري حيث قال : فكانوا يرون الاسلام الكلمة، والايمان العمل ، في حديث سعد بن أبي وقاص ، وهذا على وجهين، فإنه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة ، وهذا هو الاسلام الذي بينه النبي ﷺ حيث قال : « الاسلام :أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

---

(١) تقدم هذا الحديث ، وهو عند الشيخين .

(٢) حديث صحيح اخرجه احمد وغيره من حديث ابي هريرة وانس وفضالة بن عبيد ، وصححه الترمذي .

وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت »[1] وقد يراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة ، وليس هذا هو الذي جعله النبي ﷺ الاسلام . لكن قد يقال : إسلام الأعراب كان من هذا ، فيقال : الأعراب وغيرهم كانوا إذا أسلموا على عهد النبي ﷺ ألزموا بالأعمال الظاهرة : الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج ، ولم يكن أحد يترك بمجرد الكلمة ، بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها ، وأحمد إن كان أراد في هذه الرواية أن الاسلام هو الشهادتان فقط ، فكل من قالها فهو مسلم، فهذه إحدى الروايات عنه ، والرواية الأخرى : لا يكون مسلماً حتى يأتي بها ويصلي، فإذا لم يصل كان كافراً . والثالثة : أنه كافر بترك الزكاة أيضاً. والرابعة : أنه يكفر بترك الزكاة إذا قاتل الامام عليها دون ما إذا لم يقاتله ، وعنه أنه لو قال : أنا أؤديها ولا أدفعها إلى الامام ، لم يكن للامام أن يقتله ، وكذلك عنه رواية أنه يكفر بترك الصيام والحج ،إذا عزم أنه لا يحج أبداً . ومعلوم أنه على القول بكفر تارك المباني يمتنع أن يكون الاسلام مجرد الكلمة ، بل المراد أنه إذا أتى بالكلمة دخل في الاسلام، وهذا صحيح ، فانه يشهد له بالاسلام ولا يشهد له بالايمان الذي في القلب ، ولا يستثنى في هذا الاسلام ، لأنه أمر مشهور ، لكن الاسلام الذي هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثنا ، فالاسلام الذي لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فانها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيه .

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال : قيل : هو الايمان وهما اسمان لمسمى واحد. وقيل : هو الكلمة ، وهذان القولان لهما وجه سنذكره ، لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الاسلام والايمان ، ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا إذا جمعنا بين الاسلام

---

(١) متفق عليه كما تقدم .

والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ ، وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام ، واذا أفرد الاسلام ، فقد يكون مع الاسلام مؤمناً بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له : مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه . وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان ؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه ، والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان ، وأما اسم الاسلام مجرداً ، فما علّق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من احد سواه ، وبالاسلام بعث الله جميع النبيين ، قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [1] وقال :(ان الدين عند الله الاسلام) [2] وقال نوح : (يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليّ ولا تنظرون ، فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) [3] وقد أخبر أنه لم ينج من العذاب الا المؤمنين فقال : (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) [4] وقال : (وأحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن [5] وقال نوح : (وما أنا بطارد الذين آمنوا) [6] .

وكذلك أخبر عن ابراهيم أن دينه الاسلام فقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ (٢) سورة آل عمران ، الآية: ١٩

(٣) سورة يونس الآيتان : ٧١ و ٧٢

(٤) سورة هود ، الآية : ٤٠ (٥) سورة هود ، الآية : ٣٦

(٦) سورة هود ، الآية : ٢٩

إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين ؛ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1] وقال : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً)[2] وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [3] كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [4] وهذا يدل على ان الاسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به ، هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان ، فإن الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب ، فإن انتفاء الخوف علة تقتضي انتفاء ما يخافه ، ولهذا قال : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [4] لم يقل : لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ، ونفى عنهم ان يحزنوا ، لأن الحزن إنما يكون على ماض ، فهم لا يحزنون بحال لا في القبر ولا في عرصات القيامة ، بخلاف الخوف فإنه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ، ولا خوف عليهم في الباطن كما قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون) [5] .

وأما الاسلام المطلق المجرد ، فليس في كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما في كتاب الله تعليق دخول الجنة بالإيمان المطلق المجرد ، كقوله : (سابقوا إلى مغفرة

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١٣٠ و ١٣٢
(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٥
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١١٢
(٤) سورة البقرة ، الآية: ٦٢
(٥) سورة يونس ، الآيتان : ٦٢ و ٦٣

من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله)[1] وقال : (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم)[2] . وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالإيمان كقوله : (فآمن له لوط)[3] ووصفه بذلك فقال : (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[4] وقال تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه)[5] ووصفه بأعلى طبقات الايمان ، وهو أفضل البرية بعد محمد ﷺ . والخليل إنما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال : (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر)[6] وقال : (واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)[7] وقال موسى : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[8] بعد قوله : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم)[9] وقال : (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)[10] وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين في قوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[11] .

وقد وصف الله السحرة بالإسلام والايمان معاً فقالوا : (آمنا برب العالمين ،

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢١ (٢) سورة يونس ، الآية : ٢

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦

(٤) سورة الانعام ، الآيتان : ٨١ و ٨٢

(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣ (٦) سورة البقرة ، الآية : ١٢٦

(٧) سورة البقرة ، الآية : ١٢٨ (٨) سورة يونس ، الآية : ٨٤

(٩) سورة يونس ، الآية : ٧٣ (١٠) سورة يونس ، الاية : ٨٧

(١١) سورة النحل ، الاية : ٨٩

رب موسى وهارون)[1] وقالوا : (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا)[2] وقالوا : (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين)[3] وقالوا : (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) . ووصف الله أنبياء بني إسرائيل بالإسلام في قوله : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا)[4] والأنبياء كلهم مؤمنون . ووصف الحواريين بالإيمان والاسلام فقال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون)[5] و(قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون)[6] .

وحقيقة الفرق أن الاسلام دين . والدين مصدر دان يدين ديناً : إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده ، وعبد معه إلهاً آخر ، لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، والإسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له ، هكذا قال أهل اللغة : أسلم الرجل إذا استسلم ، فالإسلام في الأصل من باب العمل ، عمل القلب والجوارح .

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسر النبي ﷺ الايمان بإيمان القلب وبخضوعه ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الاسلام

---

(١) سورة الأعراف ، الايتان : ١٢١ و ١٢٢

(٢) سورة الأعراف ، الاية : ١٢٦

(٣) سورة الشعراء ، الاية : ٥١

(٤) سورة المائدة ، الاية : ٤٤

(٥) سورة المائدة ، الاية : ١١١

(٦) سورة ال عمران ، الاية : ٥٢

باستسلام مخصوص ، هو المباني الخمس ، وهكذا في سائر كلامه ﷺ : يفسر الايمان بذلك النوع ، ويفسر الاسلام بهذا ، وذلك النوع أعلى . ولهذا قال النبي ﷺ : « الاسلام علانية والايمان في القلب » ، فإن الأعمال الظاهرة يراها الناس ، وأما ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن ، لكن له لوازم قد تدل عليه ، واللازم لا يدل إلا إذا كان ملزوما ، فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق ، فلا يدل ...[1] . ففى حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة جميعاً أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ، ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه ، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم ، وهذه الصفة أعلى من تلك ، فإن من كان مأمونا سلم الناس منه ؛ وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً ، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه ، خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان في قلبه .

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ : أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما الاسلام؟ قال : « إطعام الطعام . ولين الكلام » قال : فما الايمان قال : « السماحة والصبر » ، فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الانسان لمقاصد متعددة ، وكذلك لين الكلام ، وأما السماحة والصبر فخلقان في النفس ، قال تعالى (وتواصوا بالصبر وتوصوا بالمرحمة)[2] وهذا أعلى من ذاك ، وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكاره ، وهذا ضد الذي خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة .

---

(١) بياض بالأصل وفي جميع النسخ التى بين ايدينا . (٢) سورة البلد ، الاية ١٧

وتمام الحديث : فأي الاســلام أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال : يارسول الله أي المؤمنين أكمل إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » قال : يارسول الله أي القتل أشرف ؟ قال : « مــن أريق دمه وعقر جواده » قال يارسول الله فأي الجهاد أفضل؟قال : « الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله» قال يارسول الله فأي الصدقة أفضل؟ قال : «جهد المقل » قال: يارسول الله فأي الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ، قال : يارسول الله فأي الهجرة افضل ؟ قال : « من هجر السوء » [١] وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير، تارةيروى مرسلاً، وتارة يروى مسنداً ، وفي رواية : أي الساعات أفضل ؟ قال : « جوف الليل الغابر » ، وقوله : « أفضل الايمان السماحة والصبر» يروى من وجه آخر عن جابر عن النبي ﷺ [٢] .

وهكذا في سائر الأحاديث إنما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما في الحديث المعروف الذي رواه أحمد [٣] عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: والله يارسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال: وما الاسلام؟قال : أن « تسلم قلبك لله وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد أشرك بعد إسلامه » وفي رواية قال : «أن تقول: أسلمت

---

(١) رواه احمد (٣٨٥/٤) من طريق شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة به مع اختصار . وشهر فيه ضعف ، ورواه (١١٤/٤) من طريق ابي قلابة عن عمرو بن عبسة وسنده صحيح إن كان ابو قلابة سمعه من عمرو ، فقد رمي بالتدليس ، والحديث صحيح على كل حال فان له شواهد في احاديث متفرقة .

(٢) رواه ابن ابي شيبة في « الايمان » عن الحسن عن جابر وابن عدي من طريق أخرى عنه .

(٣) واسناده حسن

وجهي لله وتخليت ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم » ، وفي لفظ تقول : «أسلمت نفسي لله وخليت وجهي إليه» ؛ وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبي هويرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للاسلام صوى[1] ومناراً كمنار الطريق ، من ذلك ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتسلم على بني آدم إذا لقيتهم ، فإن ردوا عليك ، ردت عليك وعليهم الملائكة ، وإن لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتهم إن سكت عنهم ، وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم ، فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم في الاسلام تركه ، ومن تركهن فقد نبذ الاسلام وراء ظهره [2]

وقد قال تعالى : (ياايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) [3] قال مجاهد : وقتادة : نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الاسلام كلها ، وهذا لا ينافي قول من قال : نزلت فيمن أسلم من اهل الكتاب أو فيمن لم يسلم ، لأن هؤلاء كلهم مأمورون ايضاً بذلك ، والجمهور يقولون : (في السلم)[3] اي في الاسلام ، وقالت طائفة : هو الطاعة ، وكلاهما مأثور عن ابن عباس، وكلاهما حق ، فإن الاسلام هـو الطاعة كما تقدم انه من باب الأعمال . وأما قوله: (كافة) [3] فقد قيل : المراد ادخلوا كلكم. وقيل : المراد به ادخلوا في الاسلام جميعه ، وهذا هو الصحيح ، فإن الانسان لا يؤمر بعمل غيره ، وإنما يؤمر بما يقدر عليه ، وقوله: (ادخلوا) [3] خطاب لهم كلهم فقوله (كافة) [3] إن أريد به مجتمعين لزم ان يترك الانسان الاسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً به إلا بشرط الغير له[4] كالجمعة، وهذا لا يقوله مسلم، وإن أريد

---

(١) اي علامات .

(٢) ورواه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبي

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨

(٤) وفي نسخة : الا بشرط موافقة الغير له

بكافة ؛ أي ادخلوا جميعكم ، فكل أوامر القرآن كقوله : (آمنوا بالله ورسوله)[1] (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[2] كلها من هذا الباب ، وما قيل فيها كافة ، وقوله تعالى: (قاتلوا المشركين كافة)[3] اي قاتلوهم كلهم لاتدعوا مشركاً حتى تقاتلوه ، فإنها أنزلت بعد نبذ العهود ، ليس المراد: قاتلوهم مجتمعين او جميعكم ، فإن هـذا لايجب ، بل يقاتلون بحسب المصلحة ، والجهاد فرض على الكفاية ، فإذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة ، فكيف يؤكد بذلك في فروض الكفاية ؟! وإنما المقصود تعميم المقاتلين . وقوله :(كما يقاتلونكم كافة)[3] فيه احتمالان .

والمقصود ان الله امر بالدخول في جميع الاسلام كما دل عليه هـذا الحديث ، فكل ما كان من الاسلام وجب الدخول فيه ، فإن كان واجباً على الأعيان لزمه فعله ، وإن كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه ، وعزم عليه إذا تعين ، أو أخذ بالفضل ففعله ، وإن كان مستحباً اعتقد حسنه وأحب فعله ، وفي حديث جرير أن رجلاً قال: يارسول الله صف لي الاسلام. قال: « تشهد ان لا إله لا الله وتقر بما جاء من عند الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاه وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : أقررت ؛ في قصة طويلة فيها أنه وقع في أخاقيق[4] جرذان ، وأنه قتل وكان جائعاً وملكان يدسان في شدقه من ثمار الجنة . فقوله : وتقر بما جاء من عند الله. هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فإنه هو الذي جاء بذلك .

وفي الحديث الذى يرويه أبو سليمان الداراني : حديث الوفد الذين قالوا : نحن المؤمنون، قال: فما علامة إيمانكم ؟ قالوا : خمس عشرة خصلة : خمس أمرتنا رسلك

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٣٦ (٢) سورة البقره ، الآية : ٤٣

(٣) سورة التوبة ، الآية ٣٦

(٤) الأخاقيق : شقوق في الأرض ، كالأخاديد ، واحدها اخقوق كأخدود .

أن نعمل بهن ، وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها في الاسلام إلا أن تكره منها شيئاً . قال : فما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تعملوا بها ؟ قالوا : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت . قال : وما الخمس التي أمرتكم أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال : وما الخمس التى تخلقتم بها في الجاهلية وثبتم عليها في الاسلام ؟ قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضى بمر القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ،فقال النبي ﷺ: « علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء». فقال صلى الله عليه وسلم : « وأنا أزيدكم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما أنتم عنه منتقلون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون »[1] .

فقد فرقوا بين الخمس التي يعمل بها فجعلوها الاسلام ، والخمس التي يؤمن بها فجعلوها الايمان ؛ وجميع الأحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم تدل على مثل هذا .

وفي الحديث الذي رواه أحمد[2] من حديث أيوب عن أبي قلابة عن رجل

---

(١) قلت : هذا حديث منكر .أخرجه أبو نعيم وغيره ، وفيه علقمة بن يزيد بن سويد عن ابيه عن جده . قال الذهبي : « لا يعرف وأتى بخبر منكر ، فلا يحتج به » قلت : وكانه يشير الى هذا.

(٢) لم اجده عنده الا من حديث ايوب عن ابي قلابة عن عمرو بن عتبة قال : قال رجل : يارسول الله ما الاسلام ... الحديث دون قوله « أسلم تسلم » وقوله ولا تغل ولا تجبن وهما ثابتان في غير هذا الحديث وقد سبق الكلام على سنده قريباً

من أهل الشام عن أبيه أن النبي ﷺ قال له : « أسلم تسلم » قال: وما الاسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأي الاسلام أفضل ؟ قال: «الايمان» قال : وما الايمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسله وبالبعث بعد الموت» قال : فأي الايمان أفضل؟ قال: « الهجرة» قال :وما الهجرة ؟ قال : «أن تهجر السوء » قال : فأي الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد» قال: وما الجهاد؟ قال : «أن تجاهد الكفار إذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن » ثم قال رسول الله ﷺ: «ثم عملان هما أفضل الاعمال الا من عمل بمثلهما» قالها ثلاثا: «حجة مبرورة، أو عمرة» وقوله: «هما افضل الاعمال» أي بعد الجهاد، لقوله : «ثم عملان»، ففي الحديث جعل الايمان خصوصاً في الاسلام ، والاسلام أعم منه، كما جعل الهجرة خصوصاً في الايمان والايمان أعم منه ، وجعل الجهاد خصوصاً من الهجرة والمهاجر أعم منه . فالاسلام أن تعبد الله وحده لاشريك له مخلصاً له الدين .

وهذا دين الله الذي لايقبل من أحد غيره لامن الأولين ولا من الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله ، لا بما يضاد ذلك فان ضد ذلك معصية ، وقد ختم الله الرسل بمحمد، ﷺ ، فلا يكون مسلماً إلا من شهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله . وهذه الكلمة بها يدخل الانسان في الاسلام ، فمن قال : الاسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق، ثم لابد من التزام ما أمر به الرسول من الاعمال الظاهرة، كالمباني الخمس، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك ، كما في الحديث: «من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركه» . وهذه الأعمال إذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يثيبه عليها ،ولا يكون ذلك إلا مع إقراره بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيكون معه من الايمان هذا الاقرار ، وهذا الاقرار لايستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين

مالا يقبل الريب ، ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهرا معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان ، ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد ، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول مجملا ، قد لا يعرفون أنه جاء بكتاب ، وقد لايعرفون أنه جاءه ملك . ولا أنه أخبر بكذا ، وإذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به ، لكن لابد من الاقرار بأنه رسول الله وأنه صادق في كل مايخبر به عن الله .

ثم الايمان الذي يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين، فهذا متميز بصفته وقدره في الكمية والكيفية ،فإن أولئك معهم من الايمان بالله وملائكته و كتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر مالا يعرفه هؤلاء .

وايضاً ففي قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ماليس مع هؤلاء، وأولئك هم المؤمنون حقاً ، و كل مؤمن لابد أن يكون مسلماً ؛ فان الايمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق ، لأن الاستسلام لله والعمل له لايتوقف على هذا الايمان الخاص،وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس إذا اسلموا بعد كفر أوولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ،وكانوا من اهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم ايمان مجمل ، ولكن دخول حقيقة الايمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، والا فكثير من الناس لايصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفارا ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه مايدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله مايقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة . وان ابتلوا بمن يورد عليهم

شبهات توجب ريبهم،فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين ،وانتقلوا إلى نوع من النفاق .

وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامه أهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهرصدقهم .قال تعالى : (آلم ، أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[1] وقال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)[2] وقال : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)[3] ولهذا ذم المنافقين بأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى : (إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) - إلى قوله - (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون)[4] وقال في الآية الأخرى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) - إلى قوله - (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ، لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[5] فقد أمره أن يقول لهم : قد كفرتم بعد إيمانكم .

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيات : ١-٣ (٢) سورة آل عمران ، الآية :١٨٩
(٣) سورة الحج ، الآيه : ١١ (٤) سورة المنافقون ،الآيات : ١-٣
(٥) سورة التوبة ، الآيات : ٦٤-٦٦

كفرهم أولاً بقلوبهم ، لايصح ، لان الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد ايمانكم ، فانهم لم يزالو كافرين في نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الايمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ، وهم مع خواصهم مازالو هكذا ، بل لما نافقوا وحذروا ان تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق ، وتكلموا بالاستهزاء ، صارو كافرين بعد ايمانهم ، ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين ، وقد قال تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ، يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فان يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليما في الدنيا والآخرة) [1] فهنا قال : (كفروا بعداسلامهم) ، فهذا الاسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب فيكون قوله : (بعد ايمانهم) وبعد إسلامهم سواء ، وقديكونون مازالوا منافقين ، فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الايمان شيء ، ولكنهم أظهروا الكفر والردة ولهذا دعاهم إلى التوبة فقال : (فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا) [2] بعد التوبة عن التوبة يعذبهم عذاباً اليما في الدنيا والآخرة ، وهذا انما هو كمن أظهر الكفر ، فيجاهده الرسول باقامة الحد والعقوبة . ولهذا ذكر هذا في سياق قوله : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) [3] ولهذا قال في تمامها : (وما لهم في الارض من ولي ولا نصير) [2] .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم ، فإن هؤلاء حلفوا بالله ماقالوا ، وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد إسلامهم وهموا

---

(١) سورة التوبه ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤

(٢) سورة التوبه ، الآيه : ٧٤ (٣) سورة التوبه ، الآيه : ٧٣

بما لم ينالوه ، وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك ، فلم يصلوا إلى مقصودهم ؛ فإنه لم يقل : هموا بما لم يفعلوا ، لكن (بما لم ينالوا) [١] فصدر منهم قول وفعل ، قال تعالى: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) [٢] فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) [٣] فدل على أنهم لم يكونوا عند انفسهم قد أتوا كفراً ،بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر ، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه ، فدل على انه كان عندهم ايمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ، ولكن لم يظنوه كفراً ، وكان كفراً كفروا به ، فإنهم لم يعتقدوا جوازه ، وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل فيسورة البقرة أنهم أبصروا ثم عموا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وآمنو ثم كفروا . ولذلك قال قتادة ومجاهد :

ضرب المثل لإقبالهم على المؤمنين ؛ وسماعهم ماجاء به الرسول ، وذهابنورهم.

قال : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون صم بكم عمي فهم لايرجعون) [٤] إلى ما كانوا عليه.

وأما قول من قال : المراد بالنور ، ماحصل فيالدنيا من حقن دمائهم وأموالهم فإذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب ذلك النور ضوءه ؛ فلفظ الاية ، يدل على خلاف ذلك ، فإنه قال : (وتركهم في ظلمات لايبصـــرون صم بكم عمي فهم لايرجعون) [٤] ويوم القيامة يكونون في العذاب كما قال تعالى : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيهالرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ٧٤

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٦٥

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٦٦

(٤) سورة البقرة ، الآيتان : ١٧ ، ١٨

ألم تكن معكم ؟ قالوا بلى ولـكنكم فتنتم أنفسكم)[1] الآية وقد قال غير واحد من السلف: إن المنافق يعطى يوم القيامة نورا ثم يطفأ ، ولهذا قال تعالى : (يوم لايخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا)[2] .

قال المفسرون : إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ، سألوا الله ان يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة .

قال ابن عباس :ليس أحد من المسلمين ، إلا يعطى نوراً يوم القيامة ؛ فأما المنافق فيطفأ نوره، والمؤمن يشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول :(ربنا أتمم لنا نورنا)[2] ، وهو كما قال : فقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابي هريرة وأبي سعيد وهو ثابت من وجوه أخر عن النبي ﷺ . ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ، ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذي يذكر فيه أنه ينادى يوم القيامة «ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الامة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم.فيقولون : نعوذ بالله منك ،هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه،فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم : فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه».وفي رواية : «فيكشف عن ساقه» : وفي رواية فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم . فيكشف عن عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ، ولا يبقى

---

(١) سورة الحديد ، الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة التحريم ، الآية : ٧

من كان يسجد أنفاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين في الظاهر ، كما كانوا معهم في الدنيا ، ثم وقت الحقيقة ، هؤلاء يسجدون لربهم ، وأولئك لا يتمكنون من السجود ، فإنهم لم يسجدوا في الدنيا له ، بل قصدوا الرياء للناس ، والجزاء في الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا ، فلهذا ؛ أعطوا نوراً ثم طفىء ، لأنهم في الدنيا دخلوا في الايمان ، ثم خرجوا . ولهذا ضرب الله لهم المثل بهذا بذلك . وهذا المثل ، هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر ، وهؤلاء الذين يعطون في الآخرة نوراً ثم يطفىء . ولهذا قال : (فهم لا يرجعون)[1] قال قتادة ومقاتل : لا يرجعون عن ضلالهم ، وقال السدي : لا يرجعون إلى الاسلام ، يعني في الباطن ، وإلا فهم يظهرونه ، وهذا المثل إنما يكون في الدنيا ، وهذا المثل مضروب لبعضهم ، وهم الذين آمنوا ثم كفروا . وأما الذين لم يزالوا منافقين ، فضرب لهم المثل الآخر ، وهو قوله : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق)[2] وهذا أصح القولين ، فإن المفسرين اختلفوا ، هل المثلان مضروبان لهم كلهم ، أو هذا المثل لبعضهم ؟ على قولين . والثاني هو الصواب ، لأنه قال : (أو كصيب)[2] وإنما يثبت بها أحد الأمرين ، فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا ، فإنهم لا يخرجون عن المثلين ، بل بعضهم يشبه هذا ، وبعضهم يشبه هذا ، ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين ، لم يذكر (أو) بل يذكر الواو العاطفة .

وقول من قال : (أو) ههنا للتخيير – كقولهم : جالس الحسن او ابن سيرين– ليس بشيء ، لأن التخيير يكون في الأمر ، لا يكون في الخبر ، وكذلك قول

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨ (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩

من قال : (أو) بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين ، أو الابهام عليهم ، ليس بشيء ، فإن الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم ، لا يريد التشكيك والابهام .

والمقصود ، تفهيم المؤمنين حالهم ، ويدل على ذلك أنه قال في المثل الا ل : (صم بكم عمي)[1] وقال في الثاني : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير)[2] فبين في المثل الثاني ، أنهم يسمعون ويبصرون ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، وفي الاول ، كانوا يبصرون ، ثم صاروا في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي . وفي الثاني ، إذا أصابهم البرق مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، فلهم حالان : حال ضياء ، وحال ظلام ، والاولون بقوا في الظلمة ، فالاول حال من كان في ضوء ، فصار في ظلمة ، والثاني حال من لم يستقر لا في ضوء ولا في ظلمة ، بل تختلف عليه الاحوال التي توجب مقامه واسترابته .

يبين هذا أنه سبحانه ضرب للكفار أيضاً مثلين بحرف (أو) فقال : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)[3] فالاول مثل الكفر الذي يحسب صاحبه أنه على حق ، وهو على باطل ، كمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإنه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم ، فلهذا مثل بسراب بقيعة ، والثاني مثل الكفر

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١ٸ (٢) سورة البقرة ، الآيتان : ١٩، ٢٠

(٣) سورة النور الآيتان : ٣٩، ٤٠

الذي لا يعتقد صاحبه شيئا ، بل هو في ظلمات بعضها فوق بعض ، من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد أنه على حق ، بل لم يزل جاهلا ضالا في ظلمات متراكمة .

وأيضا ، فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفا بهذا الوصف ، فيكون التقسيم في المثلين لنوع الأشخاص ، ولتنوع أحوالهم ، وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل ، هو مماثل لما ضرب له هذا المثل ، لاختلاف المثلين صورة ومعنى ، ولهذا لم يضرب للايمان إلا مثل واحد ، لأن الحق واحد ، فضرب مثله بالنور ، وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له . كالسراب بالقيعة ، أو بالظلمات المتراكمة ، وكذلك المنافق ؛ يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمي ، أو هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به . فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا ، وهـــذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسيرة ، أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا ، وكان يجري ذلك لأسباب : منها أمر القبلة لما حولت ، ارتد عن الايمان لاجل ذلك طائفة ، وكانت محنة امتحن الله بها الناس ، قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبية)[1] قال : أي إذا حولت ؛ والمعنى أن الكعبة هي القبلة التي كان في علمنا أن نجعلها قبلتكم ، فإن الكعبة ومسجدها وحرمها ، أفضل بكثير من بيت المقدس ، وهي البيت العتيق ، وقبلة ابراهيم وغيره من الأنبياء ، ولم يأمر الله قط أحداً ان يصلي إلى بيت المقدس ، لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما ، فلم نكن لنجعلها قبلة دائمة ، ولكن جعلناها أولاً قبلة لنمتحن بتحويلك منها الناس فيتبين من يتبع الرسول ، ممن ينقلب على عقبيه ، فكان في شرعها هذه الحكمة .

وكذلك أيضا لما انهزم المسلمون يوم أحد وشج وجه النبي ﷺ وكسرت رباعيته ، ارتد طائفة نافقوا ، قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون إن

---

(٤) سورة البقره ، الآية : ١٤٣

كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثـله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنو ويمحق الكافرين) [١] وقال تعالى : (وما أصابـكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) [٢] فقوله : (وليعلم الذين نافقوا) [٢] ظاهر فيمن أحدث نفاقاً وهو يتناول من لم ينافق قبل، ومن نافق ثم جدد نفاقا ثانيا . وقوله : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) [٢] يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم ، بل إما ان يتساويا ، واما ان يكونوا للايمان أقرب ، وكذلك كان ، فإن ابن أبيّ لما انخزل عن النبي ﷺ يوم أحد . انخزل ثلث الناس قيل : كانوا نحو ثلاثمائة ، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن ، إذ لم يكن لهم داع إلى النفاق ، فإن ابن أبي كان مظهراً لطاعة النبي ﷺ والايمان به ، وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد يأمر باتباع النبي ﷺ ولم يكن مافي قلبه يظهر إلا لقليل من الناس إن ظهر ، وكان معظما في قومه ، كانوا قد عزموا على أن يتوّجوه ، ويجعلوه مثل الملك عليهم ، فلما جاءت النبوة بطل ذلك ، فحمله الحسد على النفاق ، وإلا فلم يكن هو في الباطل على دين يدعو اليه ، وانما كان هذا في اليهود ، فلما جاء النبي ﷺ بدينه وقـد ظهر حسنه ونوره ، مالت اليه القلوب لاسيما لما نصره الله يوم بدر ، ونصره من يهود بني قينقاع ، صار معه الدين والدنيا ، فكان المقتضي للأيمان في عامة الانصار قائما ، وكان كثير منهم يعظم ابن أبي تعظيما كثيرا ويواليه ،

---

(١) سورة ال عمران ، الآيا : ١٣٩ ، ١٤١

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧

ولم يكن ابن أبيّ أظهر مخالفة توجب الامتياز ، فلما انخزل يوم أحد وقال : يدع رأيي ورأيه ، ويأخذ برأي الصبيان ، أو كما قال،انخزل معه خلق كثير ، منهم من لم ينافق قبل ذلك .

وفي الجملة : في الأخبار ممن نافق بعد ايمانه مايطول ذكره هنا ، فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذي يثابون عليه ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان، ولا من المنافقين حقا الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة ،وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا ، وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيرا وينافق كثير منهم.ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا مافيه عبرة . وإذا كانت العافية ، او كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين . وهم مؤمنون بالرسول باطنا وظاهراً لكن ايماناً لايثبت على المحنة .

ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا : (آمنا) فقيل لهم : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)[1] أي الايمان المطلق ، الذي أهله هم المؤمنون حقاً ، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ،ولهذا قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[2] فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب ، والريب يكون في علم القلب ، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم ، ولهـذا ، لايوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً ، فإذا كان عالماً بالحق ، ولكن المصيبة أو الخوف

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٥

أورثه جزعاً عظيماً، لم يكن صاحب يقين ، قال تعالى: (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)[1].

وكثيراً ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ، ثم يتوب الله عليه ؛ وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ، ويدفعه الله عنه ، والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان ، وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره ، كما قالت الصحابة: يارسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض ، أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «ذاك صريح الإيمان »[2] وفي رواية: « مايتعاظم أن يتكلم به » قال: « الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسه »[3] اي حصول هذا الوسواس ، مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب ، هو من صريح الإيمان ، كالمجاهد الذي جاءه العدو ، فدافعه حتى غلبه ؛ فهذا عظيم الجهـــاد ، والصريح الخالص كاللبن الصريح . وإنما صار صريحاً ، لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها ، فخلص الايمان فصار صريحاً .

ولا بد لعـامة الخلق من هذه الوساوس ، فمن الناس من يجيبها فيصير كافراً أو منافقاً ، ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يجيبها إلا إذا طلب الدين، فإما أن يصير مؤمناً وإما أن يصير منافقاً ؛ ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة مالا يعرض لهم إذا لم يصلوا ، لان الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به ، فلهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم ، ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر ممايعرض للعامة ، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم ، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه ، بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه . وهذا مطلوب الشيطان، بخلاف المتوجهين إلى

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ١١

(٢) رواه أحمد (٢/٣٩٧) ومسلم (١/٨٣) نحوه من حديث أبي هريرة .

(٣) رواه احمد (١/٢٣٥) بسند صحيح عن ابن عباس ، وأبو داود نحوه .

ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله. قال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً)[1] ولهذا أمر قارىء القرآن ، أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به ، تورث القلب الإيمان العظيم ، وتزيده يقينا وطمانينة وشفاء ، وقال تعالى : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولايزيد الظالمين إلا خسارا)[2] وقــال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)[3] وقال تعالى .(هدى للمتقين)[4] وقال تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون)[5] .

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه ، فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن ؛ فأمر الله القارىء إذا قرأ القرآن، أن يستعيذ منه. قال تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)[6] فإن المستعيذ بالله ، مستجير به ، لاجىء إليه ، مستغيث به من الشيطان ، فالعائذ بغيره مستجير به ؛ فإذا عاذ العبد بربه متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ؛ ولذلك قال الله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)[7]

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال:«إني لأعلم كلمة لوقالها لذهب عنه مايجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير ، لئلا

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٦
(٢) سورة الاسراء ،الآية : ٨٢
(٣) سورة آل عمران : ١٣٨
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢
(٥) سورة التوبة ، الآية : ١٢٤
(٦) سورة النحل ، الآيات : ٩٨ – ١٠٠
(٧) سورة فصلت ، الآيات : ٣٤ – ٣٦

يعوقه عنه ،وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عند إرادة العبد للحسنات ، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ؛ولهذا قال النبي ﷺ :« لايزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»[1] ، فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر ، أو يمنعه من خير ، كما يفعل العدو مع عدوه

وكلما كان الانسان أعظم رغبة في العلم والعبادة ، وأقدر على ذلك من غيره ،بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ، ورغبته وإرادته في ذلك أتم ، كان مايحصل له إن سلمه الله من الشيطان أعظم ؛ وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم . ولهذا قال الشعبي: كل أمة علماؤها شرارها ، إلا المسلمين ، فإن علماءهم خيارهم .

وأهل السنة في الاسلام، كالاسلام في الملل ، وذلك أن كل أمة غير المسلمين،فهم ضالون ، وإنما يضلهم علماؤهم ، فعلماؤهم شرارهم ، والمسلمون على هدى ، وإنما يتبين الهدى بعلمائهم ، فعلماؤهم خيارهم ، وكذلك أهل السنة ، أئمتهم خيار الأمة ، وأئمة أهل البدع ، أضر على الأمة من أهل الذنوب . ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج ، ونهى عن قتال الولاة الظلمة ، وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة ،فصار يعرض لهم من الوساوس التي تضلهم -وهم يظنونها هدى ، فيطيعونها - مالايعرض لغيرهم ، ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى ، وينابيع العلم ؛ كما قال ابن مسعود لأصحابه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الحكمة ، سرج الليل ؛ جدد القلوب ، أحلاس البيوت ، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء ، وتخفون على أهل الأرض .

---

(١) اخرجه الشيخان

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث ، إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهـــل اللغة ولا غيرهم ؛ ولهذا قال الفقهاء : الاسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع ، كالصلاة والزكاة ؛ ونوع يعرف حده باللغـــة كالشمس والقمر ؛ ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ، ولفظ المعروف في قوله : (وعاشروهن بالمعروف) [1] ونحو ذلك .

وروي عن ابن عباس أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب ، فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك ، قد بين الرسول ﷺ ما يراد بها في كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبي ﷺ لم يقبل منه ، وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها ، فذاك من جنس علم البيان . وتعليل الأحكام ، هو زيادة في العلم ، وبيـــان حكمة ألفاظ القرآن ؛ لكن معرفة المـراد بها لا يتوقف على هذا .

واسم الايمـــان والاسلام والنفاق والكفر ، هي أعظم من هذا كله ؛ فالنبي ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٩

وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هـذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ،فإنه شاف كاف ؛ بل معاني هذه الاسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل مـاتقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان ،علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً ، ويعلم أنه لو قدر أن قوماً قالوا للنبي ﷺ : نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ؛ ونقر بألسنتنا بالشهادتين ، إلا أنا لانطيعك في شيء ممـا أمرت به ونهيت عنه ، فلا نصلي ولانصوم ولانحج ،ولا نصدق الحديث ، ولانؤدي الأمانة ، ولا نفي بالعهد ؛ ولا نصل الرحم ، ولانفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به ، ونشرب الخمر ؛ وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ، ونأخذ أموالهم ، بل نقتلك أيضا ونقاتلك مع أعدائك ؛ هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم : أنتم مؤمنون كاملوا الايمان ، وأنتم من أهل شفاعتي يو القيامة ، ويرجى لكم أن لايدخل أحد منـكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك .

وكذلك كل مسلم ، يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق ، لم يكن النبي ﷺ يجعلهم مرتدين يجب قتلهم ، بل القرآن والنقل المتواتر عنه ، يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الاسلام ، كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني ، وقطع السارق ، وهذا متواتر عن النبي ﷺ ولو كانوا مرتدين لقتلهم ، فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عله وسلم .

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل ، لانهم أعرضوا عن هـــذه الطريق ، وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها ، إما في دلالة الألفاظ ،

وإما في المعاني المعقولة ، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ، فإنها تكون ضلالاً ، ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين ؛ وكذلك ذكر في رسالته إلى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة ، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين، لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ؛ ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التى مضمونها أنه يقول على الله ورسوله مالا يعلم ، أو غير الحق ، وهذا مما حرمه الله ورسوله . وقال تعالى في الشيطان : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)[1] وقال تعالى : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق)[2] وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[3] .

مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله ، أخذوا يتكلمون في مسمى الايمان والاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها ، مثل أن يقولوا : الايمان في اللغة ، هو التصديق ، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها ، فيكون مراده بالإيمان التصديق ؛ ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان ، أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان ، ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله : (وما أنت

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٩ (٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٦٩

(٣) هذا الحديث لا وجود له بهذا اللفظ ، وانما هو مركب من حديثين ، الاول عن ابن عباس بلفظ: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . والآخر عن جندب بلفظ: « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » . وكلا الحديثين ضعيف

بمؤمن لنا) [1] أي بصدق لنا .

فيقال لهم : اسم الايمان قدتكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ ، وهو أصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالي ومن يعادي ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك ، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا ، ووكله إلى هاتين المقدمتين . ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن ؛ ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة ، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفة جميع الأمة فينقلونه ، بخلاف كلمة من سورة ، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة ، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات ، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم ، وسلكوا السبل ، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، فهذا كلام عام مطلق .

ثم يقال : هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة ، فمن الذي قال : إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق ؟ وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع ، فلم قلت : إنه يوجب الترادف ؟ ولو قلت : ما أنت بمسلم لنا ، ما أنت بمؤمن لنا ، صح المعنى ، لكن لم قلت : إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن ؟ وإذا قال الله :(أقيموا الصلاة). ولو قال القائل : أتموا الصلاة ، ولازموا الصلاة ، التزموا الصلاة ، افعلوا الصلاة ، كان المعنى صحيحاً .لكن لا يدل هذا على معنى :أقيموا . فكون اللفظ يرادف اللفظ ، يراد دلالته على ذلك .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٧

ثم يقال : ليس هو مرادفاً له ، وذلك من وجوه : أحدها : أن يقال للمخبر إذا صدقه : صدقه، ولا يقال : آمنه وآمن به . بل يقال : آمن له، كما قال : (فآمن له لوط)[1] وقال : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه)[2] وقال فرعون : (آمنتم له قبل أن آذن لكم)[3] وقالوا لنوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون)[4] وقال تعالى : (قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)[5] . (فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون)[6] وقال : (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون)[7] .

فإن قيل : فقد يقال : ما أنت بمصدق لنا . قيل : اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله ، إما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدراً ، أو باجتماعهما ، فيقال : فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ، ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل : هو عابد لربه متق لربه ، خائف لربه ، وكذلك تقول : فلان يرهب الله ثم تقول : هو راهب لربه ، وإذا ذكرت الفعل وأخرته ، تقويه باللام ، كقوله : (وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[8] وقد قال : (فإياى فارهبون)[9] فعداه بنفسه ، وهناك ذكر اللام، فإن هنا قوله :(فإياى) أتم من قوله : فلي . وقوله . هنالك(لربهم) أتم من قوله : ربهم ، فإن الضمير المنفصل المنصوب ، أكمل من ضمير الجر بالياء ، وهناك اسم ظاهر ، فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ؛ ومن هذا قوله : (إن كنتم للرؤيا تعبرون)[10] ويقال : عبرت رؤياه ، وكذلك قوله : (وإنهم لنا

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦
(٢) سورة يونس ، الآية : ٨٣
(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٤٩
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ١١١
(٥) سورة التوبة ، الآية: ٦١
(٦) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٧
(٧) سورة الدخان ، الآية : ٢١
(٨) سورة الأعراف ، الآية: ١٥٤
(٩) سورة النحل ، الآية : ٥١
(١٠) سورة يوسف ، الآية : ٤٣

لغافظون)[1] وإنما يقال : غظته ، لا يقال : غظت له ، ومثله كثير ، فيقول القائل : ما أنت بمصدق لنا ، أدخل فيه اللام ، كونه اسم فاعل ، وإلا فإنما يقال : صدقه ، لايقال : صدقت له ؛ ولو ذكروا الفعل ، لقالو : ما صدقتنا ، وهذا بخلاف لفظ الإيمان ، فإنه تعدى إلى الخبر باللام دائماً ؛ لا يقال : آمنته قط ، وإنما يقال : آمنت له ، كما يقال : أقررت له ، فكان تفسيره بلفظ الاقرار ؛ أقرب من تفسيره بلفظ التصديق ، مع أن بينهما فرقا .

الثاني : أنه ليس مرادفاً للفظ التصديق في المعنى ، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة : صدقت ، كما يقال : كذبت. فمن قال : السماء فوقنا، قيل له : صدق كما يقال : كذب ، وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب ، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة ؛ كقوله : طلعت الشمس ؛ وغربت ، أنه يقال : آمنا ، كما يقال : صـــدقناه ، ولهذا ، المحدثون والشهود ونحوهم ، يقال : صدقناهم ، وما يقال : آمنا لهم ؛ فإن الإيمان مشتق من الأمن ، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر ، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر ، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له ، إلا في هذا النوع ؛ والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء ، يقال : صدق احدهما صاحبه ، ولا يقال : آمن له ، لأنه لم يكن غائباً عنه ، ائتمنه عليه، ولهذا قال : (فآمن له لوط)[2] (أنؤمن لبشرين مثلنا)[3] . (آمنتم له)[4] . (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)[5] فيصدقهم فيما أخبروا به . مما غاب عنه ، وهو مأمون عنده على ذلك ، فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة ؛ كما يدل

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٥٥

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦

(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٧

(٤) سورة طه ، الآية : ٧١

(٥) سورة التوبة ، الآية : ٦١

عليه الاستعمال والاشتقاق ، ولهذا قالوا : (ما أنت بمؤمن لنا) [1] اي لا تقر بخبرنا ، ولا تثق به ، ولا تطمئن إليه ، ولو كنا صادقين ، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك . فلو صدقوا لم يأمن لهم .

الثالث : أن لفظ الإيمان في اللغة ، لم يقابل بالتكذيب ، كلفظ التصديق ؛ فإنه من المعلوم في اللغة ان كل مخبر يقال له : صدقت أو كذبت ، ويقال : صدقناه ، أو كذبناه ، ولا يقال لكل مخبر : آمنا له أو كذبناه ؛ ولا يقال : أنت مؤمن له ؛ او مكذب له ؛ بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر . يقال : هو مؤمن او كافر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ؛ بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق ، لكن لا أتبعك ، بل أعاديك وأبغضك ، وأخالفك ، ولا أوافقك ، لكان كفره أعظم ، فلو كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط ، علم ان الايمان ليس هو التكذيب فقط ، بل إذا كان الكفر ، يكون تكذيباً ، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب ؛ فلا بد أن يكون الايمان تصديقاً ، مع موافقة وموالاة وانقياد ، لا يكفي مجرد التصديق ؛ فيكون الاسلام جزء مسمى الإيمان ، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق ، جزء مسمى الكفر ، فيجب ان يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر ، وهذا هو العمل .

فإن قيل : فالرسول ﷺ فسر الايمان بما يؤمن به .

قيل : فالرسول ذكر ما يؤمن به ، لم يذكر ما يؤمن له ؛ وهو نفسه يجب ان يؤمن به ويؤمن له ، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا بها ، وليس

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٧

كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه ، وأما ما يجب من الايمان له ، فهو الذى يوجب طاعته ، والرسول يجب الايمان به وله ؛ فينبغى ان يعرف هذا ، وأيضا فإن طاعته طاعة لله ، وطاعة الله من تمام الايمان به.

الرابع : أن من الناس من يقول : الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف ؛ فآمن ، أي صار داخلا في الأمن ، وأنشدوا ...[1]

واما المقدمة الثانية فيقال : إنه إذا فرض أنه مرادف للتصديق ، فقولهم : إن التصديق لا يكون إلا بالقلب او اللسان ، عنه جوابان ، أحدهما : المنع ، بل الافعال تسمى تصديقا ، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال : «العينان تزنيان وزناهما النظر ؛ والاذن تزني وزناها السمع ؛ واليد تزني وزناها البطش ؛ والرجل تزني وزناها المشي ؛ والقلب يتمنى ذلك ويشتهي ؛ والفرج يصدق ذلك او يكذبه » . وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف . قال الجوهري : والصدّيق مثال الفسّيق : الدائم التصديق . ويكون الذي يصدق قوله بالعمل ، وقال الحسن البصرى : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في القلوب ، وصدقته الاعمال ؛ وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدوري : حدثنا حجاج ، حدثنا أبو عبيدة الناجي ، عن الحسن قال : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني . ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال . من قال حسنا وعمل غير صالح ، رد الله عليه قوله ؛ ومن قال حسنا وعمل صالحا ، رفعه العمل ؛ ذلك بأن الله يقول : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) [2] ورواه ابن بطة من الوجهين . وقوله : ليس الايمان بالتمني – يعني الكلام وقوله : بالتحلي . يعني

---

(١) بياض في الاصول كلها

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠

أن يصير حلية ظاهرة له ، فيظهره من غير حقيقة من قلبه ، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ، ولا من الحلية الظاهرة ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال ، فالعمل يصدق أن في القلب إيمانا ، وإذا لم يكن عمل ، كذب أن في قلبه إيمانا ؛ لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر . وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزي بإسناده ، أن عبد الملك بن مروان ، كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل . فأجابه عنها : سألت عن الايمان ، فالايمان هو التصديق، أن يصدق العبد بالله وملائكته ، وما أنزل من كتاب ، وما أرسل من رسول ، وباليوم الآخر . وسألت عن التصديق ، والتصديق : أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه ،عرف أنه ذنب ، واستغفر الله وتاب منه ، ولم يصر عليه ، فذلك هو التصديق . وتسأل عن الدين ، فالدين : هو العبادة، فإنك لن تجد رجلا من أهل الدين ، ترك عبادة أهل دين ، ثم لا يدخل في دين آخر إلا صار لا دين له . وتسأل عن العبادة ، والعبادة هي الطاعة ، ذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه ، فقد آثر عبادة الله ، ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله ، فقد عبد الشيطان ؛ ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) [1] وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم . وقال أسد بن موسى : حدثنا الوليد بن مسلم الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية قال : الإيمان في كتاب الله صار إلى العمل . قال الله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) [2] الآية ؛ ثم صيرهم إلى العمل فقال : (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) [3] قال :

---

(١) سورة ياسين ، الآية : ٦٠ (٢) سورة الأنفال ، الاية : ٢

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٣

وسمعت الأوزاعي يقول : قال الله تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فإخوانكم في الدين) [١] والإيمان بالله باللسان ، والتصديق به العمل .

وقال معمر عن الزهري : كنا نقول : الاسلام بالاقرار ، والإيمان بالعمل ، والايمان : قول وعمل قرينان ، لا ينفع أحدهما إلا الآخر ؛ وما من أحد إلا يوزن قوله وعمله ، فإن كان عمله ، أوزن من قوله،صعد إلى الله ، وإن كان كلامه أوزن من عمله لم يصعد إلى الله . ورواه أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف . وقال معاوية ابن عمرو : عن أبي إسحاق الفزاري عن الأوزاعي قال : لا يستقيم الايمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الايمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الايمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة .

وكان من مضى من سلفنا ، لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، العمل من الإيمان والإيمان من العمل ؛ وإنما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الاديان اسمها ، ويصدقه العمل . فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها . ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله ، كان في الآخرة من الخاسرين . وهذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف ، أنهم يجعلون العمل مصدقا للقول ؛ ورووا ذلك عن النبي ﷺ كما رواه معاذ بن أسد : حدثنا الفضيل بن عياض ، عن ليث بن أبي سليم [٢] ، عن مجاهد ، أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : الإيمان : الاقرار والتصديق بالعمل ، ثم تلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) إلى قوله (وأولئك هم المتقون) [٣] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١

(٢) قلت : وهو ضعيف،وقدتابعهعبدالكريم الجزري عن مجاهد ،أخصرمنه .وقد مضى قبل ستة فصول

(٣) سورة البقرة ، الاية : ١٧٧

قلت حديث أبي ذر هذا مروي من غير وجه ، فإن كان هذا اللفظ ، هو لفظ الرسول ، فلا كلام ، وإن كانوا رووه بالمعنى ، دل على أنه من المعروف في لغتهم أنه يقال : صدق قوله بعمله ، وكذلك قال شيخ الإسلام الهروي : الإيمان تصديق كله .

وكذلك الجواب الثاني ، أنه إذا كان أصله التصديق ، فهو تصديق مخصوص ، كما أن الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص ، والصيام إمساك مخصوص ، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الاطلاق ؛ فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ، ويبقى النزاع لفظياً : هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم ؟

ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي ، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء ، كحماد بن أبي سليمان ، وهو أول من قال ذلك ، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم ، متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، وإن قالوا : إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل فهم يقولون : إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب ، كما تقوله الجماعة . ويقولون أيضاً بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة ، والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد في النار . فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها ، ولا يخلد منهم فيها أحد ، ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ؛ ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج ، والمعتزلة ، وقول غلاة المرجئة الذين

يقولون : ما نعلم أن أحداً منهم يدخل النار ؛ بل نقف في هذا كله .

وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي العام ، ويقال للخوارج : الذي نفي عن السارق والزاني والشارب وغيرهم ، الإيمان ، وهو لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام ، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ، ولم يقتل أحداً إلا الزاني المحصن ، ولم يقتله قتل المرتد ، فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة ، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة ، فدل ذلك على أنه وإن نفي عنهم الايمان ، فليسوا عنده مرتدين عن الاسلام مع ظهور ذنوبهم ، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، فأولئك لم يعاقبهم إلا على ذنب ظاهر .

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس ، هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن م بماها في اللغة ، أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة ، لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء . وهكذا قالوا في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج : إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي ، لكن ز'د في أحكامها . ومقصودهم أن الايمان هو مجرد التصديق ، وذلك يحصل بالقلب واللسان . وذهبت طائفة ثالثة إلى ان الشارع تصرف فيها تصرف اهل العرف ، فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز ، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق ان الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة ، كما يستعمل نظائرها ، كقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت) [1] فذكر حجاً خاصاً ، وهو حج البيت ، وكذلك قوله : (فمن حج البيت أو اعتمر) [2] فلم يكن لفظ الحج متناولاً لكل قصد ، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير

---

(١) سورة آل عمران الاية : ٩٧ (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٨

اللغة ، والشاعر إذا قال :

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة ... يحجون سِب[1] الزبرقان المزعفرا

كان متكلماً باللغة ، وقد قيل : لفظه: يحج سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الإضافه، فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام : فإذا قيل : الحج فرض عليك، كانت لام العهدتين أنه حج البيت وكذلك الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها ؛ والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس ؛ كما قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[2] وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به. قال تعالى . (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً)[3] وأصل زكاتها بالتوحد وإخلاص الدين لله ؛ قال تعالى:(وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة)[4] وهي عند المفسرين التوحيد .

وقد بين النبي ﷺ مقدار الواجب ، وسماها الزكاة المفروضة ؛ فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد ، ومن الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه وينسبون ذلك إلى الشارع ، مثل لفظ التيمم ، فإن الله تعالى قال : (فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) [5] فلفظ التيمم استعمل في معناه المعروف في اللغة ، فإنه أمر بتيمم الصعيد ثم أمر بمسح الوجوه والأيدي منه ؛ فصار لفظ التيمم في عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح ؛ وليس هو لغة الشارع ، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده ، ولفظ الإيمان أمر به مقيداً بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك لفظ الاسلام بالاستسلام، لله رب العالمين؛ وكذلك لفظ

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : السب : العمامة ، وهذا البيت من قول المخبل السعدي

(٢) سورة التوبة ، الاية : ١٠٣

(٣) سورة النور ، الآية : ٢١

(٤) سورة السجدة ، الايتان : ٦، ٧

(٥) سورة المائدة ، الاية : ٦

الكفر مقيداً ، ولكن لفظ النفاق قد قيل : إنه لم تكن العرب تكلمت به، لكنه مأخوذ من كلامهم ، فإن نفق يشبه خرج، ومنه نفقت الدابة إذا ماتت، ومنه نافقاء اليربوع ،والنفق في الأرض قال تعالى: (فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض)[1] فالمنافق هو الذي خرج من الإيمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهراً ؛ وقيد النفاق بأنه نفاق من الإيمان ، ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه ، لكن النفاق الذي في القرآن هو النفاق على الرسول ، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا

وقد بين الرسول تلك الخصائص، والاسم دل عليها،فلا يقال: إنها منقولة ، ولا إنه زيد في الحكم دون الاسم ؛ بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع ، لم يستعمل مطلقاً ، وهو إنما قال :(أقيموا الصلاة) بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها ، فكان التعريف منصرفاً إلى الصلاة التي يعرفونها ، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه . ولهذا قال : من قال في لفظ الصلاة : إنه عام للمعنى اللغوي ، أو إنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك ، فأقوالهم ضعيفة ، فإن هذا اللفظ إنما ورد خبراً أو أمراً ،فالخبر كقوله : (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)[2] وسورة (اقرأ)من أول ما نزل من القرآن ، وكان بعض الكفار إما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقال : لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه ، فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه ، فإذا قيل : (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)[2] فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ، ولا عموم.

ثم إنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي ﷺ لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم،وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ ، والمسلمون يأتمون بالنبي ﷺ ، فإذا

---

(١) سورة الانعام ، الاية : ٣٥ (٢) سورة العلق ، الايتان : ٩ , ١٠

قيل لهم : (أقيموا الصلاة) عرفوا أنها تلك الصلاة ، وقيل : إنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار ، فكانت أيضاً ، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء إلا ومسماه معلوم عندهم . فلا إجمال في ذلك ، ولا يتناول كل ما يسمى حجاً ودعاءاً وصوماً ، فإن هذا إنما يكون إذا كان اللفظ مطلقاً ، وذلك لم يرد.

وكذلك الإيمان والاسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور ، وإنما سأل جبريل النبي ﷺ عن ذلك وهم يسمعون وقال : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » [1] ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التي ينبغي أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها ، وهذا كما في الحديث الصحيح أنه قال : « ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غناء يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » [2] فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج ، وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال ، فبين النبي ﷺ أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء الناس له ، والسؤال له بمنزلة الحرفة ، وهو وإن كان مسكيناً يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته ، فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكيناً ، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى . فهذا هو الذي يجب أن يقدم في العطاء ، فإنه مسكين قطعاً ، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله ، وكذلك قوله : « الاسلام هو الخمس » ، يريد أن هذا كله واجب داخل في الاسلام ، فليس للانسان أن يكتفي بالاقرار بالشهادتين ؛ وكذلك الايمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل ، لا يكتفى فيه بالايمان المجمل ، ولهذا وصف الاسلام بهذا .

---

(١) رواه مسلم　　　　(٢) متفق عليه

وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، وأما الأعمال الأربعة فاختلفوا في تكفير تاركها ، ونحن إذا قلنا : أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب ، فإنما يريد به المعاصي كالزنا والشرب ، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور . وعن أحمد : في ذلك نزاع ، وإحدى الروايات عنه : أنه يكفر من ترك واحدة منها ، وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب . وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط ، ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة ، والزكاة إذا قاتل الإمام عليها ، ورابعة : لا يكفر إلا بترك الصلاة . وخامسة : لا يكفر بترك شيء منهن . وهذه أقوال معروفة للسلف . قال الحكم بن عتيبة : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ، ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر . ومن ترك الحج متعمداً فقد كفر . ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر . وقال سعيد بن جبير : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر بالله ، وقال الضحاك : لا ترفع الصلاة إلا بالزكاة . وقال عبد الله بن مسعود : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له . رواهن أسد بن موسى .

وقال عبد الله بن عمرو : من شرب الخمر ممسياً أصبح مشركا ، ومن شربه مصبحاً أمسى مشركاً ، فقيل لإبراهيم النخعي : كيف ذلك ؟ قال : لأنه يترك الصلاة ، قال أبو عبد الله الأخنس في كتابه : من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الايمـــان . ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان ، كان في آخر الأمر بعد فرض الحج ، والحج إنما فرض سنة تسع أو عشر .

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة ، ومعلوم أن الرسول

صلى الله عليه وسلم لم يامر الناس بالايمان . ولم يبين لهم معناه إلى ذلك الوقت ، بل كانوا يعرفون أصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن من نفى عنه الرسول اسم الايمان أو الاسلام ، فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقي بعضها ، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون: إنه يكون في العبد إيمان ونفاق . قال أبو داود السجستاني : حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن أبي المقدام عن أبي يحي قال : سئل حذيفة عن المنافق.قال: الذي يصف الاسلام ولا يعمل به. وقال أبو داود:حدثنا عثمان ابن أبي شيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب أغلف، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر ،فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه ايمان ونفاق،فمثل الايمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ، ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم،فأيهما غلب عليه غلب[1] . وقد روي مرفوعاً ، وهو في «المسند» مرفوعاً [2] .

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان)[3] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب،فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب . وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن أبي جميلة عن عبد الله ابن عمرو بن هند عن علي بن أبي طالب قال : إن الايمان يبدو لمظة بيضاء في القلب ، فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضا ، حتى إذا استكمل الايمان ابيض القلب كله . وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً، حتى إذا استكمل النفاق اسودّ القلب ، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود ،

---

(١) وعلي هامش النسخة الهندية : بدل : غلب . كان الحكم له ، ولعلها أصح .
(٢) قلت : والمرفوع اسناده ضعيف ، والصحيح موقوف .
(٣) سورة آل عمران ، الاية : ١٦٧

وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . رواه أحمد وغير[1]

وهذا كثير في كلام السلف ، يثبتون[2] ان القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، فان النبي ﷺ ذكر شعب الايمان، وذكر شعب النفاق وقال :« من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها» وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ، ولهذا قال : «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان» فعلم أن من كان معه من الايمان أقل القليل لم يخلد في النار ، وأن كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب في النار على قدر مامعه من ذلك ، ثم يخرج من النار ، وعلى هذا فقوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)[3] نفى حقيقة دخول الايمان في قلوبهم ، وذلك لايمنع أن يكون معهم شعبة منه، كما نفاة عن الزاني والساق ، ومن لا يحب لأخيه مايحب لنفسه ، ومن لايأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره ،فإن في القرآن والحديث ممن نفي عنه الايمان لترك بعض الواجبات شيء كثير .

وحينئذ فنقول : من قال من السلف: أسلمنا، أي استسلمنا خوف السيف ، وقول من قال : هو الاسلام ، الجميع صحيح ، فإن هذا إنما أراد الدخول في الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون ، فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق ، وقد علم أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ،بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله أسود ، فهذا هـو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار ، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم ، ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله ، فان المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله ورسوله يقيناً ، وهذا مستند من قال : أنا مؤمن حقاً ، فإنه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم ، ولكن

---

(١) قلت : ورواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن ابن مسعود مرفوعاً ، وسنده ضعيف .

(٢) وعلى هامش النسخة الهندية :يبينون .　　(٣) سورة الحجرات ، الاية : ١٤

الإيمان ليس مجرد التصديق ، بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمال ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الإيمان ، وحب ما أمر الله به ، وبغض ما نهى عنه ، وهذا من أخص الأمور بالايمان ، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبة ، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمـــان .

ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب في نفسه لذلك الفعل ، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة أو حب الله الذي يغلبها ؛ لم يزن ، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)[1] فمن كان مخلصاً لله حق الاخلاص لم يزن ؛ وإنما يزني لخلوه عن ذلك ، وهـــذا هو الإيمان الذي ينزع منه ، لم ينزع منه نفس التصديق ؛ ولهذا قيل : هو مسلم وليس بمؤمن ؛ فإن المسلم المستحق للثواب لا بد أن يكون مصدقاً ، وإلا كان منافقاً ؛ لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ، ومثل خشية الله والاخلاص له في الأعمال والتوكل عليه ؛ بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول ، وهو مع ذلك يرائي بأعماله ، ويكون أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله ، وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الأمر في سورة براءة فقيل لهم : (إن كان اباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره إن الله

---

(١) سورة يوسف ، الاية : ٢٤

لا يهدي القوم الفاسقين) [١] ومعلوم أن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة .

وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؛ وإنما المؤمن من لم يرتب، وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان ، هو الذى نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق ، والتصديق من الإيمان ، ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله ، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيماناً البتة ، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس ، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية . قال الحميدي : سمعت وكيعاً يقول : أهل السنة يقولون : الايمان قول وعمل ، والمرجئة يقولون : الايمان قول . والجهمية يقولون : الايمان المعرفة ، وفي رواية أخرى عنه : وهذا كفر . قال محمد بن عمر الكلابي : سمعت وكيعاً يقول : الجهمية شر من القدرية ، قال: وقال وكيع : المرجئة : الذين يقولون : الاقرار يجزىء عن العمل ؛ ومن قال هذا فقد هلك ؛ ومن قال : النية تجزىء عن العمل، فهو كفر ، وهو قول جهم ؛ وكذلك قال أحمد بن حنبل.

ولهذا كان القول: إن الايمان قول وعمل عند أهل السنة، ومن شعائر السنة ، وحكى غير واحد الاجماع على ذلك ، وقد ذكرنا عن الشافعي رضي الله عنه ماذكره من الاجماع على ذلك قوله في «الأم» : وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون : إن الايمان قول وعمل ونية ، لا يجزىء واحد من الثلاثة إلا بالآخر ؛ وذكر ابن أبي حاتم في «مناقبه» : سمعت حرملة يقول : اجتمع حفص الفرد ومصلان الأباضي عند الشافعي في دار الجروي ، فتناظرا معه في الايمان

---

(١) سورة براءة ، الاية : ٢٤

فاحتج مصلان في الزيادة والنقصان ، يعني وخالفه حفص الفرد ، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، فطحن حفص الفرد ، وقطعه .

وروى أبو عمر الطلمنكي باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال : أملى علينا إسحاق بن راهويه أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، لا شك أن ذلك كما وصفنا ، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة ؛ وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ، وهلم جرا على ذلك ، وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه ، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام ، وسفيان الثوري بالعراق ؛ ومالك بن أنس بالحجاز ، ومعمر باليمن ، على ما فسرنا وبينا ، أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال إسحاق : من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقتها ، الظهر إلى المغرب ، والمغرب إلى نصف الليل ، فإنه كافر بالله العظيم ، يستتاب ثلاثة أيام ، فإن لم يرجع — وقال تركها — لا يكون كفراً ، ضربت عنقه ، يعني تاركها . وقال ذلك ، وأما إذا صلى وقال ذلك ، فهذه مسألة اجتهاد ، قال : واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم ، إلا من باين الجماعة واتبع الأهواء المختلفة ، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام الامام وله كتاب مصنف في الايمان ، قال : هذه تسمية من كان يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص . من أهل مكة : عبيد بن عمير الليثي ، عطاء بن أبي رباح ، مجاهد ، ابن جبراء بن أبي مليكة ، عمرو بن دينار ؛ ابن أبي نجيح ، عبيد الله بن عمر ؛ عبد الله بن عمرو بن عثمان ، عبد الملك بن جريج ، نافع بن جبير ؛ داود بن عبد الرحمن العطار ؛ عبد الله بن رجاء . ومن أهل المدينة : محمد بن شهاب الزهري ؛ ربيعة ابن أبي عبد الرحمن ، أبو حازم الأعرج ،

سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ، يحيي بن سعيد الأنصاري ، هشام بن عروة بن الزبير ، عبد الله بن عمر العمري ، مالك بن أنس ، محمد بن أبي ذئب ، سليمان بن بلال ، عبد العزيز بن عبد الله - يعني الماجشون - عبد العزيز بن أبي حازم .
ومن أهل اليمن : طاوس اليماني، وهب بن منبه، معمر بن راشد، عبد الرزاق بن همام.
ومن أهل مصر والشام : مكحول ، الأوزاعي ، سعيد بن عبد العزيز ، الوليد بن مسلم ، يونس بن يزيد الأيلي ، يزيد بن أبي حبيب ، يزيد بن شريح ، سعيد بن أيوب ، الليث بن سعد ، عبد الله بن أبي جعفر ، معاوية بن أبي صالح ، حيوة بن شريح ، عبد الله بن وهب . وممن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة : ميمون بن مهران، يحيي بن عبد الكريم ، معقل بن عبيد الله، عبيد الله بن عمرو الرقي ، عبد الملك بن مالك ، المعاذ بن عمران ، محمد بن سلمة الحراني ، أبو إسحاق الفزاري ، مخلد بن الحسين ، علي بن بكار ، يوسف بن أسباط ، عطاء بن مسلم ، محمد بن كثير ، الهيثم بن جميل . ومن أهل الكوفة : علقمة ، الأسود بن يزيد ، أبو وائل، سعيد بن جبير ، الربيع بن خيثم ، عامر الشعبي ، ابراهيم النخعي ، الحكم بن عيينة ، طلحة ابن مصرف ، منصور بن المعتمر ، سلمة بن كهيل ، مغيرة الضبي ، عطاء بن السائب ، إسماعيل بن أبي خالد ، أبو حيان ، يحيي بن سعيد ، سليمان بن مهران الأعمش ، يزيد بن أبي زياد ، سفيان بن سعيد الثوري ، سفيان بن عيينة ، الفضيل بن عياض ، أبو المقدام ، ثابت بن العجلان ، ابن شبرمة ، ابن أبي ليلى ، زهير، شريك بن عبد الله ، الحسن بن صالح ، حفص بن غياث ، أبو بكر بن عياش ، أبو الأحوص ، وكيع ابن الجراح ، عبد الله بن نمير ، أبو أسامة ، عبد الله بن ادريس ، زيد بن الحباب ، الحسين بن علي الجعفي ، محمد بن بشر العبدي ، يحيي بن آدم ، ومحمد ، ويعلى ، وعمرو بنو عبيد .

ومن أهل البصرة : الحسن بن أبي الحسن ، محمد بن سيرين ، قتادة بن دعامة ،

بكر بن عبد الله المزني ، أيوب السختياني ، يونس بن عبيد ، عبد الله بن عون ، سليمان التيمي ، هشام بن حسان الدستوائي ، شعبة بن الحجاج ، حماد بن سلمة ، حماد بن زيد ، أبو الأشهب ، يزيد بن إبراهيم ، أبو عوانة ، وهيب بن خالد ، عبد الوارث بن سعيد ، معتمر بن سليمان التيمي ، يحيى بن سعيد القطان ، عبد الرحمن بن مهدي ، بشر بن المفضل ، يزيد بن ذريع ، المؤمل بن إسماعيل ، خالد بن الحارث ، معاذ بن معاذ ، أبو عبد الرحمن المقري .

ومن أهل واسط : هشيم بن بشير ، خالد بن عبد الله ، علي بن عاصم ، يزيد ابن هارون ، صالح بن عمر ، عاصم بن علي .

ومن أهل المشرق : الضحاك بن مزاحم ، أبو جمرة ، نصر بن عمران ، عبد الله ابن المبارك ، النضر بن شميل ، جرير بن عبد الحميد الضبي .

قال أبو عبيد : هؤلاء جميعاً يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ؛ وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا .

قلت : ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم ، لأن الإرجاء في أهل الكوفة ، وكان أول من قاله حماد بن أبي سليمان ، فاحتاج علماؤها أن يظهروا إنكار ذلك ، فكثر منهم من قال ذلك ؛ كما أن التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان ، كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الانكار على الجهمية ما لم يوجد لمن لم تكن هذه البدعة في بلده ولا سمع بها ، كما جاء في حديث : « إن لله عند كل بدعة يكاد بها الاسلام وأهله من يتكلم بعلامات الاسلام ؛ فاغتنموا تلك المجالس ، فإن الرحمة تنزل على أهلها » أو كما قال .

وإذا كان من قول السلف : إن الانسان يكون فيه إيمان ونفاق ، فكذلك

في قولهم : إنه يكون فيه إيمان وكفر ، ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة ؛ كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1] قالوا : كفر لا ينقل عن الملة ، وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .

قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب « الصلاة » : اختلف الناس في تفسير حديث جبرائيل هذا ، فقال طائفة من أصحابنا : قول النبي ﷺ : « الايمان أن تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور ، وقد أوهمت المرجئة في تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلام النبي ﷺ الذي قد أعطي جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر له الحديث اختصاراً . أما قوله : « الايمان أن تؤمن بالله » فأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطاء العزم للأداء لما أمر ، مجانبا للاستنكاف والاستكبار والمعاندة ، فإذا فعلت ذلك لزمت محابه واجتنبت مساخطه ، وأما قوله : « وملائكته » فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه ، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم ، لا يعرف أساميهم وعددهم إلا الذي خلقهم . وأما قوله : « وكتبه » فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها ، وتؤمن بالفرقان ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب . إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان ، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله: « ورسله » فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله ، وتؤمن بأن

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ٤٤

لله سواهم رسلا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم ، وتؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل . إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم ، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائبا على ما جاء به ، فإذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات ، وسارعت في الخيرات ، وأما قوله : « واليوم الآخر » فأن تؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والميزان ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة . وأما قوله : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، فأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ، ولولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا . قال : فهذا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فصل

ومما يسأل عنه أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس ، فلماذا قال : الاسلام هذه الخمس ، وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الاسلام وأعظمها ، وبقيام العبد بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده .

والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً ، الذي

يجب لله عبادة محضة على الأعيان . فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين . وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب لمصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من إمارة ، وحكم ، وفتيا ، وإقراء وتحديث ، وغير ذلك . وإما أن يجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط بإسقاطه . وإذا حصلت المصلحة أو الابراء ، إما بإبرائه وإما بحصول المصلحة ، فحقوق العباد مثـــل قضاء الديون ، ورد الغصوب ، والعواري والودائع ، والانصاف من المظالم من الدماء والاموال والأعراض ، إنمـــا هي حقوق الآدميين ، وإذا أبرئوا منها سقطت . وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال ، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ، ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى ، بخلاف الخمسة فإنها من خصائص المسلمين .

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام ، وحقوق الزوجة ، والأولاد ، والجيران ، والشركاء ، والفقراء . وما يجب من أداء الشهادة ، والفتيا ، والقضاء ، والامارة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ، كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار ، لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب ، فمـــا كان مشتركا فهو واجب على الكفاية ، وما كان مختصاً فإنمـا يجب على زيد دون عمرو ، لا يشترك الناس في وجوب عمل بعينه على كل أحد قادر سوى الخمس ، فإن زوجة زيد وأقاربه ليس زوجة عمرو وأقاربه ، فليس الواجب على هذا مثل الواجب على هذا ، بخلاف صوم رمضان ، وحج البيت ، والصلوات الخمس ، والزكاة ، فإن الزكاة وإن كانت حقاً مالياً فإنها واجبة لله ، والأصناف الثمانية مصارفها ؛ ولهذا وجب فيها النية ، ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا إذنه ، ولم

تطلب من الكفار . وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ، ويطلب بها الكفار ، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد ، وفيها شوب العقوبات ، فإن الواجب لله ثلاثة أنواع : عبادة محضة كالصلوات ، وعقوبات محضة كالحدود ، وما يشبهها كالكفارات .

وكذلك كفارات الحج وما يجب بالنذر ، فإن ذلك يجب بسبب فعل من العبد ، وهو واجب في ذمته . وأما الزكاة فإنها تجب حقاً لله في ماله ، ولهذا يقال: ليس في المال حق سوى الزكاة [1] أي ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة ، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال، كما تجب النفقات للأقارب، والزوجة، والرقيق، والبهائم ، ويجب حمل العاقلة ، ويجب قضاء الديون ، ويجب الاعطاء في النائبة ، ويجب إطعام الجائع وكسوة العاري فرضا على الكفاية ، إلى غير ذلك من الواجبات المالية ، لكن بسبب عارض ، والمال شرط وجوبها، كالاستطاعة في الحج ، فإن البدن سبب الوجوب معه ، حتى لو لم يكن في بلده من يستحقها حملها إلى بلد أخرى ، وهي حق وجب لله تعالى ، ولهذا قال : من قال من الفقهاء : إن التكليف شرط فيها ، فلا تجب على الصغير والمجنون . وأما عامة الصحابة والجمهور ، كمالك والشافعي وأحمد ، فأوجبوها في مال الصغير والمجنون ، لأن مالهما من جنس مال غيرهما ووليهما يقوم مقامهما ، بخلاف بدنهما ، فإنه إنما يتصرف بعقلهما ، وعقلهما ناقص ؛ وصار هذا كما يجب العشر في أرضهما ، مع أنه إنما يستحقه الثمانية ؛ وكذلك إيجاب الكفارة في مالهما ؛ والصلاة والصيام إنما تسقط لعجز العقل عن الايجاب ، لا سيما إذا انضم إلى عجز البدن كالصغير . وهذا المعنى منتف في المال

---

(١) قلت: وقد روي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لايصح اسناده . ولعل المؤلف اشار الى ذلك بقوله : ويقال .

فان الولي قام مقامها في الفهم كما يقوم مقامها في جميع مايجب في المـــال ، وأما بدنها فلا يجب عليها فيه شيء ،

فصل

قال محمد بن نصر : واستدلوا على أن الايمان هو ماذكره بالآيات التي تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات إيماناً ، واستدلوا أيضاً بما قص الله من نبأ إبليس حين عصى ربه في سجدة واحدة أمر أن يسجدها لآدم فأباها ، فكيف جحد إبليس ربه وهو يقول : (رب بما أغويتني)[1] ؟! ويقول : (رب فأنظرني إلى يوم يبعثون)[2] إيماناً منه بالبعث ، إيمـاناً بنفاذ قدرته في إنظاره إياه إلى يوم يبعثون ، وهل جحد أحد من أنبيائه أو أنكر شيئاً من سلطانـه وهو يحلف بعزته ؟ ، وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها ؟، قال : واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ ابني آدم إذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر) إلى قوله : (فأصبح من الخاسرين)[3] قال : وهل جحد ربه ؟ وكيف يجحده وهو يقرب القربان ؟ قالوا : قال الله تعالى : (إنمـــا يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بهـــا خروا سجداً وسبحوا بحمـــد ربهم وهم لا

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٣٩ (٢) سورة الحجر الآية : ٣٦

(٣) سورة المائدة ، الآيات : ٣٠ - ٣٣

يستكبرون) [١] ولم يقل: إذا ذكروا بها أقروا بها ، فقط. وقال : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) [٢] يعني يتبعونه حق اتباعه ؟

فإن قيل : فهل مع ماذكرت من سنة ثابته تبين أن العمل داخل في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ؟. قيل : نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك ، منها حديث وفد عبد القيس ؛ وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن أبي جمرة عن ابن عباس كما تقدم ، ولفظه « آمركم بالإيمان بالله وحده ، ثم قال : « هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمس ماغنمتم » وذكر أحاديث كثيرة توجب دخول الأعمال في الإيمان مثل قوله في حديث [٥] لما سئل ﷺ [٣]

ثم قال أبو عبد الله محمد بن نصر : اختلف أصحابنا في تفسير قول النبي ﷺ : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فقالت طائفة منهم : إنما أراد النبي ﷺ إزالة اسم الايمان عنه من غير أن يخرجه من الإسلام، ولا يزيل عنه اسمه ، وفرقوا بين الإسلام والإيمان . بقوله : (قالت الاعراب آمنا)[٤] الآية ، فقالوا: الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد ، والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر ، واحتجوا بحديث سعد بن أبي وقاص ، وذكره عن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً . فقلت: يارسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً وهو مؤمن . فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلم » أعادها ثلاثا ، والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم » ثم قال : « إني لأعطي

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٥ (٢) سورة البقرة الآية : ١٢١

(٣) قلت لعل الأصل « ابى هريرة لما سئل صلى الله عليه وسلم : أي العمل أفضل ؟ قال إيمان بالله ورسوله.قيل: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله .قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور». رواه البخاري.

(٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٤

رجالاً وأمنع آخرين وهم أحب إلي منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم في النار»[١] قال الزهري : فنرى أن الإسلام الكلمة ، والايمان العمل .

قال محمد بن نصر : واحتجوا بانكار عبد الله بن مسعود على من شهد لنفسه بالايمان فقال : أنا مؤمن ، من غير استثناء ، وكذلك أصحابه من بعده ، وجل علماء الكوفة . واحتجوا بحديث أبي هريرة:« يخرج منه الإيمان فإن رجع رجع إليه» ، وبما أشبه ذلك من الأخبار، وبمارووي عن الحسن ومحمد بن سيرين أنهما كانا يقولان : مسلم، ويهابان: مؤمن ؛ واحتجوا بقول أبي جعفر الذي حدثناه اسحاق بن ابراهيم، أنبأنا وهب بن جرير بن حازم، حدثني أبي ، عن فضيل بن يسار ، عن أبي جعفر محمد ابن علي أنه سئل عن قول النبي ﷺ : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، فقال أبو جعفر : هذا الاسلام ودوَّر دارة واسعة ، وهذا الإيمان ودوَّر دارة صغيرة في وسط الكبيرة ، فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الاسلام ، ولا يخرجه من الاسلام إلا الكفر بالله . واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ قال :« أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ، حدثنا بذلك يحي بن يحيى، حدثنا ابن لهيعة، عن شريح ابن هانىء[٢] عن عقبة بن عامر الجهمي ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ».

وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الإيمان والاسلام ، فجعل الإيمان خاصاً والاسلام عاما . قال : فلنا في هؤلاء أسوة وبهم قدوة ، مع مايثبت

---

(١) أخرجه البخاري

(٢) كذا، والصواب مشرح بن هاعان ، فان الحديث انما يعرف عنه ، كذلك أخرجه الترمذي واحمد والروياني في« مسنديهما» من طرق عن ابن لهيعة عن مشرح به . وقال الترمذي: « غريب » لا نعرفه الا من حديث ابن لهيعة عن مشرح ، وليس اسناده بالقوي قلت : بل هو حسن ، فإن ابن لهيعة وان كان سيء الحفظ فصحيح الحديث اذا روى عنه العبادلة. وهم ابن ذهب، وابن يزيد المقري ، وابن المبارك، كما حققه ابن القيم في« إعلام الموقعين »، وهذا قد رواه عنه الاولان منهم ، فثبت الحديث والحمد لله

ذلك من النظر ، وذلك أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة ، أوجب عليه الجنة فقال : (وكان بالمؤمنين رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً)[1] وقال : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً)[2] وقال : (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم)[3] وقال : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم)[4] وقال : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)[5] وقال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار)[6] .

قال : ثم أوجب الله النار على الكبائر ، فدل بذلك على أن اسم الايمان زائل عمن أتى كبيرة . قالوا : ولم نجده أوجب الجنة باسم الاسلام ، فثبت أن اسم الاسلام له ثابت على حاله، واسم الايمان زائل عنه .

فإن قيل لهم في قولهم هذا : ليس الايمان ضد الكفر ،قالوا : الكفر ضد لأصل الايمان ، لأن للايمان أصلا وفروعاً ، فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الايمان الذي هو ضد الكفر . فإن قيل لهم : فالذي زعمتم أن النبي ﷺ أزال عنهم اسم الإيمان هل فيه من الايمان شيء ؟ قالوا : نعم أصله ثابت ، ولولا ذلك لكفروا . ألم تسمع إلى ابن مسعود أنكر على الذي شهد أنه مؤمن ثم قال : لكنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يخبرك أنه قد آمن من جهة أنه صدق ، وأنه لايستحق اسم المؤمن إذا كان يعلم أنه مقصر ،لأنه لايستحق هذا الاسم عنده إلا من أدى ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التي هي الكبائر

قالوا : فلما أبان الله أن هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة، وأن الله قد أوجب الجنة عليه . وعلمنا أنه قد آمنا وصدقنا، لأنه لايخرج من التصديق إلا بالتكذيب ؛ ولسنا بشاكين ولامكذبين، وعلمنا أنا عاصون له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذي حكم الله به للمؤمنين على اسم الايمان ؛ علمنا أنا قد آمنا ، وأمسكنا عن الاسم

---

(١) سورة الاحزاب ، الايتان ٤٣، ٤٤
(٢) سورة الاحزاب ، الاية : ٤٩
(٣) سورة يونس الاية : ٢
(٤) سورة الحديد ، الاية : ١٢
(٥) سورة البقرة ، الاية : ٢٥٧
(٦) سوره البقرة ، الاية : ٢٥

الذي أثبت الله عليه الحكم في الجنة وهو من الله اسم ثناء وتزكية ، وقد نهانا الله أن نزكي أنفسنا ، وأمرنا بالخوف على نفسنا ، وأوجب لنا العذاب بعصياننا ، فعلمنا أنا لسنا بمستحقين بأن نتسمى مؤمنين إذ أوجب الله على اسم الايمان الثناء والبركة والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة ، وأوجب على الكبائر النار ، وهذان حكمان متضادان .

فإن قيل : فكيف أمسكتم عن اسم الايمـان أن تسموا به ، وأنتم تزعمون أن أصل الايمان في قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق ، وما قاله صدق ؟ قالوا : إن الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء ، فسموا الزاني فاسقاً ، والقاذف فاسقاً وشارب الخمر فاسقاً ، ولم يسموا واحداً من هؤلاء متقياً ولا ورعاً ؛ وقد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقوى والورع ، وذلك أنه يتقي أن يكفر أو يشرك بالله شيئاً . وكذلك يتقي الله أن يترك الغسل من الجنـابة أو الصلاة ، ويتقي أن يأتي أمه ، فهو في جميع ذلك متق ، وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين أنهم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً إذا كان يأتي بالفجور ، فلما أجمعوا أن أصل التقى والورع ثابت فيه ، وأنه قد يزيد فيه فروعاً بعد الأصـل كتورعه عن إتيان المحارم ، ثم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً مع إتيانه بعض الكبائر ، بل سموه فاسقاً وفاجراً مع علمهم أنه قد أتى بعض التقى والورع ، فمنعهم من ذلك أن اسم التقى اسم ثناء وتزكية ، وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة .

قالوا : فلذلك لا نسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانيـاً ، وإن كان في قلبه أصل اسم الايمان ، لأن الايمان اسم أثنى الله به على المؤمنين وزكاهم به وأوجب عليه الجنة ، فمن ثم قلنا : مسلم ولم نقل : مؤمن ، قالوا : ولو كان أحد من المسلمين الموحدين يستحق أن لايكون في قلبه إيمان ولا إسلام لكان أحق الناس بذلك أهل النار الذين دخلوها ، فلما وجدنا النبي ﷺ يخبر أن الله يقول : « أخرجوا من

النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ثبت ان شر المسلمين في قلبه إيمـــان ، ولما وجدنا الأمة تحـكم عليه بالأحـــكام التي ألزمها الله للمسلمين ولايكفرونهم ، ولا يشهدون لهم بالجنة ، ثبت أنهم مسلمون إذ أجمعوا أن يمضوا عليهم أحكام المسلمين ، وأنهم لايستحقون أن يسموا مؤمنين إذ كان الاسلام ثبتاً للملة التي يخرج بها الانسان من جميع الملل فتزول عنه أسماء الملل لا اسم الاسلام وتثبت أحكام الاسلام عليه وتزول عنه احكام جميع الملل .

فإن قال لهم قائل : لم لم تقولوا: كافر إن شاء الله، تريدون به كمال الكفر ، كما قلتم : مؤمن إن شاء الله تريدون به كمال الايمان . قالوا : لأن الـكافر منكر للحق ، والمؤمن أصل إيمانه الاقرار ، والانـكار لا أول له ولا آخر فتنتظر به الحقائق ، والايمان أصله التصديق، والاقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لمـا صدق؛ ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل ، فسأل أحدهما حقه ، فقال : ليس لك عندي حق ، فأنكر وجحد، فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال إذا جحد وأنكر ، وسأل الآخر حقه فقال : نعم لك على كذا وكذا ، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيـــه ؛ فهو منتظر له أن يحقق ما قال بالأداء ، وتصديق إقراره بالوفاء ، ولو أقر ثم لم يؤد إليه حقه كان كمن جحده في المعنى إذا استويا في الترك للأداء ، فتحقيق ما قال أن يؤدي إليه حقه ، فإن أدى جزءاً منه حقق بعض ما قال ، ووفى ببعض ما أقر به ، وكلما أدى جزءاً ازداد تحقيقاً لمـا أقر به ، وعلى المؤمن الأداء أبداً بما أقر به حتى يموت ، فمن ثم قلنا : مؤمن إن شاء الله ولم نقل : كافر إن شاء الله .

قال محمد بن نصر : وقالت طائفة أخرى من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء ، إلا أنهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولا قراره بالله ، وبمـا قال ، ولم يسموه مؤمناً ، وزعموا أنهم مع تسميتهم إياه بالاسلام كافر ، لا كافر بالله ، ولكن

كافر من طريق العمل ، وقالوا : كفر لا ينقل عن الملة ؛ وقالوا : محال أن يقول النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » والكفر ضد الايمان ، فلا يزول عنه اسم الايمان إلا واسم الكفر لازم له ، لأن الكفر ضد الايمان ، إلا أن الكفر كفران : كفر هو جحد بالله وبما قال ، فذاك ضده الاقرار بالله والتصديق به وبما قال ، وكفر عمل هو فهو ضد الايمان الذي هو عمل ، ألا ترى إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » قالوا : فإذا لم يؤمن فقد كفر ، ولا يجوز غير ذلك إلا أنه كفر من جهة العمل ، إذ لم يؤمن من جهة العمل ، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويركب الكبائر إلا من قلة خوفه وقلة تعظيمه لله ووعيده ، فقد ترك من الايمان التعظيم الذي صدر عنه الخوف والورع عن الخوف[1] ، فأقسم النبي ﷺ أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه .

ثم قد روى جماعة عن النبي ﷺ أنه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[2] وأنه قال: « إذا قال المسلم لأخيه : يا كافر فلم يكن كذلك باء بالكفر »[3] فقد سماه النبي ﷺ بقتاله أخاه كافراً وبقوله له : يا كافر كافراً ؛ وهذه الكلمة دون الزنا، والسرقة، وشرب الخمر؛ قالوا : فأما قول من احتج علينا فزعم أنا إذا سميناه كافرا لزمنا أن يحكم عليه بحكم الكافرين بالله ، فنستتيبه ونبطل الحدود عنه ؛ لأنه إذا كفر فقد زالت عنه أحكام المؤمنين وحدودهم ، وفي ذلك إسقاط الحدود وأحكام المؤمنين على كل من أتى كبيرة ، فإنا لم نذهب في ذلك إلى حيث ذهبوا ولكنا نقول : للايمان أصل وفرع ، وضد الايمان الكفر في كل معنى ، فأصل الإيمان الاقرار والتصديق ، وفرعه إكمال العمل بالقلب والبدن ، فضد الاقرار والتصديق الذي هو أصل الايمان ، الكفر بالله وبما قال ، وترك التصديق به وله ، وضد الايمان

---

(١) اي صدر الورع عن الخوف .

(٢) اخرجه الشيخان (٣) اخرجه الشيخان

الذي هو عمل ، وليس هو إقرار ، كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة ، ولكن كفر تضييع العمل ، كما كان العمل إيماناً ، وليس هو الايمان الذي هو إقرار بالله ، فلما كان من ترك الايمان الذي هو إقرار بالله كافراً ، يستتاب ، ومن ترك الايمان الذي هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم ، أو ترك الورع عن شرب الخمر والزنا ، قد زال عنه بعض الايمان ، ولا يجب أن يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من أهل السنة وأهل البدع ممن قال : إن الايمان تصديق وعمل ، إلا الخوارج وحدها ، فكذلك لا يجب بقولنا : كافر من جهة تضييع العمل أن يستتاب ، ولا تزول عنه الحدود ، كما لم يكن بزوال الايمان الذي هو عمل استتابته ، ولا إزالة الحدود عنه ، إذ لم يزل أصل الايمان عنه ، فكذلك لا يجب علينا استتابته وإزالة الحدود والأحكام عنه باثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل ، إذا لم يأت بأصل الكفر الذي هو جحد بالله أو بما قال .

قالوا : ولما كان العلم بالله إيماناً ، والجهل به كفراً ، وكان العمل بالفرائض إيماناً ، والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ وقد اقروا بالله أول ما بعث الله رسوله ﷺ إليهم ، ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك ، فلم يكن جهلهم بذلك كفراً ، ثم أنزل عليهم الفرائض ، فكان إقرارهم بها والقيام بها إيماناً ، وإنما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ، ولو لم يأت خبر من الله ، ما كان بجهلها كافراً ، وبعد مجيء الخبر ، من لم يسمع بالخبر من المسلمين ، لم يكن بجهلها كافراً ، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر .

قالوا : ومن ثم قلنا : إن ترك التصديق بالله كفر ؛ وإن ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها ، كفر ، ليس بكفر بالله ، إنما هو كفر من جهة ترك الحق ،

كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي ؛ قالوا : ولنا في هذا قدوة بمن روي عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، إذ جعلوا للكفر فروعاً دون أصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام ، كما أثبتوا للايمان من جهة العمل فروعاً للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام ، من ذلك قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1] قال محمد بن نصر : حدثنا يحيي ، حدثنا سفيان بن عينية عن هشام يعني ابن ، حجير ، عن طاووس عن ابن عباس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1] وليس بالكفر الذي يذهبون إليه[2] .

حدثنا محمد بن يحيي ومحمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1] قال هي به كفر ، قال ابن طاووس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله[3] .

حدثنا إسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : هو به كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله[4] ، وبه أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : قلت لابن عباس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله)[1] فهو كافر . قال : هو به كفر ، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله[5] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٤

(٢) قلت : وهذا إسناد صحيح

(٣) إسناده صحيح أيضاً

(٤) صحيح أيضاً

(٥) صحيح

حدثنا محمد بن يحيي، حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجل عن طاووس عن ابن عباس قال : كفر لا ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن سعيد المكي عن طاووس قال: ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق أنبأنا وكيع عن ابن جريج عن عطاء قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر : قالوا : وقد صدق عطاء ، قد يسمى الكافر ظالماً ، ويسمى العاصي من المسلمين ظالماً ، فظلم ينقل عن ملة الاسلام ، وظلم لا ينقل . قال الله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [1] وقال : (إن الشرك لظلم عظيم) [2] وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [1] شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينالم يظلم نفسه ؟ قال رسول الله ﷺ ليس بذلك . ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم) [2] إنما هو الشرك .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد[3] عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذ دخل بيته نشر المصحف فقرأ ، فدخل ذات يوم فقرأ ، فأتى على هذه الآيه (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [1] إلى آخر الآية، فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى إلى أبيّ بن كعب

---

(١) سورة الانعام ، الاية : ٨٢ (٢) سورة لقمان ، الاية : ١٣

(٣) هو ابن جدعان ، وفيه ضعف

فقال : يا با المنذر أتيت قبل على هذه الآية(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)[١] وقد ترى أنا نظلم ونفعل. فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك ، يقول الله : (إن الشرك لظلم عظيم) [١] إنما ذلك الشرك .

قال محمد بن نصر : وكذلك الفسق فسقان : فسق ينقل عن الملة، فيسمى الكافر فاسقا ، والفاسق من المسلمين فاسقاً ، ذكر الله إبليس فقال : (ففسق عن أمر ربه)[٢] وكان ذلك الفسق منه كفراً ، وقال الله تعالى : (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار)[٣] يريد الكفار ، دل على ذلك قوله : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون)[٣] وسمي الفاسق من المسلمين فاسقا ولم يخرجه من الاسلام.قال الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم القاسقون)[٤] وقال تعالى : (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج)[٥] فقالت العلماء في تفسير الفسوق ها هنا : هي المعاصي .

قالوا : فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين ، كذلك الكفر كفرين : أحدهما ينقل عن الملة ، والآخر لاينقل عن الملة ، وكذلك الشرك شركان : شرك في التوحيد ينقل عن الملة ، وشرك في العمل لاينقل عن الملة ، وهو الرياء قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا)[٦] يريد بذلك المراءاة بالأعمال الصالحة . وقال النبي ﷺ الطيرة شرك» .

قال محمد بن نصر : فهذان مذهبان هما في الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل

---

(١) سورةا لأنعام ، الآية : ٨٢
(٢) سورة الكهف ، الاية ٥٠
(٣) سورة السجدة ، الاية : ٢٠
(٤) سورة النور ، الاية : ٤
(٥) سورة البقرة ، الاية : ١٩٦
(٦) سورة الكهف ، الاية : ١١٠

في موافقيه من أصحاب الحديث ، حكى الشالنجي إسماعيل بن سعيد أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصـر" على الكبائر يطلبه بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال: هو مصر ، مثل قوله: «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »، يخرج من الايمان ويقع في الاسلام ،ومن نحو قوله : «لايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون)[1] فقلت له : ما هذا الكفر ؟ فقال: كفر لاينقل عن الملة، مثل الايمان بعضه دون بعض ، وكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لايختلف فيه . وقال ابن أبي شيبة: لايزني حين يزني وهو مؤمن : لايكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصاً من إيمانه قال : وسالت احمد بن حنبل عن الاسلام والايمان فقال : الايمان قول وعمل ، والاسلام إقرار . قال : وبه قال أبو خيثمة ، لايكون الاسلام إلا بايمان ، ولا إيمان إلا باسلام .

قلت : وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وان كان مسمى أحدهما ليس هومسمى الآخر . وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الايمان قول وعمل. قال ابو عمر بن عبد البر في« التمهيد » : أجمع أهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ، ولا عمل إلا بنية،والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم ايمان ، الا ماذكر عن أبي حنيفة واصحابه،فإنهم ذهبوا الى انالطاعات لاتسمى ايمانا.قالوا: انما الايمان التصديق والاقرار ، ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به ... الى أن قال :

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثاربالحجاز والعراق والشام ومصر ، منهم

---

(١) سورة المائده ، الاية : ٤٤

مالك ابن أنس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والشافعي ، واحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن علي والطبري ، ومن سلك سبيلهم ، فقالوا : الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار والاعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة . قالوا : وكل مايطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان ، والايمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي ، واهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الايمان من أجل ذنوبهم ، وانما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر . ألا ترى الى قول النبي ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)... الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك، بدليل الاجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا إلى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام، من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الاحوال ، واحتج على ذلك ثم قال : واكثر أصحاب مالك على أن الايمان والاسلام شيء واحد .

قال : وأما المعتزلة ، فالايمان عندهم جماع الطاعات ، ومن قصر منها عن شيء فهو فاسق ، لامؤمن ولا كافر ، وهؤلاء المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين ... إلى أن قال : على أن الايمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ؛ وينقص بالمعصية ، (وعليه) جماعة أهل الآثار ، والفقهاء من أهل الفتيا في الأمصار . وروى ابن القاسم عن مالك ان الايمان يزيد ، وتوقف في نقصانه . وروى عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى ، وابن نافع أنه يزيد وينقص ؛ وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث ، والحمد لله.

ثم ذكر حجج المرجئة ، ثم حجج أهل السنة ، ورد على الخوارج التكفير بالحدود المذكور للعصاة في الزنا والسرقة ، ونحو ذلك. وبالموارثة، وبحديث عبادة:

«من أصاب شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة » وقال : الايمان مراتب ، بعضها فوق بعض ، فليس ناقص الايمان كـكامل الايمان . قال الله تعالى : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) [1] أي حقاً . ولذلك قال:(هم المؤمنون حقاً)[2] ، وكذلك قوله ﷺ :«المؤمن من أمنه الناس ،والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ـ يعني حقاً ـ ومن هذا قوله :« أكمل المؤمنين» . ومعلوم أن هذا لايكون أكمل حتى يكون غيره أنقص !

وقوله :« أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله» . وقوله «لا إيمان لمن لاأمانه له» [3] ، يدل على أن بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض ، وذكر الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : «من أحب لله وأبغض لله » الحديث [4] وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية وإصابة السنة .وقال أبو طالب المكي :مباني الاسلام الخمسة :يعني الشهادتين ،والصلوات الخمس، والزكاة،وصيام شهر رمضان،والحج.قال : وأركان الايمان سبعة:يعني الخمسة المذكورة في حديث جبرائيل، والايمان بالقدر ، والايمان بالجنة والنار ، وكلاهما قد رويت في حديث جبريل كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

قال : والايمان بأسماء الله تعالى وصفاته ؛ والايمان بكتب الله وأنبيائه ، والايمان بالملائكة والشياطين ، يعني ـ والله أعلم ـ الايمان بالفرق بينهما ، فإن من الناس من يجعلها جنساً واحدا ، لكن تختلف باختلاف الأعمال ، كما يختلف الانسان البر والفاجر ، والايمان بالجنة و النار ، وأنهما قد خلقتا قبل آدم . والايمان بالبعث بعد

---

(١) سورة الانفال ، الاية : ٢ (٢) سوره الانفال ، الاية : ٤

(٣) هذه الاحاديث صحيحة،وقد مضى الأولان منهما .

(٤) وهو صحيح ، فإنه عندالترمذي عن معاذ بن أنس وحسنه , وعند ابي داود عن أبي أمامة

الموت ، والايمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها ، وحلوها ومرّها ، أنها من الله قضاء وقدراً ومشيئة وحكماً ، وأن ذلك عدل منه وحكمة بالغة ، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها .

قال : وقد قال قائلون : إن الايمان هو الاسلام ، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات ، وهذا يقرب من مذهب المرجئة . وقال آخرون : إن الاسلام غير الايمان وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير ، وهذا قريب من قول الاباضية ؛ فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل ، فمثل الاسلام من الايمان ، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم ، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان ، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد ، كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط بالآخر ، فهما كشيء واحد ، لا ايمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان ، واشترط للايمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه)[1] وقال في تحقيق الايمان بالعمل : (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى)[2] فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولا يرجع الى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الايمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد ؛ ومن كان مؤمناً بالغيب بما أخبرت به الرسل عن الله عاملاً بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ، ولو لا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز ان لا يسمى مسلماً ، ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمناً بالله .

وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته

---

(١) سورة الأنبياء ، : ٩٤   (٢) سورة طه ، الاية : ٧٥

وكتبه قال : ومثل الايمان في الأعمال كمثل القلب في الجسم لاينفك أحدهما عن الآخر ، لايكون ذو جسم حي لا قلب له ، ولا ذو قلب بغير جسم ، فهما شيئان منفردان ، وهما في الحكم والمعنى منفصلان ، ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة. لايقال: حبتان: لتفاوت صفتها ، فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان ، وهو من أعمال الجوارح ، والايمان باطن الاسلام ، وهو من أعمال القلوب .

وروي[1] عن النبي ﷺ أنه قال: « الاسلام علانية، والايمان في القلب » ، وفي لفظ : « الايمان سر » فالاسلام أعمال الايمان ، والايمان عقود الاسلام ، فلا إيمان إلا بعمل ، ولا عمل إلا بعقد . ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن ، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ، ومثله قول رسول الله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » أي لاعمل إلا بعقد وقصد ، لأن (إنما) تحقيق للشيء ونفي لما سواه ، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات ، وعمل القلوب من النيات . فمثل العمل من الايمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما ، لأن الشفتين تجمع الحروف ، واللسان يظهر الكلام ، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام ، وكذلك في سقوط العمل ذهاب الايمان ، ولذلك حين عدد الله نعمه على الانسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله : (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين)[2] بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلما ، فعبر عن الكلام باللسان والشفتين، لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم إلا بهما .

ومثل الايمان والاسلام أيضاً كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر وأطناب ،

---

(١) يشير ابن نصر الى تضعيف الحديث وقد سبق منا التصريح بذلك في أول الكتاب .

(٢) سورة البلد ، الايتان : ٨، ٩

وله عمود في باطنه ، فالفسطاط مثل الاسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح ، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي في وسط الفسطاط . والعمود الذي في وسط الفسطاط، مثله كالايمان لاقوام للفسطاط إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليها ، إذ لاقوام له ولاقوة إلا بهما ، كذلك الاسلام في أعمال الجوارح لاقوام له إلا بالايمان،والايمان من أعمال القلوب ، لانفع له الابالاسلام ،وهو صالح الأعمال.

وأيضاً فإن الله قد جعل ضد الاسلام والايمان واحداً ، فلولا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال : (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم)[1] وقال : (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)[2] فجعل ضدهما الكفر . قال : وعلى مثل هذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان ، والاسلام من صنف واحد ، فقال في حديث ابن عمر : « بني الاسلام على خمس » وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الايمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن الا باسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر ، وأن الايمان والعمل ، قرينان لاينفع أحدهما بدون صاحبه .

قال : فأما تفرقة النبي ﷺ في حديث جبريل بين الإيمان والاسلام ، فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ماتوجب هذه المعاني التي وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح بما يوجب الافعال الظاهرة التي وصفها أن تكون علانية ، لا أن ذلك يفرق بين الاسلام والايمان في المعنى باختلاف وتضاد ، ليس فيه دليل أنهما مختلفان في الحكم ، قال : ويجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن ، فيكون ماذكره من عقود القلب وصف قلبه ، وماذكره من العلانية وصف جسمه .

---

(١) سورة ال عمران ، الاية : ٧٦ (٢) سورة ال عمران ، الاية : ٧٠

قال : وأيضاً فإن الامة مجتمعة أن العبدلو آمن بجميع ماذكره من عقود القلب في حديث جبريل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسلام أنه لا يسمى مؤمناً ، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الاسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان أنه لايكون مسلماً ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمة لا تجتمع على ضلالة .

قلت : كأنه أراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم ، أو أنه لايسمى مؤمناً في الأحكام ، وأنه لايكون مسلماً إذا أنكر بعض هذه الأركان ، أو علم أن الرسول أخبر بها ولم يصدقه ، أو أنه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافاً ؛ وإلا فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم ، وهذا - والله أعلم - مراده ، فإنه عقد الفصل الثالث والثلاثين في بيان تفصيل الاسلام والايمان ، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب أهل الجماعة ، وهذا الذي قاله أجود مما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع في شيئين : أحدهما : أن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون معه الايمان الواجب المفصل المذكور في حديث جبريل . والثاني : ان النبي ﷺ إنما يطلق المؤمن دون مسلم في مثل قول النبي ﷺ : «او مسلم» لكونه ليس من خواص المؤمنين وأفاضلهم ، كأنه يقول : لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار ، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء ، ويقولون : لم يقل النبي ﷺ في ذلك الرجل « أو مسلم » لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وأفاضلهم كالسابقين ، المقربين ، فإن هذا لو كان كذلك لكان ينفي الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من أصحاب اليمين ، ولم يكونوا من السابقين والمقربين ؛ وليس الأمر كذلك ، بل كل من أصحاب اليمين مع السابقين المقربين ، كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب ، وكل من كان كذلك فهو باتفاق المسلمين من أهل السنة ، وأهل البدع ولو جاز أن ينفى الايمان عن شخص

لكون غيره أفضل منه ايماناً نفي الايمان عن أكثر أولياء الله المتقين ، بل وعن كثير من الأنبياء ، وهذا في غاية الفساد ، وهذا من جنس قول من يقول : نفي الاسم لنفي كماله المستحب .

وقد ذكرنا أن مثل هذا لا يوجد في كلام الله ورسوله ، بل هذا الحديث خص من قيل فيه مسلم وليس بمؤمن ، فلا بد أن يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المتقصدين أهل الجنة ، ويكون إيمانه ناقصاً عن ايمان هؤلاء ، فلايكون قد أتى بالايمان الذي أمر به هؤلاء كله ، ثم إن كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب ، كان مستحقاً للذم ، وإن قدر أنه لايقدر على ذلك الايمان الذي اتصف به هؤلاء ، كان عاجزاً عن مثل ايمانهم ، ولا يكون هذا وجب عليه ، فهو وان دخل الجنة لا يكون كمن قدر أنه آمن إيماناً مجملاً ومات قبل أن يعلم تفصيل الايمان وقبل ان يتحقق به ويعمل بشيء منه ، فهو يدخل الجنة ، لكن لا يكون مثل أولئك .

لكن قد يقال : الأبرار أهل اليمين هم أيضـاً على درجات ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القـوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير »[1] وقد قال الله تعالى : (لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر)[2] الآية فدرجة المؤمن القوي في الجنة أعلى وإن كان كل منهما كمـل ماوجب عليه ، وقد يريد أبو طالب وغيره بقولهم : ليس هذا من خواص المؤمنين ، هذا المعنى ، أي ليس إيمانه كإيمان من حقق خاصة الايمان سواء كان من الأبرار أو من المقربين ، وإن لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه أو لكونه لم يؤمر به ، فلا يكون مذموماً ، ولا يمدح مدح أولئك ، ولا يلزم أن يكون من أولئك المقربين .

---

(١) رواه مسلم (٢) سوره النساء ، الاية : ٩٥

فيقال : وهذا أيضا لا ينفى عنه الايمان . فيقال: هو مسلم لا مؤمن ، كما يقال: ليس بعالم ولامفت ، ولا من أهل الاجتهاد ، وقد قال النبي ﷺ «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولانصيفه»[1] وهذا كثير ، فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه ، فكذلك من حقائق الايمان مالا يقدر عليه كثير من الناس، بل ولا أكثرهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ، وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التي فضل الله بها غيرهم ، ولاتركوا واجباً عليهم وإن كان واجباً على غيرهم ، ولهذا كان من الايمان ماهو من المواهب والفضل من الله ، فإنه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل ؛ وقد قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)[2] : وقال : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)[3] وقال : (هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم)[4]

ومثل هذه السكينة قد لاتكون مقدورة؛ ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق ، كما قال : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ؛ وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيما)[5] كما قال : (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به)[6] وكما قال : (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه)[7] ولهذا قيل : من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ،[8] وهذا الجنس غير مقدور

---

(١) اخرجه الشيخان
(٢) سورة محمد ، الاية : ١٧
(٣) سورة مريم ، ٧٦
(٤) سورة الفتح ، الايه : ٤
(٥) سورة النساء ، الايات : ٦٦-٦٨
(٦) سورة الحديد ، الاية : ٢٨
(٧) سورة المجادلة ، الاية : ٢٢

(٨) روي هذا عن عيسى عليه السلام، ووهم بعض الراوة فرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله، واشتهر اليوم على أنه حديث ، ولا اصل له . انظر الاحاديث الضعيفة (رقم ٤٢١)

للعباد وإن كان مايقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانته وإقداره لهم ، لكن الأمور قسمان : منه ما جنسه مقدور لهم لإعانة الله لهم ، كالقيام والقعود ، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم ؛ إذا قيل : إن الله يعطي من أطاعه قوة في قلبه وبدنه يكون بها قادراً على مالا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى . قال تعالى : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا)[1] وقد قال : (إذا لقيتم فئة فاثبتوا)[2] فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحي الى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين .

والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه، ولايذم عليه بعض الناس ممن لايقدر عليه ، ويفضل الله ذاك بهذا الايمان ، وإن لم يكن المفضول ترك واجباً ، فيقال: وكذلك في الاعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ، ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره ، لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ، ولكن بدنه عاجز كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » قالوا: وهم بالمدينة ؟ قال:« وهم بالمدينة حبسهم العذر» ،[3] وكما قال تعال : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ؛ فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)[4] فاستثنى أولي الضرر .

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الاجر

---

(١) سورة الانفال ، الاية : ١٢

(٢) سورة الانفال ، الاية : ٤٥

(٣) متفق عليه

(٤) سورة النساء ، الايه : ٩٥

مثل اجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوز مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا » .

وفي حديث أبي كبشة الأنماري: « هما في الأجر سواء، وهما في الوزر سواء »، رواه الترمذي وصححه ولفظه : « إنما الدنيا لأربعة » : رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يتقي في ذلك المال ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، لايتقي فيه ربه ، ولايصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علما فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ، فوزرهما سواء .

ولفظ ابن ماجه : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهما في الاجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يختبط في ماله ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يؤته علماً ولا مالاً وهو يقول : لو كان لي مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل ، فهما في الوزر سواء » .

كالشخصين إذا تماثلا في إيمان القلوب معرفة وتصديقاً وحباً وقوة وحالاً ومقاماً ، فقد يتماثلان ، وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدون الآخر ، كما جاء في الأثر: إن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه ، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ليس الشديد ذو الصرعة

إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] وقد قال : «رأيت كأني أنزع على قليب، فأخذها ابن أبي قحافة ، فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ، فأخذها ابن الخطاب فاستحالت في يده غرباً ، فلم أر عبقريا يفري فريه حتى صدر الناس بعطن» ،[2] فذكر أن أبا بكر أضعف ، وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر ، فلا ريب أن أبا بكر أقوى إيماناً من عمر ، وعمر أقوى عملاً منه ، كما قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ؛ وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل ، وصاحب الإيمان يكتب له أجر عمل غيره ، وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبي بكر ،فإنه هو الذي استخلفه .

وفي «المسند»من وجهين [3] عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ وزن بالأمة فرجح ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، وكان في حياة النبي ﷺ وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبي بكر من الايمان والعلم ما لم يكن عنده ، فهو قد دعاه إلى ما فعله من خير وأعانه عليه بجهده ، والمعين على الفعل إذا كان يريده إرادة جازمة كان كفاعله ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «من جهز غازياً فقد غزا ،ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا[4]»، وقال : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وقال : «من فطر صائماً فله مثل أجره»[4] .

وقد روي في الترمذي « من عزى مصاباً فله مثل أجره » [5] وهذا وغيره مما

---

(١) متفق عليه (٢) متفق عليه

(٣) بل من ثلاث وجوه: الأول عن ابن عمر (٢/٧٦) والثاني : عن أبي بكرة (٥/٤٤ - ٥٠) وهو عند ابي داود من طريقين عنه (٤٦٣٤-٤٦٢٥) والثالث : عن ابي امامة (٥/٢٥٩) فالحديث صحيح .

(٤) هذه الاحاديث صحيحة (٥) اسناده ضعيف .

يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة ، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر ، لأنه أفضل في الإيمان الذي في القلب ، وأما إذا تفاضلا في إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله البتة ، وإن كان المفضول لم يهبه الله من الإيمان ما وهبه للفاضل ، ولا أعطى قلبه من الأسباب التي بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضول ، ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض ، وإن كان الفاضل أقل عملا بالبدن ، كما فضل الله نبينا ﷺ ومدة نبوته بضع وعشرون سنة — على نوح وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر إلى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر ، وعلى من عمل من صلاة الظهر إلى العصر ، فأعطى الله أمة محمد أجرين ، وأعطى كلا من أولئك أجراً أجراً ، لأن الايمان الذي في قلوبهم كان أكمل وأفضل ، وكان أولئك أكثر عملاً ؛ وهؤلاء أعظم أجراً ، وهو فضله يؤتيه من يشاء بالاسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها .

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى ، فإنه يفضله بالاسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء ، كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم ، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص ، وغير ذلك مما يفضله الله به ، وإنما فضله في الجزاء بما فضل به من الايمان ، كما قال تعالى : (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ؛ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله)[1] وقال في الآية الأخرى : (الله أعلم حيث يجعل

---

(١) سورة آل عمران ، الايتان : ٧٢، ٧٣

رسالته)[1] وقال : (الله يصطفي من الملائكة رسـلا ومن الناس)[2] وقال : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)[3] .

وقد بين في مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب ، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق .

وإذا كان من الإيمان ما يعجز عنه كثير من الناس ويختص الله به من يشاء ، فذلك ما يفضلهم الله به ، وذلك الايمان ينفى عن غيرهم ، لكن لا على وجه الذم ، بل على وجه التفضيل ، فإن الذم إنما يكون على ترك مأمور أو فعل محظور ، لكن على ما ذكره أبو طالب . يقال : فمثل هؤلاء مسلمون لا مؤمنون باعتبار ، ويقال : إنهم مؤمنون باعتبار آخر ، وعلى هذا ينفى الايمان عمن فاته الكمال المستحب ، بل الكمال الذي يفضـل به على من فاته ، وإن كان غير مقدور للعباد ، بل ينفى عنه الكمال الذي وجب على غيره ، وإن لم يكن في حقه لا واجباً ولا مستحباً ، لكن هذا لا يعرف في كلام الشارع ، ولم يعرف في كلامه إلا أن نفي الايمـان يقتضي الذم حيث كان ، فلا ينفى إلا عمن له ذنب ، فتبين أن قوله : « أو مسلم » توقف في أداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس .

ثم طائفة يقولون : قد يكون منافقا ليس معه شيء من الايمان ، وهم الذين يقولون : الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الايمان شيء ، وهذا هو القول الذي نصره طائفة ، كمحمد بن نصر ، والأكثرون يقولون : بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شيء من أعمالهم ، وإن كان فيهم شعبة نفاق ، بل كان

---

(١) سورة الانعام ، الاية: ١٢٤

(٢) سورة الحج ، الاية : ٨٥

(٣) سورة البقره ، الاية : ٢٧٤

معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله ، ولهذا جعلهم مسلمين ، ولهذا قال : (أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين)[1] كما قالوا مثل ذلك في الزاني والسارق وغيرهما ممن نفي عنه الايمان ، مع أن معه التصديق ، وهـــذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم .

وأبو طالب جعل من كان مذموماً لترك واجب ، من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئا ، وجعل ذاك الشخص مؤمناً غيره أفضل منه ، وأما الأكثرون فيقولون: إثبات الاسلام لهم دون الايمان كإثباته لذلك الشخص ، كان مسلماً لا مؤمناً كلاهما مذموم ، لا لمجرد أن غيره أفضل منه ، وقد قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا »[2] ولم يسلب من دونه الايمان . وقال تعالى : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى)[3] .

فأثبت الايمان للفاضل والمفضول ، وهذا متفق عليه بين المسلمين . وقد قال النبي ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »[4] ، وقال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظه : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة »[5] وكان يقول لمن يرسله في جيش أو سرية : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، فإنك لاتدري ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك »[6] .

---

(١) سورة الحجرات ، الاية : ١٨
(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي وغيره
(٣) سورة الحديد ، الاية : ١٠
(٤) رواه البخاري
(٥) أخرجه الشيخان ، وأرقعة جمع رقيع وهو اسم كل سماء .
(٦) رواه مسلم

وهذه الاحاديث الثلاثة في « الصحيح » ، وفي حديث سليمان عليه السلام : وأسالك حكماً يوافق حكمك [1]

فهذه النصوص وغيرها تدل على مـــا اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان أن أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره فيكون له أجران ، وذلك الآخر عاجز له أجر ولا إثم عليه ، وذلك العلم الذي خص به هذا ، والعمل به باطناً وظاهراً زيادة في إيمانه ، وهو ايمان يجب عليه ، لأنه قادر عليه ، وغيره عاجز عنه فلا يجب ، فهذا قد فضل بإيمان واجب عليه وليس بواجب على من عجز عنه .

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيه من المسائل الخبرية والعمليه ، إذا خص أحدهما بمعرفة الحق في نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه ، كلاهما محمود مثاب مؤمن ، وذلك خصه الله من الايمان الذي وجب عليه بما فضله به على هذا ، وذلك المخطىء لايستحق ذما ولا عقابا ، وان كان ذاك لو فعل مافعل ذم وعوقب ، كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها به ، ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئاً ، لكان ذلك سبباً للذم والعقاب ، والأنبياء قبلنا لايذمون بترك ذلك ، لكن محمد ﷺ فضله الله على الأنبياء وفضل أمته على الأمم من غير ذم لأحد من الأنبياء ، ولا لمن اتبعهم . من الأمم .

وأيضاً فاذا كان الانسان لا يجب عليه من الايمان إلا مايقدر عليه ، وهو إذا فعل ذلك كان مستحقاً لما وعد الله به من الجنة ، فلو كان مثل هذا يسمى مسلماً ولا يسمى مؤمناً ، لوجب أن يكون من أهل الوعد بالجنة من يسمى مسلماً لا مؤمناً كالأعراب ، وكالشخص الذي قال فيه النبي ﷺ « أو مسلم » ، وكسائر من نفي عنه

---

(١) وهو حديث صحيح في « المسند » (١٨٦/٢) والنسائي وغيرهما .

الايمان مع أنه مسلم، كالزاني ، والشارب، والسارق، ومن لا يأمن جاره بوائقه ، ومن لايحب لاخيه من الخير مايحب لنفسه ؛ وغير هؤلاء ، وليس الأمر كذلك ، فان الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الايمان، لم يعلقه باسم الاسلام مع ايجاب الاسلام وإخباره أنه دينه الذي ارتضاه ؛ وأنه لا يقبل ديناً غيره ، ومع هذا فما قال : إن الجنة أعدت للمسلمين ، ولا قال : وعد الله المسلمين بالجنة ، بل إنما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) [1] فهو يعلقها باسم الايمان المطلق ، او المقيد بالعمل الصالح ، كقوله: (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ؛ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من يحتها الانهار) [2] وقوله : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) [3] وقوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [4] وقوله : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) [5] وقوله : (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) [6] وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً) [7] وفي الآية الاخرى : (ومن أصدق من الله قيلا) [8] وقال : (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ٧٢
(٢) سورة البينة ، الايتان : ٧، ٨
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥
(٤) سورة البقره ، الآية : ٢٧٧
(٥) سورة النساء ، الاية : ١٧٣
(٦) سورة النساء ، الآية : ١٧٥
(٧) سورة النساء ، الآية : ٥٧
(٨) سورة النساء ، الاية : ١٢٢

والله لايحب الظالمين)[1] وقال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم)[2] وقال : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[3] وقال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)[4] .

فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة ، وبالسلامة من العذاب ، علق باسم الايمان المطلق ، والمقيد بالعمل الصالح ، ونحو ذلك ؛ وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ، ولم يعلق باسم الاسلام . فلو كان من أتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لامؤمناً ، لكان من أهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وان لم يسم مؤمناً ، وليس الأمر كذلك ، بل الجنة لم تعلق الا باسم الإيمان ، وهذا ايضا مما استدل به من قال : إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة ، إذ لو كان كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الاسلام ، كما علق باسم الايمان ، كما علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله : (إن المتقين في جنات ونهر)[5] وقوله : (ان الأبرار لفي نعيم)[6] وباسم أولياء الله ، كقوله : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)[7] فلما لم يجر اسم الاسلام هذا المجرى ، علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله ، وان اسم الاسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وإن كان

---

(١) سورة آل عمران ، الاية : ٥٧
(٢) سورة المائدة ، الاية : ٩
(٣) سورة الانعام ، الاية : ٤٨
(٤) سورة الاعراف ، الاية : ٤٢
(٥) سورة القمر ، الاية : ٥٤
(٦) سورة الانفطار الآية : ١٣
(٧) سورة يونس ، الآيات : ٦٢ - ٦٤

الله يثيبه على طاعته ، مثل أن يكون في قلبه إيمان ، ونفاق يستحق به العذاب، فهذا يعاقبه الله ولايخلده في النار ؛ لأن في قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان .

وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص ، واذا كان في قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها إذا لم يعف الله عنه ، ولم يخلد في النار ، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان. لكن معهم أيضا مايخالف الايمان من النفاق ، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين ، لاسيما إن كانوا للكفر أقرب منهم للايمان ، وهؤلاء يدخلون في اسم الايمان في أحكام الدنيا، كما يدخل المنافق المحض وأولى ،لأن هؤلاء معهم إيمان ويدخلون في خطاب الله بـ (يا أيها الذين آمنوا) ، لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم ونهي لهم عما يضرهم . وهم محتاجون الى ذلك ، ثم الايمان الذي معهم إن اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام ، والا فليس بأسوأ حالاً من المنافق المحض، وذلك المنافق يخاطب بهذه الأعمال وتنفعه في الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها في الدنيا ، لكن وقت الحقيقة يضرب (بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولـكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور ، فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولامن الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) [1] وقد قال تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً) [2]

---

(١) سورة الحديد ، الآيات : ١٣ - ١٥ (٢) سورة النساء الآيتان الآية : ١٤٥، ١٤٦

فإذا عمل العبد صالحاً لله ، فهذا هو الاسلام الذي هو دين الله ، ويكون معه من الايمان ما يحشر به مع المؤمن يوم القيامة ؛ ثم إن كان معه من الذنوب ما يعذب به ، عذب وأخرج من النار ؛ إذا كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان وإن كان معه نفاق ؛ ولهذا قال تعالى في هؤلاء : (فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيما) [١] فلم يقل : إنهم مؤمنون بمجرد هذا ، إذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل هم معهم ، وإنما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله ، وقال : (فأولئك مع المؤمنين) [١] فيكون لهم حكمهم .

وقد بين تفاضل المؤمنين في مواضع أخر ، وأنه من أتى بالايمان الواجب استحق الثواب ، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر ، فذاك من أهل الوعيد ، وإيمانه ينفعه الله به ؛ ويخرجه به من النار ولو أنه مثقال حبة خردل ، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب . وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ، ويسمى مسلماً ، كما نص عليه أحمد .

وتمام هذا أن الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب النفاق ؛ وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الاسلام بالكلية ، كما قال الصحابة[٢] : ابن عباس وغيره : كفر دون كفر ، وهذا قول عامة السلف ، وهو الذي نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق ، والشارب ، ونحوهم ، ممن قال فيه النبي ﷺ : « إنه ليس بمؤمن » ، أنه يقال لهم : مسلمون لا مؤمنون ، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الايمان ، مع إثبات اسم الاسلام ، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملة ، بل كفر دون كفر ، كما

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٤٦ (٢) وعلى هامش النسخة الهندية : أصحاب ابن عباس

قال ابن عباس وأصحابه في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1] قالوا : كفر لا ينقل عن الملة ، وكفر دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم .

وهذا أيضاً مما استشهد به البخاري في « صحيحه » فإن كتاب « الايمان » الذي افتتح به « الصحيح » قرر مذهب أهل السنة والجماعة ، وضمنه الرد على المرجئة ، فإنه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة ومذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقد اتفق العلماء على أن اسم المسلمين في الظاهر يجري على المنافقين ، لأنهم استسلموا ظاهراً ، وأتوا بما أتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة ، والزكاة الظاهرة ، والحج الظاهر ، والجهاد الظاهر ، كما كان النبي يجري عليهم أحكام الاسلام الظاهر ، واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الايمان فهو كما قال الله تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)[2] ، وفيها قراءتان (درْك ودرَك) قال أبو الحسين ابن فارس : الجنة درجات ، والنار دركات . قال الضحاك : الدرج : إذا كان بعضها فوق بعض . والدرك : إذا كان بعضها أسفل من بعض ، فصار المظهرون للاسلام بعضهم في أعلى درجة في الجنة وهو رسول الله ﷺ كما قال في الحديث الصحيح : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم سلوا الله الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة »[3] وقوله :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٤ (٢) سورة النساء ، الآية : ١٤٥

(٣) رواه مسلم في « صحيحه » بأتم منه .

ﷺ : « وأرجو أن أكون » مثـــل قوله : « إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده »[1] ولا ريب أنه أخشى الأمة لله وأعلمهم بحدوده .

وكذلك قوله :«اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا ».[2] وقوله : «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» وأمثال هذه النصوص ، وكان يستدل به أحمد وغيره على الاستثناء في الايمان كما يذكره في موضعه .

والمقصود أنه خير المؤمنين في أعلى درجات الجنة ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ، وإن كانوا في الدنيا مسلمين ظاهراً تجري عليهم أحكام الاسلام الظاهر ، فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلماً ، إذ ليس هو دون المنافق المحض ، واذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الايمان ، بل اسم المنافق أحق به ، فإن مافيه بياض وسواد وسواده أكثر ، هو باسم الأسود أحق منه باسم الأبيض ، كما قال تعالى : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان)[3] وأمـا اذا كان ايمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد ، لم يكن أيضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن أحمد ، ولم أره أنا فيما بلغني من كلام أحمد ، ولا ذكره الخلال ونحوه . وقال محمد بن نصر : وحكي غير هذا عن أحمد أنه قال : من أتى هذه الأربعة :الزنا ، والسرقة ،وشرب الخمر ، والنهبة التي يرفع الناس فيها أبصارهم إليه ، أو مثلهن أو فوقهن ، فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً ، ومن أتى دون الكبائر

---

(١) رواه مسلم ايضا (١٣٨/٣) بلفظ :«وأعلمكم بما أتقي » وسيعيده المؤلف بتمامه

(٢) متفق عليه وكذا الذي بعده .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٧

نسميه مؤمناً ناقص الايمان ، فإن صاحب هذا القول يقول : لما نفى عنه النبي ﷺ الايمان ، نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول ﷺ ، والرسول لم ينفه إلا عن صاحب كبيرة ، وإلا فالمؤمن الذي يفعل الصغيرة هي مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه لكبائر ، لكنه ناقص الايمان عمن اجتنب الصغائر ، فما أتى بالايمان الواجب ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها ، ونقص بذلك درجة عمن لم يأت بذلك .

وأما الذين نفى عنهم الرسول الايمان ، فننفيه كما نفاه الرسول ، وأولئك وإن كان معهم التصديق وأصل الايمان فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الايمان ، وقد يجتمع في العبد نفاق وايمان ، وكفر وإيمان ، فالإيمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقاً للوعد بالجنة .

وطوائف أهل الأهواء ، من الخوارج والمعتزلة ، والجهمية ، والمرجئة ، كراميهم وغير كراميهم يقولون : إنه لا يجتمع في العبد ايمان ونفاق ، ومنهم من يدعي الاجماع على ذلك ، وقد ذكر أبو الحسن في بعض كتبه الاجماع على ذلك ، وخالفوا فيه الكتاب والسنة ، وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان مع مخالفة صريح المعقول ، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد ، وقالوا : لا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ، ومعصية يستحق بها العقاب ، ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من وجه ، ولا محبوباً مدعواً له من وجه مسخوطاً ملعوناً من وجه ، ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعاً عندهم ، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم ، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار ، أو الشفاعة في أحد من أهل النار . وحكي عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الأصل ، لكن هؤلاء قالوا : إن أهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لاولئك .

وأما أهل السنة والجماعة ، والصحابة ، والتابعون لهم باحسان ؛ وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم ، فيقولون : إن الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة ، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها ، وله حسنات دخل بها الجنة ، وله معصية وطاعة باتفاق هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا في حكمه ، لكن تنازعو في اسمه . فقالت المرجئة : جهميتهم وغير جهميتهم : هو مؤمن كامل الإيمان . وأهل السنة والجماعة على أنه ناقص الايمان ، ولولا ذلك لما عذب ، كما أنه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين ، وهل يطلق عليه اسم مؤمن ؟ هذا فيه القولان ، والصحيح التفصيل ، فإذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه في الكفارة . قيل : هو مؤمن ، وكذلك إذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين .

واما إذا سئل عن حكمه في الآخرة . قيل : ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة ، بل معه ايمان يمنعه الخلود في النار ويدخل به الجنة بعد أن يعذب في النار إن لم يغفر الله له ذنوبه ، ولهذا قال من قال : هو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته ، او مؤمن ناقص الايمان ، والذين لايسمونه مؤمناً من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون : اسم الفسوق ينافي اسم الايمان كقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) [1] وقوله : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) [2] وقد قال النبي ﷺ « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » [3]

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ، ومعه

---

(١) سورة الحجرات ، الاية : ١١ (٢) سورة السجده ، الاية: ١٨

(٣) متفق عليه كما تقدم .

إيمان أيضاً ، وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ في تسمية كثير من الذنوب كفراً ، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من ايمان ، فلا يخلد في النار، كقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[1] ، وقوله : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1] وهذا مستفيض عن النبي ﷺ في «الصحيح» من غير وجه ، فإنه أمر في حجة الوداع أن ينادى به في الناس ، فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً ؛ ويسمى هذا الفعل كفراً ؛ ومع هذا فقد قال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين قتتلوا فأصلحوا بينهما) الى قوله : (إنما المؤمنون إخوة)[2] فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الايمان بالكليه ، ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الخصلة ، كما قال الصحابة : كفر دون كفر ، وكذلك قوله : « من قال لاخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما »[3] فقد سماه أخاه حين القول ؛ وقد أخبر أن أحدهما باء بها ، فلو خرج أحدهما عن الاسلام بالكلية لم يكن أخاه ، بل فيه كفر.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح : «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر»[4] وفي حديث آخر : « كفر بالله من تبرأ من نسب وإن دق»[5] ، وكان من القرآن الذي نسخ لفظه : لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم فإن حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله : (أن اشكرلي ولوالديك إلى المصير)[6] وقوله : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)[7] فالوالد أصله الذي منه خلق،والولد من كسبه، كما قال:(ما أغنى عنه ماله وما كسب) ؛ فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر ؛ فإنه جحد لما منه خلقه ربه ، فقد جحد خلق الرب إياه ، وقد

---

(١) متفق عليه
(٢) سورة الحجرات ، الايتان ٩، ١٠
(٣) متفق عليه كما تقدم .
(٤) متفق عليه .
(٥) حديث حسن . رواه أحمد وابن ماجه ، والطبراني في «المعجم الصغير» بسند حسن.
(٦) سورة لقمان ، الاية : ١٤
(٧) سورة الاسراء ، الاية ، ٢٣

كان في لغة من قبلنا يسمى الرب أباً ، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية ، وسنتكلم إن شاء الله على سائر الأحاديث .

والمقصود هنا ذكر أصل جامع تنبني عليه معرفة النصوص ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الكتاب والسنة ، فإن الناس كثر نزاعهم في مواضع في مسمى الايمان والاسلام لكثرة ذكرهما ، وكثرة كلام الناس فيهما ، والاسم كلما كثر التكلم فيه، فتكلم به مطلقاً ، ومقيداً بقيد ،ومقيداً بقيد آخر في موضع ، كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه ، ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتبه عليه ذلك ؛ ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه ، ويكون ما سمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى ، فيظن معناه في سائر موارده كذلك ، فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة، وعلم مأخذ الشبهة، أعطى كل ذى حق حقه ، وعلم أن خير الكلام كلام الله ، وأنه لا بيان أتم من بيانه ، وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون إليه أضعاف أضعاف ما تنازعوا فيه .

فالمسلمون : سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة ؛ ولا يعذب ؛ وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله -ﷺ- إليه فهو كافر ، وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الايمان التي اتفق عليها المنتسبون إلى الاسلام والإيمان ، فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد أو بعض معاني بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه ، مع أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة ؛ مشهود عليهم بالضلالة ؛ ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام ، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم ، وإنما

يتنازع اهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى عن أكثر الناس ، ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، والرد إلى الله ورسوله في مسألة الاسلام والايمان يوجب أن كلاً من الاسمين وان كان مسماه واجباً ولا يستحق أحد الجنة الا بأن يكون مؤمناً،مسلماً، فالحق في ذلك ما بينه النبي في حديث جبريل ، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات: أولها: الاسلام،وأوسطها الايمان،وأعلاها الإحسان ، ومن وصل إلى العليا فقد وصل الى التي تليها ، فالمحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ؛ وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً .

وهكذا جاء القرآن،فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة . قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) [١] ، فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم ؛ والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه . وقـــد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلى هذه الثلاثة في سورة (الو قعة) و (المطففين) ، و(هل أتى) ؛ وذكر الكفار أيضاً ، وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده .

وقال أبو سليمان الخطابي : ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة ، فأما الزهري فقال : الإسلام الكلمة ، والايمان العمل ، واحتج بالآية ، وذهب غيره إلى أن الاسلام والايمان شيء واحد ، فاحتج بقوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) [٢] قال الخطابي : وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول من هذين ، ورد الآخر منهما على المتقدم ،

---

(١) سورة فاطر ، الاية : ٣٢ (٢) سورة الذريات الايتان : ٣٥،٣٦

وصنف عليه كتاباً يبلغ عدد أوراقه المائتين . قال الخطابي : والصحيح من ذلك ، أن يقيد الكافر في هذا ، ولا يطلق ، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها ، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات ، واعتدل القول فيها ، ولم يختلف شيء منها .

قلت : الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابي ، أظن أحدهما وهو السابق، محمد بن نصر، فإنه الذي علمته بسط الكلام في أن الاسلام والايمان شيء واحد من أهل السنة والحديث، وما علمت لغيره قبله بسطاً في هذا،والآخر الذي ردعليه أظنه..[1]. لكن لم أقف على رده ، والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما ، كأبي جعفر ، وحماد بن زيد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وغيره ، ولا علمت أحداً من المتقدمين خالف هؤلاء ، فجعل نفس الاسلام نفس الايمان ، ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي .

وكذلك ذكر أبو القاسم التيمي الأصبهاني ، وابنه محمد شارح «مسلم» ، وغيرهما ان المختار عند اهل السنة أنه لا يطلق على السارق والزاني اسم مؤمن ، كما دل عليه النص ، وقد ذكر الخطابي : في « شرح البخاري » كلاماً يقتضي تلازمهما مع افتراق اسميهما ، وذكره البغوي في «شرح السنة »فقال : قد جعل النبي ﷺ الاسلام اسماً لما ظهر من الاعمال،وجعل الايمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس كذلك،لأن الاعمال ليست من الايمان، أو التصديق بالقلب ليس من الاسلام ، بل ذلك تفصيل الجملة هي كلها شيء واحد ، وجماعها الدين ،ولذلك قال ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» ، والتصديق والعمل يتناولهما اسم الاسلام والايمان جميعا،يدل عليه قوله تعالى :(إن الدين

(١) هنا بياض في الأصل .

عند الله الاسلام) [1] وقوله تعالى : (ورضيت لـكم الاسلام دينا) [2] وقوله : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلم يقبل منه) [3] فبين ان الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الاسلام ، ولايكون الدين في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل .

قلت : تفريق النبي ﷺ في حديث جبزيل وإن اقتضى أن الأعلى وهو الاحسان يتضمن الايمان ، والايمان يتضمن الاسلام، فلا يدل على العكس ،ولو قدر أنه دل على التلازم ، فهوصريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا ، لكن التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه ، ومن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة في كثير من المواضع حاد عنها طوائف ، مسئلة الايمان وغيرها ، وما ذكره من أن الدين لا يكون في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل، يدل على أنه لا بد مع العمل من الايمان ؛ فهذا يدل على وجوب الايمان مطلقاً ، لكن لا يدل على ان العمل الذي هو الدين ، ليس اسمه إسلاماً ؛ وإذا كان الايمان شرطاً في قبوله لم يلزم أن يكون ملازماً له ؛ ولو كان ملازماً له لم يلزم أن يكون جزء مسماه .

وقال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح : قوله ﷺ : « الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله » إلى آخره ؛ والايمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله » إلى آخره ، قال : هذا بيان لأصل الايمـان ، وهو التصديق الباطن ؛ وبيان لأصل الاسلام ، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الاسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين ، وانما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الاسـلام ومعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده او انحلاله .

---

(١) سورة آل عمران ، الاية : ١٩ (٢) سورة المائدة ، الاية : ٢

(٣) سورة آل عمران ، الاية : ٨٥

ثم ان اسم الاسلام يتناول ما فسر به الاسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الايمـان ، ومقومات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسر النبي ﷺ الايمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين، والصلاة ،والزكاة،والصوم، وإعطاء الخمس من المغنم ؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة او ترك فريضة ؛ لأن اسم الشيء الكامل يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً الا بقيد ، ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » .

واسم الاسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الايمان وهو التصديق ، ويتناول أصل الطاعات ، فإن ذلك كله استسلام ، قال : فخرج ممـا ذكرناه وحققناه ان الاسلام والايمان يجتمعان ويفترقان ؛ وان كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنا ، قال : فهذا تحقيق وافٍ بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة في الإيمان والاسلام التي طالمـا غلط فيها الخائضون ؛ وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم .

فيقال : هذا الذي ذكره رحمه الله فيه من الموافقة ما قد بين من أقوال الأئمة،وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وقوله : إن الحديث ذكر فيه أصل الايمان وأصل الاسلام، قد يورد عليه أن النبي ﷺ أجاب عن الايمان والإسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود ، فيكون ماذكره مطابقاً لهما لا لأصلهمـا فقط ، فالايمان بمـا ذكره باطناً وظاهراً ؛ لكن ما ذكره من الايمـان تضمن الاسلام ،كما أن الاحسان تضمن الايمان .

* * *

وقول القائل : أصل الاستسلام هو الاسلام الظاهر . فالاسلام هو الاستسلام لله ، والانقياد له ظاهراً وباطناً ، فهذا هو دين الاســلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، ومن أسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره ، فإنه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس.وايضاً فإذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الايمـــان . فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمناً ، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور ، لكن لا بد في الاسلام من تصديق يحصل به أصل الايمان ، وإلا لم يثبت عليه ؛ فيكون حينئذ مسلماً مؤمناً ، فلابد أن يتبين المسلم الذي ليس بمؤمن ودخوله في الاسلام والنبي ﷺ قال : « هــذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله : « الاسلام هو الأركان الخمسة » لا يعني به من أداها بلا إخلاص لله بل مع النفاق ، بل المراد من فعلها كما أمر بها باطناً وظاهراً ، وذكر الخمس أنها هي الاسلام لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعـالى على كل عبد مطيق لها،وماسواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب ، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض ، وإن كان فيها قربة ونحو ذلك . وتلك تابعة لهذه كما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [1] «وأفضل الاسلام أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » [2] ونحو ذلك ، فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الايمان .

وقول القائل : الطاعات ثمرات التصديق الباطن ، يراد به شيئان : يراد به أنها لوازم له، فمتى وجد الايمـــان الباطن وجدت ، وهذا مذهب السلف وأهل السنة ، ويراد به أن الايمان الباطن قد يكون سبباً ، وقد يكون الايمان الباطن تاما كاملاً وهي لم توجد ، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم ، وقد ذكرنا فيما

---

(١) متفق عليه وتقدم مراراً .

(٢) اخرجه الشيخان

تقدم أنهم غلطوا في ثلاثة أوجه : أحـــدها : ظنهم أن الايـان الذي في القلب تصديق بلا عمل للقلب . كمحبة الله وخشيته . والثاني : ظنهم أن الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر ، وهذا يقول به جميع المرجئة . والثالث : قولهم كل من كفره الشارع فانما كان لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى، وكثير من المتأخرين لايميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية، لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهـم ممن هو في باطنه يرى رأي الجهميـة والمرجئة في الايمان ، وهو معظم للسلف وأهل الحديث ، فيظن انه يجتمع بين كلام أمثاله وكلام السلف .

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي : وقالت طائفة ثالثة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث : الايمان الذي دعا الله العباد اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم اليه ،وهو ضد الكفر الذي سخطه فقال : (ولايرضى لعباده الكفر) [1] وقال : (ورضيت لـكم الاسلام ديناً) [2] وقال : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) [3] وقال : (افمن شرح الله صدره للاسلام فهـــو على نور من ربه) [4] فمدح الله الاسلام بمثل ما مدح به الايمان ، وجعله اسم ثناء وتزكية ، فأخبر أن من أسـلم فهو على نور من ربه وهدى ، وأخبر أنه دينه الذي ارتضاه ، وما ارتضاه فقد أوجبه[5] وامتدحه ، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه ، فقال إبراهيم وإسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [6] وقال يوسف : (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) [7] وقال : (ووصى بها إبراهيم

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧ (٢) سورة المائدة ، الآية : ٣

(٣) سورة الانعام ، الاية : ١٢٥ (٤) سورة الزمر ، الاية : ٢٢

(٥) وعلى هامش النسخة الهندية : صوابه : أحبه

(٦) سورة البقرة ، الاية : ١٢٨ (٧) سورة يوسف ، الاية : ١٠١

بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1]
وقال :(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا)[2]
وقال في موضع آخر : (قولوا آمنـا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم
واسماعيل وإسحاق)[3] إلى قوله : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)[4]
فحكم الله بأن من أسلم فقد اهتدى ، ومن آمن فقد اهتدى ، فسوى بينهما.

قال : وقد ذكرنا تمام الحجة في أن الاسلام هو الايمان ، وأنهما لايفترقان،
ولا يتباينان في موضع غير هذا ، فكرهنا ،عادته في هذا الموضع كراهة التطويل
والتكرير ، غير أنا سنذكر من الحجة مالم نذكره في غير هـذا الموضع ، ونبين
خطأ تأويلهم ، والحجج التي احتجوا بها من الكتاب والأخبار على التفرقة بين
الاسلام والايمان .

قلت : مقصود محمد بن نصر المروزي رحمه الله : أن المسلم لممدوح هو
المؤمن الممدوح ؛ وأن المذموم ناقص الاسلام والايمان ، وأن كل مؤمن فهو مسلم،
وكل مسلم فلا بد أن يكون معه إيمان ، وهذا صحيح ، وهو متفق عليه ،
ومقصوده أيضاً . أن من أطلق عليه الاسلام أطلق عليه الايمان ، وهذا فيه نزاع
لفظي ، ومقصوده ان مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، وهذا لايعرف عن أحد
من السلف ، وإن قيل : هما متلازمان ، فالمتلازمان لايجب أن يكون مسمى هذا
هو مسمى هذا ، وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان
ولا أئمة الاسلام المشهورين أنه قال : مسمى الاسلام هو مسمى الايمان كما نصره،
بل ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف ، ولكن المشهور عن الجماعة من

---

(١) سورة البقرة ، الاية : ١٣٢
(٢) سورة آل عمران ، الاية : ٢٠
(٣) سورة البقره ، الاية : ١٣٦
(٤) سورة البقره ، الاية : ١٣٧

السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الأمة كلهم يقولون : إن المؤمن الذي وعد بالجنة لابد أن يكون مسلماً ، والمسلم الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مؤمناً ، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم .

ثم إن أهل السنة يقولون : الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك ، وإنما النزاع في إطلاق الاسم ، فالنقول متواترة عن السلف بأن الإيمان قول وعمل ، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك في الاسلام ، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون : إن الاسلام هو الدين كله ، ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر مانقل عن الزهري ، فكانوا يقولون : إن الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هي من الاسلام كما هي من الايمان ، ظن أنهم يجعلونها شيئاً واحداً ، وليس كذلك ، فإن الايمان مستلزم للاسلام باتفاقهم ، وليس إذا كان الاسلام داخلا فيه يلزم أن يكون هو إياه ؛ وأما الإسلام فليس معه دليل على أنه يستلزم الايمان ، ولكن هل يستلزم الايمان الواجب أو كمال الايمان ؟ فيه نزاع ، وليس معه دليل على أنه مستلزم للايمان ، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالاسلام كلهم كانوا مؤمنين ، وقد وصفهم الله بالايمان ولولم يذكر ذاك عنهم فنحن نعلم قطعاً أن الأنبياء كلهم مؤمنون .

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين ، ولو قدر أن الاسلام يستلزم الايمان الواجب ، فغاية ما يقال : إنهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا صحيح إن أريد أن كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب . وهو متفق عليه إذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته ، فلابد أن يكون معه أصل

الايمان ، فما من مسلم إلا وهو مؤمن ، وإن لم يكن هو الايمان الذي نفاه النبي ﷺ ، عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم ، إذا قيل : إن الاسلام والايمان التام متلازمان ، لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر ، كالروح والبدن ، فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن ، ولا يوجد بدن حي إلا مع الروح ، وليس أحدهما الآخر ، فالايمان كالروح ، فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن ، والاسـلام كالبدن ولا يكون البدن حياً إلا مع الروح ، بمعنى أنهما متلازمان لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ؛ وإسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح ، فما من بدن حي إلا وفيه روح ، ولكن الأرواح متنوعة كما قال النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[1] وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منوراً بذكر الله والخشوع وفهم القرآن ، وإن كانت صلاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا ، فهكذا الاسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والايمان بمنزلة ما يكون في القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : إياكم وخشوع النفاق ، وهو أن يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع ، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس إذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائماً بحقائقها .

والناس في الايمان والاسلام على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات . فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه ، فلا بد أن يكون معه إيمان ؛ ولكن لم يأت بالواجب ، ولا ينعكس ، وكذلك في الآخر . وسيأتي إن شاء الله .

---

(١) رواه مسلم ، وعلقه البخاري

والآيات التي احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الاسلام ؛ وأنه دين الله ، وأن الله يحبه ويرضاه ، وأنه ليس له دين غيره ، وهذا كله حق ؛ لكن ليس في هذا ما يدل على أنه هو الإيمان ؛ بل ولا يدل على أن بمجرد الإسلام يكون الرجل من أهل الجنة ، كما ذكره في حجة القول الأول ، فإن الله وعد المؤمنين بالجنة في غير آية ، ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام حينئذ ، فمدحه وإيجابه ومحبة الله له تدل على دخوله في الإيمان ؛ وأنه بعض منه ، وهـــذا متفق عليه بين أهل السنة ؛ كلهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل من أتى بالايمان الواجب فقـد أتى بالاسلام الواجب ، لكن النزاع في العكس ؛ وهذا كما أن الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثني عليها وعلى أهلها في غير موضع ، ثم لم يدل ذلك على أن مسمى الصلاة مسمى الايمان، بل الصلاة تدخل في الايمان ، فكل مؤمن مصلٍ ، ولا يلزم أن يكون كل من صلى وأتى الكبائر مؤمناً .

وجميع ما ذكره من الحجة عن النبي ﷺ فإن فيها التفريق بين مسمى الايمان والاسلام إذا ذكرا جميعاً ، كما في حديث جبريل وغيره ، وفيها أيضاً أن اسم الايمان إذا أطلق دخل فيه الاسلام . قال أبو عبد الله بن حامد في كتابه المصنف في « أصول الدين » :

قد ذكرنا أن الإيمان قول وعمل ، فأما الاسلام فكلام أحمد يحتمل روايتين : إحداهما : أنه كالإيمان . والثانية : أنه قول بلا عمل ، وهو نصه في رواية إسماعيل بن سعيد ، قال : والصحيح أن المذهب رواية واحدة أنه قول وعمل ، ويحتمل قوله : إن الاسلام قول يريد به أنه لا يجب فيه ما يجب في الإيمان من العمل المشروط ، وفيه لأن الصلاة ليست من شرطه ، إذ النص عنه لا يكفر بتركه الصـــلاة .

قال : وقد قضينا أن الاسلام والايمان اسمان لمعنيين ، وذكرنا اختلاف الفقهاء ، وقد ذكر قبل ذلك أن الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين ، وبه قال مالك ، وشريك ، وحماد بن زيد ، بالتفرقة بين الاسلام والايمان ، قال : وقال أصحاب الشافعي ، وأصحاب أبي حنيفة : إنهما اسمان معناهما واحد ، قال : ويفيد هذا أن الايمان قد تنتفي عنه تسميته مع بقاء الاسلام عليه ، وهو بإتيان الكبائر التي ذكرت في الخبر ، فيخرج عن تسمية الايمان ، إلا أنه مسلم ؛ فإذا تاب من ذلك عاد إلى ما كان عليه من الايمان . ولا تنتفي عنه تسمية الايمان بارتكاب الصغائر من الذنوب ، بل الاسم باق عليه ، ثم ذكر أدلة ذلك ، ولكن ما ذكره فيه أدلة كثيرة على من يقول : الاسلام مجرد الكلمة ، فإن الأدلة الكثيرة تدل على أن الأعمال من الإسلام ، بل النصوص كلها تدل على ذلك ، فمن قال : إن الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الاسلام ، فقوله باطل ، بخلاف التصديق الذي في القلب ، فإن هذا ليس في النصوص ما يدل على أنه من الاسلام ، بل هو الايمان ، وإنما الاسلام الدين ، كما فسره النبي ﷺ بأن يسلم وجهه وقلبه لله ، فإخلاص الدين لله ، إسلام ، وهذا غير التصديق ، ذاك من جنس عمل القلب ، وهذا من جنس علم القلب .

وأحمد بن حنبل ، وإن كان قد قال في هذا الموضع : إن الاسلام هو الكلمة ، فقد قال في موضع آخر : إن الأعمال من الاسلام ، وهو اتبع هنا الزهري رحمه الله ، فإن كان مراد من قال ذلك ، إنه بالكلمة يدخل في الإسلام ، ولم يأت بتمام الاسلام ، فهذا قريب . وإن كان مراده أنه أتى بجميع الاسلام ، فهذا غلط قطعاً ، بل قد أنكر أحمد هذا الجواب ، وهو قول من قال : يطلق عليه الاسلام وإن لم يعمل ، متابعة لحديث جبريل ، فكان ينبغي أن يذكر قول أحمد جميعه .

قال إسماعيل بن سعيد : سألت أحمد عن الاسلام والايمان فقال : الايمان قول وعمل ، الاســـلام والاقرار . وقال : وسألت أحمد عمن قال في الذي قال جبريل للنبي ﷺ إذ سأله عن الإسلام ، فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ فقال : نعم . فقال قائل : وإن لم يفعل الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مسلم أيضا ؟ فقال : هذا معاند للحديث .

فقد جعل أحمد من جعله مسلماً إذا لم يأت بالخمس معانداً للحديث ، مع قوله : إن الاسلام الاقرار ، فدل ذلك على أن ذاك أول الدخول في الاســـلام ، وأنه لا يكون قائماً بالإسلام الواجب حتي يأتي بالخمس ، وإطلاق الاسم مشروط بها ، فإنه ذم من لم يتبع حديث جبريل . وأيضاً فهو في أكثر أجوبته يكفر من لم يأت بالصلاة؛ بل وبغيرها من المباني ، والكافر لا يكون مسلماً باتفاق المسلمين ، فعلم أنه لم يرد أن الاسلام هو مجرد القول بلا عمل ؛ وإن قدر أنه أراد ذلك ، فهذا يكون أنه لا يكفر بترك شيء من المباني الأربعة . وأكثر الروايات عنه بخلاف ذلك ، والذين لا يكفرون من ترك هـــذه المباني يجعلونها من الاسلام ، كالشافعي ومالك ، وأبي حنيفة ، وغيرهم ، فكيف لا يجعلها أحمد من الاسلام ؟ ! وقوله في دخولها في الاسلام أقوى من قول غيره . وقد روي عنه أنه جعل حديث سعد معارضاً لحديث عمر، ورجح حديث سعد [1].

---

(١) اما حديث عمر :فهو في مجيء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي، وفي آخره : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » وقد تقدم . وأما حديث سعد فهو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطاً وسعد جالس ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً هو أعجبهم إلي ، فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان ؟ فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : « أو مسلماً » ... الحديث . أخرجه البخاري .

قال الحسن بن علي : سألت أحمد بن حنبل عن الايمان أوكد أو الاسلام ؟ قال : جاء حديث عمر هذا ، وحديث سعد أحب إلي . كأنه فهم أن حديث عمر يدل على أن الاعمال هي مسمى الاسلام ، فيكون مسماه أفضل . وحديث سعد يدل على أن مسمى الايمان أفضل ، ولكن حديث عمر لم يذكر الاسلام إلا الاعمال الظاهرة فقط ؛ وهذه لا تكون إيماناً إلا مع الايمان الذي في القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فيكون حينئذ بعض الايمان ، فيكون مسمى الايمان أفضل كما دل عليه حديث سعد، فلا منافاة بين الحديثين .

وأما تفريق أحمد بين الاسلام والايمان ، فكان يقول تارة ، وتارة يحكي الخلاف ولا يجزم به . وكان إذا فرق بينهما تارة يقول الاسلام الكلمة . وتارة لا يقول ذلك وكذلك التكفير بترك المباني ، كان تارة يكفر بها حتى يغضب ؛ وتارة لا يكفر بها . قال الميموني . قلت : يا أبا عبد الله تفرق بين الاسلام والايمان ؟ قال : نعم . قلت بأي شيء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقال الله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) [1] قال : وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان . قال : وحدثنا أبو سلمة الخزاعي قال : قال مالك وشريك ، وذكر قولهم وقول حماد بن زيد: فرق بين الاسلام والايمان .

قال أحمد : قال لي رجل : لو لم يجئنا في الايمان إلا هذا لكان حسناً . قلت لأبي عبد الله : فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم : قلت: فإذا كانت المرجئة يقولون: إن الاسلام هو القول ، قال: هم يصيرون هذا كله واحداً، ويجعلونه

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤

مسلما ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبريل ومستكمل الايمان . قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد ذكر عنه الفرق مطلقاً واحتجاجه بالنصوص .

وقال صالح بن أحمد : سئل أبي عن الاسلام والايمان قال : قال ابن أبي ذئب : الاسلام : القول ، والايمان : العمل . قيل له : ما تقول أنت ؟ قال : الاسلام غير الايمان ، وذكر حديث سعد . وقول النبي ﷺ ، فهو في هذا الحديث لم يختر قول من قال : الاسلام : القول ؛ بل أجاب بأن الإسلام غير الإيمان ، كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن .

وقال حنبل : حدثنا أبو عبد الله بحديث بريدة : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » ... الحديث [1] قال: وسمعت أبا عبد الله يقول في هذا الحديث : حجة على من قال : الإيمان قول . فمن : قال أنا مؤمن . قوله : من المؤمنين والمسلمين . فبين المؤمن من المسلم ، ورد على من قال : أنا مؤمن مستكمل الإيمان ، وقوله: « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وهو يعلم أنه ميت يشد[2] قول من قال : أنا مؤمن إن شاء الله ، الاستثناء في هذا الموضع .

وقال أبو الحارث سألت: أبا عبد الله قلت : قوله : «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال : قد تأولوه . فأما عطاء فقال : يتنحى عنه الإيمان . وقال طاووس : إذا فعل ذلك زال عنه الإيمان . وروي عن الحسن قال : إن رجع راجعه الإيمان . وقد قيل : يخرج من الايمان إلى الإسلام ، ولا يخرج من الاسلام . وروى هذه المسألة صالح ، فإن مسائل أبي الحارث

---

(١) رواه مسلم (٢) في الأصل : يشبد .

يرويها صالح أيضاً. وصالح سأل أباه عن هذه القصة فقال فيها: هكذا يروى عن أبي جعفر قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، قال : يخرج من الايمان إلى الاسلام، فالإيمان مقصور في الاسلام ، فإذا زنا خرج من الايمان إلى الاسلام . قال الزهري — يعني — لما روى حديث سعد: « أو مسلم » فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل قال أحمد : وهو حديث متأول والله أعلم .

فقد ذكر أقوال التابعين ولم يرجح شيئاً ، وذلك والله أعلم لأن جميع ما قالوه حق ، وهو يوافق على ذلك كله ، كما قد ذكر في مواضع أخر أنه يخرج من الايمان إلى الاسلام ، ونحو ذلك ، وأحمد وأمثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، بل التأويل عندهم مثل التفسير ، وبيان ما يؤول إليه اللفظ، كقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك » يتأول القرآن [١] ، وإلا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه ، وقول أحمد يتأوله ، أي يفسر معناه، وإن كان ذلك يوافق ظاهره ، لئلا يظن مبتدع أن معناه أنه صار كافراً لا إيمان معه بحال ، كما تقوله الخوارج ، فإن الحديث لا يدل على هذا ، والذي نفى عن هؤلاء الايمان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين .

قال المروزي : قيل لأبي عبد الله : نقول : نحن المؤمنون ؟ فقال : نقول: نحن المسلمون. قلت لأبي عبدالله: نقول : إنا مؤمنون . قال : ولكن نقول: إنا مسلمون . وهذا لأن من أصله الاستثناء في الايمان، لأنه لا يعلم أنه مؤد لجميع ما أمره الله به ، فهو مثل قوله : أنا بر، أنا تقي، أنا ولي الله ، كما يذكر في موضعه ، وهـــذا لا يمنع ترك

---

(١) متفق عليه

الاستثناء إذا أراد : إني مصدق،فإنه يجزم بما في قلبه من التصديق ، ولا يجزم بأنه ممتثل لكل ما أمر به ، وكما يجزم بأنه يحب الله ورسوله، فإنه يبغض الكفر ، ونحو ذلك مما يعلم أنه في قلبه ، وكذلك إذا أراد بأنه مؤمن في الظاهر ، فلا يمنع أن يجزم بما هو معلوم له ، وإنما يكره ما كرهه سائر الغالية من قول المرجئة ، أو يقولون: الايمان شيء متماثل في جميع أهله ، مثل كون كل إنسان له رأس ، فيقول أحدهم : أنا مؤمن حقاً ، وأنا مؤمن عند الله،ونحو ذلك،كما يقول الانسان : لي رأس حقاً، وأنا لي رأس في علم الله حقاً ، فمن جزم به على هذا الوجه ، فقد أخرج الأعمال الباطنة والظاهرة عنه ، وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ، ومن اتبعهم من سائر المسلمين ، وللناس في مسألة الاستثناء كلام يذكر في موضعه .

والمقصود هنا أن هنا قولين متطرفين : قول من يقول : الاسلام مجرد الكلمة، والأعمال الظاهرة ليست داخلة في مسمى الاسم ، وقول من يقول : مسمى الاسلام والايمان واحد ، وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل ، وسائر أحاديث النبي ﷺ. ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني : لم يكن منه حجة على صحته، ولكن احتج بما يبطل به القول الأول ، فاحتج بقوله في قصة الأعراب : (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين)[1] قال : فدل ذلك على أن الاسلام هو الايمان ، فيقال : بل يدل على نقيض ذلك ، لأن القوم لم يقولوا: أسلمنا ، بل قالوا: آمنا ، والله أمرهم أن يقولوا :أسلمنا ، ثم ذكر تسميتهم بالاسلام فقال : (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين)[1] في قولكم: آمنا ، ولو كان الاسلام هو الايمان لم يحتج أن يقول : إن كنتم صادقين، فإنهم صادقون في قولهم : أسلمنا، مع أنهم لم يقولوا ، ولكن الله قال : (يمنون عليك أن

---

(١) سورة ، الحجرات الاية : ١٧

أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم)[1] أي : يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام ، فالله تعالى سمى فعلهم إسلاما ، وليس في ذلك ما يدل علي أنهم سموه إسلاما ، وإنما قالوا: آمنا ثم أخبر أن المنة تقع بالهداية إلى الايمان ، وأما الاسلام الذي لا إيمان معه ، فكان الناس يفعلونه خوفاً من السيف ، فلا منة لهم بفعله ، وإذا لم يمن الله عليهم بالايمان كان ذلك كإسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم. فأما إذا كانوا صادقين في قولهم : آمنا ، فالله هو المان عليهم بهذا الايمان ومايدخل فيه من الاسلام ، وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولاً ، وهنا علق منة الله به على صدقهم ، فدل على جواز صدقهم .

وقد قيل : إنهم صاروا صادقين بعد ذلك ، ويقال : المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ، ويقال : لأنه كان معهم إيمان ما . لكن ما هو الايمان الذي وصفه ثانياً ؟ بل معهم شعبة من الايمان .

قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين الآية)[2] وقال : (إن الدين عند الله الاسلام)[3] فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ديناً قيما ،وسمى الدين إسلاماً ، فمن لم يؤد الزكاة ، فقد ترك من الدين القيم—الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الاسلام—بعضاً . قال : وقد جاء معيناً هذه الطائفة التي فرقت بين الاسلام والايمان ، على أن الايمان قول وعمل ، وان الصلاة والزكاة من الايمان ، وقد سماهما الله ديناً ، وأخبر أن الدين عنده الاسلام فقد سمى الله الاسلام بما سمى به الايمان ، وسمى الايمان بما سمى به الاسلام ، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ . فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٧ (٢) سورة البينة ، الآية : ٥

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩

وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ؛ ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت ان الإيمان إقرار بلا عمل .

فيقال : أما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين ، والدين عنده هو الاسلام ، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ، ورده على من جعل العمل خارجاً من الاسلام كلام حسن ، وأما قوله : إن الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمى به الايمان ، فليس كذلك ، فإن الله إنما قال : (إن الدين عند الله الاسلام)[1] ولم يقل قط ، ان الدين عند الله الإيمان ؛ ولكن هذا الدين من الإيمان ، وليس إذا كان منه يكون هو إياه ، الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه ، وقوله : والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمناً إلا بهما ، وأمـا الاسلام فهـو عمل محض مع قول ، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه ، لكن يلزمه جنس التصديق ،فلا يكون عمل إلا بعلم ، لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بينه الله ورسوله ، كما قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورســـوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[2] وقوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون)[3] .

وسائر النصوص التي تنفي الإيمان عمن لم يتصف بما ذكره ، فإن كثيراً من المسلمين مسلم باطناً وظاهراً ومعه تصديق مجمل ، ولم يتصف بهذا الإيمان ، والله تعالى قال : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فان يقبل منه)[4] وقال : (ورضيت

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٥
(٣) سورة الأنفال الآية : : ٢ (٤) سورةآل عمران ، الآية :

لكم الإسلام ديناً)[1] ولم يقل : ومن يبتغ غير الاسلام علماً ومعرفة وتصديقا وإيماناً ، ولا قال :رضيت لكم الإيمان تصديقاً وعلماً ، فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع ؛ فمن ابتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، والإيمان طمأنينة ويقين ، أصله علم وتصديق ومعرفة ، والدين تابع له ، يقال: آمنت بالله وأسلمت لله . قال موسى : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[2] فلو كان مسماهما واحداً كان هذا تكريراً ، وكذلك قوله:(إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات)[3] كما قال : والصادقين، والصابرين، والخاشعين : فالمؤمن متصف بهذا كله ، لكن هذه الاسماء لا تطابق الإيمان في العموم والخصوص ،وكان النبي ﷺ يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت، واليك أنبت ، وبك خاصمت ،واليك حاكمت » كما ثبت في « الصحيحين » أنه كان يقول ذلك إذا قام من الليل ، وثبت في « صحيح مسلم » وغيره أنه كان يقول : في سجوده : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت » وفي الركوع يقول : « لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت » ولما بين النبي ﷺ خاصة كل منها قال : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[4] ومعلوم أن السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأمونا على الدم والمال ، فإن هذا أعلى ، والمأمون يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من ظلمه يكون مأموناً عندهم .

قال محمد بن نصر : فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار ، وأن العمل ليس منه ، فقد خالف الكتاب والسنة . وهذا صحيح ؛ فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال

---

(١) سورة المائده،الآية : ٣　　(٢) سورة يونس،الآية : ٧٤

(٣) سورة الأحزاب ، الاية : ٣٥　　(٤) حديث صحيح وتقدم

من الاسلام ، قال : ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الايمان إقرار بلا عمل .

فيقال : بل بينهما فرق ، وذلك ان هؤلاء الذين قالوا من أهل السنة كالزهري ومن وافقه يقولون : الأعمال داخلة في الايمان ، والاسلام عندهم جزء من الايمان ، والايمان عندهم أكمل ، وهذا موافق للكتاب والسنة . ويقولون : الناس يتفاضلون في الايمان ، وهذا موافق للكتاب والسنة ، والمرجئة يقولون : الايمان بعض الاسلام ، والاسلام أفضل ، ويقولون : إيمان الناس متساوٍ ، فإيمان الصحابة وأفجر الناس سواء ، ويقولون : لا يكون مع أحد بعض الايمان دون بعض ، وهذا مخالف للكتاب والسنة .

وقد أجاب أحمد عن هذا السؤال كما قاله في إحدى روايتيه : إن الاسلام هو الكلمة . قال الزهري : فإنه تارة يوافق من قال ذلك ، وتارة لا يوافقه ، بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الاسلام غير الايمان ؛ فلما أجاب بقول الزهري : قال له الميموني : قلت يا أبا عبد الله ! تفرق بين الاسلام والايمان ؟ قال : نعم ؛ قلت : بأي شيء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وقال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) [1] قلت له : فتذهب إلى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم ، قلت : فإذا كانت المرجئة تقول : إن الاسلام هو القول ، قال : هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبريل ، ومستكمل الايمان ؛ قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد أجاب أحمد : بأنهم يجعلون الفاسق مؤمناً مستكمل الايمان على إيمان جبريل .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٤

وأما قوله: يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً ، فهذا قول من يقول : الدين والايمان شيء واحد ، فالاسلام هو الدين ، فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً واحداً ؛ وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الأئمة ، كالشافعي وأبي عبيد وغيرهما ، ومع هؤلاء يناظرون ، فالمعروف من كلام المرجئة : الفرق بين لفظ الدين والايمان ، والفرق بين الاسلام والايمان . ويقولون : الاسلام بعضه إيمان وبعضه أعمال ، والأعمال منها فرض ونفل ، ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل إليهم من كلام أهل البدع كما تجدهم في الجهمية ، إما يحكون عنهم أن الله في كل مكان ، وهذا قول طائفة منهم كالنجارية ، وهو قول عوامهم وعبادهم ، أما جمهور نظارهم من الجهمية ، والمعتزلة ، والضرارية ، وغيرهم ، فإنما يقولون : هو لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو فوق العالم . وكذلك كلامهم في القدرية يحكون عنهم إنكار العلم والكتاب ، وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، وهم الذين كانوا يقولون : إن الله أمر العباد ونهاهم ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك ، فعلمه بعد مافعلوه ! ولهذا قالوا : الأمر أنف ، أي : مستأنف ؛ يقال: روض أنف إذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك ، يعني أنه مستأنف العمل السعيد والشقي ، ويبتدأ ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب ، فلا يكون العمل على ماقد قدر فيحتذى به حذو القدر ؛ بل هو أمر مستأنف مبتدأ ، والواحد من الناس إذا أراد أن يعمل عملاً قدر في نفسه ما يريد عمله ، ثم عمله كما قدر في نفسه ، وربما أظهر ما قدره في الخارج بصورته ، ويسمى هذا التقدير الذي في النفس خلقاً . ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض الناس يخلق ثم لا يفري

يقول : إذا قدرت أمراً أمضيته وأنفذته ، بخلاف غيرك فإنه عاجز عن إمضاء ما يقدره ، وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) [1] وهو سبحانه يعـلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون ، وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده ، وعلمه وإرادته قائم بنفسه ، وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) [2] وقال : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) [3] وقال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون) [4] وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) [5] وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه ، كما قال : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) [6] قال ابن عباس : إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه: كن كتاباً ؛ فكان كتاباً ، ثم أنزل تصديق ذلك في قوله : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير)[6] وقال تعالى:(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)[7] وقال :(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)[8] وقال : (يمحو الله ما يشـاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [9] وقال للملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا : أتجعل فيها من

---

(١) سورة القمر ، الآية : ٤٩
(٢) سورة ص ، الآية : ٨٥
(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٩
(٤) سورة الصافات ، الآيات : ١٧١ - ١٧٣
(٥) سورة هود ، الآية : ١١٠
(٦) سورة الحج ، الآية : ٧٠
(٧) سورة الحديد ، الاية : ٢٢
(٨) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥
(٩) سورة الرعد ، الآية : ٣٩

يفســد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم مالا تعلمون)[1] فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء ، فكيف لايعلمه الله ، سواء علموه بإعلام الله – فيكون هو أعلم بما علمهم إياه ، كما قاله أكثر المفسرين : – أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم ، كما قاله : طائفة منهم ، أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم [لهم] إلا ما علمهم وما أوحاه الى أنبيائه وغيرهم بمـا سيكون ، بمـا هو أعلم به منهم ، فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بمـا شاء .

وأيضاً فإنه قال للملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة)[1] قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم ، وقبل أن يمتنع إبليس ؛ وقبل أن ينهى آدم عن أكله من الشجرة ، وقبل أن يأكل منها ويكون أكله سبب إهباطه إلى الأرض ، فقد علم الله سبحانه أنه سيستخلفه مع أمره له ولإبليس بمـا يعلم أنهما يخالفانه فيه ، ويكون الخلاف سبب أمره لهما بالاهباط والاستخلاف في الأرض .

وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر ، فإن إبليس امتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه ، فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم أيضاً ، فإنه قد تألى أنه ليغوينهم أجمعين ، وقد سأل الإنظار إلى يوم يبعثون ؛ فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه ، لـكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بنبوته ، فصار لبني آدم سبيل إلى نجاتهم وسعادتهم بما يوقعهم الشيطان فيــه بالاغواء ، وهو التوبة ، قال تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوبَ الله على المؤمنين والمؤمنات)[2]

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ (٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٣

وقدر الله قد أحاط بهذا كله قبل أن يكون ، وإبليس أصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وسأل الإنظار ليهلك غيره ، وآدم تاب وأناب ، وقال هو وزوجته : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [1] فتاب الله عليه فاجتباه وهداه ، وأنزله إلى الأرض ليعمل فيها بطاعته ؛ فيرفع الله بذلك درجته ، ويكون دخوله الجنة بعد هذا أكمل مما كان ، فمن أذنب من أولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم في التوبة كان سعيداً ، وإذا تاب وآمن وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، كسائر أولياء الله المتقين . ومن اتبع منهم إبليس فأصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وأراد أن يغوي غيره كان من الذين قال فيهم : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) [2] .

والمقصود هنا ذكر القدر ؛ وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ وكان عرشه على الماء » وفي « صحيح البخاري » عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض » وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ من غير وجه أنه أخبر : أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار ، وما يعمله العباد قبل أن يعملوه

وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود : أن الله يبعث ملكاً بعد خلق الجسد ، وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله ، وشقي أو سعيد . وهذه الأحاديث تأتي إن شاء الله في مواضعها . فهذا القدر هو الذي أنكره القدرية الذين كانوا في

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٣ (٢) سورة ص ، الآية : ٨٥

أواخر زمن الصحابة . وقد روي: أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له: سيسويه من أبناء المجوس ، وتلقاه عنه معبد الجهني . ويقال : أول ماحدث في الحجهاز لما احترقت الكعبة ، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى . فقال آخر : لم يقدر الله هذا ، ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر ؛ فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة ، كعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عباس ، وواثلة بن الأسقع ، وكان أكثره بالبصرة والشام ، وقليل منه بالحجاز ؛ فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية ؛ ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون: الأمر مستقبل ، وإن الله لم يقدر الكتابة والاعمال ؛ والمرجئة يقولون : القول يجزيء من العمل ؛ والجهمية يقولون : المعرفة تجزيء من القول والعمل . قال وكيع : وهو كله كفر ورواه ابن [1] .

ولكن لما اشتهر الكلام في القدر ؛ ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبادة ، صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم ، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق . وعن عمرو بن عبيد في إنكار الكتاب المتقدم روايتان . وقول أولئك كفّرهم عليه مالك ، والشافعي ، وأحمد وغيرهم . وأما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون ، لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ؛ وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم . وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم ، ولكن من كان داعية إليه لم يخرّجوا له ، وهذا مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره : أن من كان داعية إلى بدعة فإنه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وإن كان في الباطن مجتهداً ، وأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له مرتبة في الدين ، لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ، ولا تقبل شهادته ، ونحو ذلك . ومذهب مالك قريب من هذا ، ولهذا لم يخرّج أهل الصحيح

---

(١) هكذا بياض بالأصل .

لمن كان داعية ، ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأي القدرية ، والمرجئة ، والخوارج ، والشيعة .

وقال أحمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة ، وهذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات مسألة مشكلة ، وكما أن القدرية من المعتزلة وغيرهم أخطئوا فيها ، فقد أخطأ فيها كثير ممن رد عليهم أو أكثرهم ، فإنهم سلكوا في الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان ، وأتباعه ، فنفوا حكمة الله في خلقه وأمره ، ونفوا رحمته بعباده ، ونفوا ما جعله من الأسباب خلقاً وأمراً ، وجحدوا من الحقائق الموجودة في مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سبباً لنفور أكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة ، إذ كانوا يزعمون أن قول أهل السنة في القدر هو القول الذي ابتدعه جهم ، وهذا لبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا أن السلف في ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم ، يردون من أقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم ، وقد يكون ذلك قول طائفة منهم ، وقد يكون نقلا مغيراً . فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والايمان واحداً ، ويقولون هو القول ، وأيضاً فلم يكن حدث في زمنهم من المرجئة من يقول : الايمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة في القلب ، فإن هذا إنما أحدثه ابن كرام ، وهذا هو الذي انفرد به ابن كرام . وأما سائر ما قاله ، فأقوال قيلت قبله ، ولهذا لم يذكر الأشعري ولا غيره ممن يحكي مقالات الناس عنه قولاً انفرد به إلا هذا .

وأما سائر أقواله فيحكونها عن ناس قبله ولا يذكرونه . ولم يكن ابن كرام في زمن أحمد بن حنبل ، وغيره من الأئمة ، فلهذا يحكون إجماع الناس على خلاف هـذا القول ، كما ذكر ذلك أبو عبد الله أحمد بن حنبل وأبو ثور وغيرهما .

وكان قول المرجئة قبله : إن الايمان قول باللسان وتصديق بالقلب ، وقول جهم : إنه تصديق القلب ، فلما قال ابن كرام : إنه مجرد قول اللسان ، صارت أقوال المرجئة ثلاثة ، لكن أحمد كان أعلم بمقالات الناس من غيره ، فكان يعرف قول الجهمية في الإيمان ، وأما أبو ثور ، فلم يكن يعرفه ، ولا يعرف إلا مرجئة الفقهاء ، فلهذا حكى الاجماع على خلاف قول الجهمية والكرامية .

قال أبو ثور في رده على المرجئة كما روى ذلك أبو القاسم الطبري اللالكائي وغيره : عن إدريس بن عبد الكريم قال : سأل رجل من أهل خراسان أبا ثور عن الايمان وما هو ، أيزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول وعمل ؟ أو تصديق وعمل ؟ فأجابه أبو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الايمان ما هو ، يزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول عمل ؟ أو تصديق وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم .

أعلم يرحمنا الله وإياك : أن الايمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال : أشهد أن الله عز وجل واحد، وأن ماجاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال : ما عقد قلبي على شيء من هذا ، ولا أصدق به ؛ إنه ليس بمسلم، ولو قال : المسيح هو الله وجحد أمر الاسلام، ثم قال : لم يعقد قلبي على شيء من ذلك، إنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالاقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ، ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً ، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه . فإذا كان تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان ، كان عندهم مؤمناً ، وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل ، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمناً ، فلما نفوا أن يكون الايمان بشيء واحد ، وقالوا : يكون بشيئين في قول بعضهم ، وثلاثة

أشياء في قول غيرهم، لم يكن مؤمناً إلا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء، وذلك أنه إذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء، فكلهم يشهد أنه مؤمن، فقلنا بما أجمعوا عليه من التصديق بالقلب، والاقرار باللسان، والعمل بالجوارح.

فأما الطائفة التى ذهبت إلى أن العمل ليس من الايمان، فيقال لهم: ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، الاقرار بذلك أو الاقرار والعمل؟ فإن قالت: إن الله أراد الاقرار ولم يرد العمل، فقد كفرت. وعند أهل العلم من قال: إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة - وإن قالت: أراد منهم الاقرار والعمل - قيل: فاذا كان أراد منهم الأمرين جميعاً، لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر، وقد أرادهما جميعاً؟ أرأيتم لو أن رجلا قال: أعمل جميع ما أمر به الله ولا أقر به، أيكون مؤمناً؟ فان قالوا: لا، قيل لهم. فان قال: أقر بجميع ما أمر الله به، ولا أعمل به، يكون مؤمناً؟ فإن قالوا: نعم، قيل ما الفرق؟ فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً إذا ترك الآخر، جاز أن يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر، مؤمناً، لا فرق بين ذالك، فإن احتج فقال: لو أن رجلا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي ﷺ أيكون مؤمناً بهذا الاقرار قبل أن يجيء وقت عمل؟ قيل له: إنما يطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله: أن يعمله في وقته اذا جاء، وليس عليه في هذا الوقت الاقرار بجميع ما يكون به مؤمناً، ولو قال: أقر ولا أعمل لم يطلق عليه اسم الإيمان.

قلت: يعني الامام أبو ثور - رحمه الله - إنه لا يكون مؤمناً إلا إذا التزم بالعمل مع الاقرار، وإلا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً. وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين: الإقرار والعمل، وهو يدل على أن كلا منها من الدين، وأنه لا يكون مطيعاً لله، ولا مستحقاً

للثواب ، ولا ممدوحاً عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعاً ، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعاً . وأما من يقول : إنها من الدين، ويقول: إن الفاسق مؤمن حيث أخذ ببعض الدين وهو الايمان عندهم ، وترك بعضه ، فهذا يحتج عليه بشيء آخر ، لكن أبو ثور وغير من علماء السنة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف ، وأحمد كان أوسع علماً بالأقوال والحجج من أبي ثور ، ولهذا إنما حكى الاجماع على خلاف قول الكرامية ، ثم إنه نوزع في النطق على عادته ، ولم يجزم بنفي الخلاف ، لكن قال : لاأحسب أحداً يقول هذا ، وهذا في رسالته الى أبي عبد الرحيم الجوزجاني ، ذكرها الخلال في كتاب « السنة » وهو اجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد في مسائل الأصول الدينية ، وإن كان له أقوال زائدة على ما فيه ، كما أن كتابه في العلم أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد في الأصول الفقهية .

قال المروزي : رأيت أبا عبد الرحيم الجوزجاني عند أبي عبدالله ، وقد كان ذكره أبو عبد الله فقال : كان أبوه مرجئاً ، أو قال : صاحب رأي . وأما أبو عبد الرحيم فأثنى عليه ، وقد كان كتب إلى أبي عبد الله من خراسان يسأله عن الأيمان وذكر الرسالة من طريقين عن أبي عبد الرحيم ، وجواب أحمد :

بسم الله الرحمن الرحيم : أحسن الله الينا واليك في الأمور كلها ، وسلمنا واياك من كل شر برحمته ، أتاني كتابك تذكر ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة . واعلم رحمك أن الخصومة في الدين ليس من طريق أهل السنة ، وأن تأويل من تأول القرآن بلا سنه تدل على معنى ما أراد الله منه ، أو أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ ويعرف ذلك بمـــا جاء عن النبي ﷺ ، أو عن أصحابه ، فهم شاهدوا النبي ﷺ ، وشهدوا تنزيله ، وما قصه الله له في القرآن ، وماعنى به ، وماأراد به

أخاص هو أم عام ؟[١] فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة ، فهذا تأويل أهل البـــدع ؛ لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكما عاما ، ويكون ظاهرها على العموم ، وإنما قصدت لشيء بعينه ، ورسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله وما أراد ، وأصحابه اعلم بذلك منا ، لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك ، فقد تكون الآية خاصة ، أي معناها مثل قوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)[٢] وظاهرها على العموم [، أي من وقع عليه اسم ولد فله ما فرض الله ، فجاءت سنة رسول الله ﷺ أن لا يرث مسلم كافراً .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم – وليس بالثبت – إلا أنه عن أصحابه أنهم لم يورثوا قاتلا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن الكتاب أن الآية إنما قصدت للمسلم لا للكافر ، ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقع عليه اسم الولد كافراً كان أو قاتلا ، وكذلك أحكام الوارث من الأبوين وغير ذلك مع آي كثير يطول بها الكتاب ، وإنما استعملت الأمة السنة من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه ، إلا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج وما يشبههم ، فقد رأيت إلى ما خرجوا .

قلت : لفظ المجمل المطلق والعام كان في اصطلاح الأئمة ، كالشافعي ، وأحمد وأبي عبيد ، وإسحاق ، وغيرهم سواء ، لا يريدون بالمجمل مالا يفهم منه ، كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ في ذلك ، بل المجمل مالا يكفي وحده في العمل به وإن كان ظاهره حقاً ، كما في قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم

---

(١) لقد اعاد المؤلف الكلام لطول الفصل ، وجواب الكلام فيمابعده : فهذا تأويل اهل البدع .

(٢) سورة النساء . الاية : ١١

بها)[1] فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ، ليست مما لا يفهم المراد به ؛ بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده في العمل ، فإن المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم ، وهذا إنما يعرف ببيان الرسول ﷺ ؛ ولهذا قال أحمد يحذر المتكلم في الفقه هذين الأصلين . المجمل ، والقياس . وقال : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ، يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده ؛ ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه ، فإن أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس ؛ فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثاً يطمئن القلب اليه ، وإن أخطأ من لم يفعل ذلك ، وهذا هو الواقع في المتمسكين بالظواهر والأقيسة ، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه طريق أهل البدع . وله في ذلك منصف كبير .

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الأعراض عن النصوص والآثار ، طريق أهل البدع . ولهذ كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولاً فاسداً ، وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وقوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم)[2] سماه عاماً وهو مطلق في الأحوال ، يعمها على طريق البدل كما يعم قوله : (فتحرير رقبة)[3] جميع الرقاب ، لا يعمها كما يعم لفظ الولد للأولاد . ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن ، بل أخذ بما ظهر له بما سكت عنه القرآن ، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه ، لا لدلالة القرآن على

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٣ (٢) سورة النساء ، الآية : ١١

(٣) سورة النساء ، الآيه : ٩٣

أنه ظاهر ، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لابظاهر القول ؛ وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التي فيها علم بما قيد ، وإلافكل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق ؛ بخلاف ما يظهر للانسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن ، كاستدلالات أهل البدع من المرجئة الجهمية والخوارج والشيعة .

قال أحمد : وأما من زعم أن الايمان الاقرار ، فما يقول في المعرفة ؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف ؟ فإن زعم أنه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم أنه من شيئين ، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة أشياء ؛ وإن جحد وقال : لايحتاج إلى المعرفة والتصديق ، فقد قال قولاً عظيماً ، ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق ، وكذلك العمل مع هذه الأشياء .

قلت : أحمد وأبو ثور وغيرهما من الائمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة ، وهو أن الإيمان لايذهب بعضه ويبقي بعضه ؛فلا يكون إلا شيئاً واحداً فلايكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة ،فإنه إذا كان له عدد ،أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، بل لا يكون إلا شيئاً واحداً ، ولهذا قالت الجهمية : إنه شيء واحد في القلب . وقالت الكرامية : إنه شيء واحد على اللسان ، كل ذلك فراراً من تبعض الإيمان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بمايدل على أنه ليس شيئاً واحداً ، كما قلتم . فأبو ثور احتج بما اجتمع عليه الفقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم ، أو لم يعد خلافهم خلافاً ، وأحمد ذكر أنه لا بد من المعرفة والتصديق مع الاقرار ، وقال : إن من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولاً عظيماً ، فإن فساد هذا القول معلوم من دين الإسلام ! ولهذا لم يذهب اليه أحد قبل الكرامية ، مع أن الكرامية لاتنكر وجوب المعرفة والتصديق ؛ ولكن تقول : لايدخل في اسم الإيمان حذراً من تبعضه وتعدده ، لأنهم رأوا أنه لا

يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه ، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكفر ، واعتقدوا الاجماع على نفي ذلك ، كما ذكر هذا الاجماع الأشعري وغيره .

وهذه الشبهة التي أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه ، ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين . ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحداً من مرجئة الفقهاء ، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال ؛ لا من بدع العقائد ، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي ، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الارجاء وغيرهم وإلى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول في ذم الارجاء ، حتى قال ابراهيم النخعي : لفتنتهم – يعني المرجئة – أخوف على هـــذه الأمة من فتنة الأزارقة [1] . وقال الزهري : ما ابتدعت في الاسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء . وقال الأوزاعي : كان يحيي بن ابي كثير ، وقتادة يقولان : ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء . وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال : هم أخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثاً ، ولكن المرجئة يكذبون على الله . وقال سفيان الثوري : تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سابري . وقال قتادة : إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة بن الأشعث .

وسئل ميمون بن مهران عن كلام المرجئة فقال : أنا أكبر من ذلك . وقال سعيد بن جبير لذر الهمـداني : ألا تستحي من رأي أنت أكبر منه ؟! وقال أيوب السختياني : أنا أكبر من دين المرجئة . إن أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل المدينة من بني هاشم يقال له : الحسن . وقال زاذان : أتينا الحسن بن محمد فقلنا : ما هذا الكتاب الذي وضعت ؟ وكان هو الذي أخرج كتاب المرجئة

---

(١) الأزارقة : من الخوارج ، نسبوا إلى نافع بن الأزرق .

فقال لي : يا أبا عمر لوددت أني كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب ،أو أضع هذا الكتاب ، فإن الخطأ في اسم الإيمان ليس كالخطإ في اسم المحدث ؛ ولا كالخطأ في غيره من الأسماء ، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق .

وأحمد رضي الله عنه فرق بين المعرفة التي في القلب وبين التصديق الذي في القلب ، فإن تصديق اللسان هو الإقر ر ؛ وقد ذكر ثلاثة أشيـــاء ، وهذا يحتمل شيئين . يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته ، وهذا قول ابن كلاب ، والقلانسي . والأشعري وأصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب ، فإن تصديق القلب قوله . وقول القلب عندهم ليس هو العلم ، بل نوعاً آخر ؛ ولهذا قال أحمد : هل يحتاج إلى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج إلى أن يكون مصدقاً بما عرف ؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين ، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف [فهو] من ثلاثة أشياء فإن جحد وقال: لا يحتاج الى المعرفة والتصديق . فقد أتى عظيما ولا أحسب امرءاً يدفع المعرفة والتصديق .

والذين قالوا : الإيمان هو الإقرار . فالإقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان. والمرجئة لم تختلف أن الاقرار باللسان فيه التصديق ؛ فعلم أنه أراد تصديق القلب ومعرفته مع الإقرار باللســـان ، إلا أن يقال : أراد تصـــديق القلب واللسان جميعاً مع المعرفة والإقرار ؛ ومراده بالإقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ قال أأقررتم واخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[1]

---

(١) سورة آل عمران ، الآ: ١٧

فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وقد أمروا بهذا ،وليس هذا الاقرار تصديقاً ، فإن الله تعالى لم يخبرهم بخبر ؛ بل أوجب عليهم اذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه . فصدقوا بهذا الإقرار والتزموه ، فهذا هو إقرارهم . والانسان قد يقر للرسول بمعنى أنه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله ، لكن لم يقل أحد من المرجئة : إن هذا الإقرار يكون إيماناً . بل لابد عندهم من الإقرار الخبري وهو أنه يقر له بأنه رسول الله كما يقر المقر بما يقر به من الحقوق ، ولفظ الاقرار يتناول الالتزام والتصديق ، ولا بد منها ، وقد يراد بالاقرار بمجرد التصديق بدون التزام الطاعة ، والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الايمان ،وتارة يجعلون الإيمان التصديق والالتزام معاً ،هذا هو الاقرار الذي يقوله فقهاء المرجئة : إنه إيمان ، وإلا لو قال : أنا أطيعه ولا أصدق أنه رسول الله ، أو أصدقه ولا التزم طاعته، لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم .

وأحمد قال : لابد مع هذا الاقرار أن يكون مصدقاً ، وأن يكون عارفاً ، وأن يكون مصدقاً بما عرف . وفي رواية أخرى : مصدقاً بما أقر ، وهذا يقتضي أنه لا بد من تصديق باطن ، ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعاً ، كما قد ذكرنا شواهده أنه يقال : صدق بالقول والعمل ، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن أنه مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد ، فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيماً ، وإلا فمجرد[1] معرفة قلبه أنه رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به ، إما حسداً ، وإما كبراً ، وإما لمحبة دينه الذي يخالفه ، وإما لغير ذلك ، فلا يكون إيماناً . ولابد في الايمان من علم القلب وعمله . فأراد أحمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له ، تابعاً له ،محباً له معظماً له ،فإن هذا لابد منه ، ومن دفع هذا عن أن يكون

(١) في الأصل : مجرد .

من الإيمان ، فهو من جنس من دفع المعرفة من أن تكون من الإيمان ، وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام أحمد ، لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ، ومن نازع من الجهمية في أن انقياد القلب من الإيمان فهو كمن نازع من الكرامية في أن معرفة القلب من الإيمان ، فكان حمل كلام أحمد على هذا هو المناسب لكلامه في هذا المقام .

وأيضاً فان الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يُجعل قول القلب ؛ أمر دقيق ، وأكثر العقلاء ينكرونه ، وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما ، وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ، ويقولون : إن ماقاله ابن كلاب ، والأشعري من الفرق ، كلام باطل لا حقيقة له ، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق ، وعمدتهم من الحجة إنما هو خبر الكاذب ، قالوا : ففي قلبه خبر بخلاف علمه ، فدل على الفرق . فقال لهم الناس : ذاك بتقدير خبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقياً ، ولما أثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والإرادة ، إنما يعود الى تقدير علوم وإرادات لا إلى جنس آخر يخالفها .

ولهذا قالوا : إن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه ، وإنما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه ، وأما أنه يقوم بقلبه خبر بخلاف مايعلمه ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما استدلو به على أن الرب تعالى لا يتصور قيام الكذب بذاته ، لأنه بكل شيء عليم ، ويمتنع قيام معنى يضاد العلم بذات العالم ، والخبر النفساني الكاذب يضاد العلم .

فيقال لهم : الخبر النفساني لو كان خلافاً لجاز وجود العلم مع ضده كما يقولون

مثل ذلك في مواضع كثيرة ، وهي من أقوى الحجج التي يحتج بها القاضي أبو بكر وموافقوه في مسألة العقل وغيرها، كالقاضي أبي يعلى ، وأبي محمد بن اللبان ، وأبي عليّ ابن شاذان ، وأبي الطيب ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي الخطاب ، وابن عقيل وغيرهم ، فيقولون : العقل نوع من العلم ، فإنه ليس بضد له ، فإن لم يكن نوعاً منه كان خلافاً له ، ولو كان خلافاً لجاز وجوده مع ضد العقل ، وهذه الحجة وإن كانت ضعيفة كما ضعفها الجمهور ، وأبو المعالي الجويني ممن ضعفها ، فإن ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضداً له ، إذ قد اجتمعا ، وليس هو من نوعه ، بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذي يقسمون فيه كل اثنين إلى أن يكونا مثلين، أو خلافين أو ضدين ، فالملزوم كالارادة مع العلم، أو كالعلم مع الحياة ، ونحو ذلك ليس ضداً ولا مثلاً ، بل هو خلاف ، ومع هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم، فإن ضد اللازم ينافيه، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، كوجود الارادة بدون العلم ، والعلم بدون الحياة ، فهذان خلافان عندهم ، ولا يجوز وجود أحدهما مع ضد الآخر .

كذلك العلم هو مستلزم للعقل ، فكل عالم عاقل ، والعقل شرط في العلم ، فليس مثلاً له ولا ضداً ولا نوعاً منه ، ومع هذا لا يجوز وجوده مع ضد العقل ، لكن هذه الحجة تقال لهم في العلم مع كلام النفس الذي هو الخبر ، فإنه ليس ضداً ولا مثلاً ، بل خلافاً ، فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق وهو الكاذب، فبطل تلك الحجة على امتناع الكذب النفساني في العالم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الانسان إذا رجع إلى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق . ثم احتج الامام أحمد على أن الأعمال من الايمان بحجج كثيرة

فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله ﷺ عن الايمان فقال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا خمساً من المغنم »[١] فجعل ذلك كله من الايمان ، قال : وقال النبي ﷺ « الحياء شعبة من الايمان »[٢] وقال : « اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقاً »[٣] . وقال : « إن البذاذة[٤] من الايمان »[٥] . وقال : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرفعها قول لا اله الا الله »[٦] مع أشياء كثيرة ، منها : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[٧] ؛ وماروي عن النبي ﷺ في صفة المنافق : « ثلاث من كن فيه فهو منافق »[٨] مع حجج كثيرة . وما روي عن النبي ﷺ في تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده ، ثم ما وصف الله تعالى في كتابه من زيادة الايمان في غير موضع ، مثل قوله : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم)[٩] وقال : (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا)[١٠] وقال : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)[١١] وقال تعالى : (فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون)[١٢] وقال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم

---

(١) متفق عليه (٢) متفق عليه

(٣) رواه أحمد وأبو داود بسند جيد وعزاه بعضهم للبخاري ، فوهم .

(٤) يعني ترك الترفه وإدامة التزين كما يفعل كثير من الشباب اليوم .

(٥) حديث حسن أخرجه ابو داود وابن ماجه والطبراني والقضاعي بسند حسن .

(٦) متفق عليه (٧) متفق عليه

(٨) متفق عليه (٩) سورة الفتح ، الآية : ٤

(١٠) سورة المدثر ، الآية : ٣١ (١١) سورة الأنفال ، الآية : ٢

(١٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٤

الصادقون) [1] وقال تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) [2] وقال تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) [3] وقال : (وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) [4] .

قال أحمد : ويلزمه أن يقول : هو مؤمن بإقراره ، وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة ، أنه مؤمن ، فيلزمه أن يقول : إذا أقر ، ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله ، فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً ، وهـذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم .

قلت : هذا الذي ذكره الامام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم ، جمع في ذلك جملًا يقول غيره بعضها ، وهـذا الالزام لامحيد لهم عنه ، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنـه لازم التزموه ، وقالوا : لو فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً في الباطن ، لكن يكون دليلاً على الكفر في أحكام الدنيا ، فاذا احتج عليهم بنصوص تقتضي أنه يكون كافراً في الآخرة ، قالوا : فهذه النصوص تدل على أنه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء ، فإنها عندهم شي واحد ، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع .

وهذا القول مع فساده عقلاً وشرعاً ، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيماناً ، فانهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً لا حقيقه له ، كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحدة الرب أنه ذات بلا صفات ، وقالوا بأن القرآن مخلوق ،

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٥ (٢) سورة الأنفال ، الآية : ٥

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ١١ (٤) سورة البينة ، الآيه : ٥

وأن الله لا يرى في الآخرة ، ومـــا يقـوله من وحدة الكلام وغيره من الصفات .

فقولهم في الرب وصفاته وكلامه والايمان به يرجع الى تعطيل محض ، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين الى السنة والفقه والحديث المتبعين للأئمة الأربعة ، المتعصبين للجهمية والمعتزلة ، بل والمرجئة أيضاً ، لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التي نشـــأت منها البدع يجمعون بين الضدين ، ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين أن الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق ، مثل الأئمة الأربعة وغيرهم كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وكالشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبي عبيد ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد ، كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والايمان وصفات الرب ، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يرى في الآخـرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الايمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسـان ، فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطناً وظاهراً عندهم كلهم ، ومن كان موافقاً لقول جهم في الايمـان بسبب انتصار أبي الحسن لقوله في الايمان ، ويبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة ، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم ، حتى في مسألة سب الله ورسوله رأيت طائفة من الحنبليين ، والشافعيين ، والمالكيين ، إذا تكلموا بكلام الائمة قالوا : إن هذا كفر باطناً وظاهراً .

وإذا تكلموا بكلام أولئك قالوا : هذا كفر في الظاهر ، وهو في الباطن يجوز أن يكون مؤمناً تام الايمان ، فان الايمان عندهم لا يتبعض ، ولهذا لما عرف القاضي عياض هذا من قول بعض أصحابه ، أنكره ونصر قول مالك ، وأهل السنة ، وأحسن في ذلك .

وقـد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا في كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وكذلك تجدهم في مسائل الايمان يذكرون أقوال الأئمة ، والسلف ، ويبحثون بحثاً يناسب قول الجهمية ، لأن البحث أخذوه من كتب أهل الكلام الذين نصروا قول جهم في مسائل الايمان .

والرازي لما صنف « مناقب الشافعي » ، ذكر قوله في الايمان . وقول الشافعي قول الصحابة والتابعين ، وقد ذكر الشافعي أنه إجماع من الصحابة والتابعين . ومن لقيه استشكل قول الشافعي جداً ، لأنه كان قد انعقد في نفسه شبهة أهل البدع في الايمان ، من الخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، والكرامية ، وسائر المرجئة ، وهو أن الشيء المركب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله ، لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم . والجواب عما ذكروه هو سهل ، فإنه يسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت ، لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء .

والشافعي مع الصحابة ، والتابعين ، وسائر السلف ، يقولون : إن الذنب يقدح في كمال الايمان ، ولهذا نفى الشارع الايمـان عن هؤلاء ، فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعاً مع الذنوب ، لكن يقولون : بقي بعضه ، إما أصله ، وإما أكثره وإما غير ذلك ، فيعود الكلام إلى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه .

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة ، لأنه إذا نقص لزم ذهابه كله عندهم إن كان متبعضاً متعدداً عند من يقول بذلك ، وهم الخوارج ، والمعتزلة . وأما الجهمية ، فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد ، فيثبتون واحداً لا حقيقة له ، كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم .

ومن العجب أن الأصل الذي أوقعهم في هـذا ، اعتقادهم أنه لا يجتمع في

الانسان بعض الايمان وبعض الكفر ، أو ماهو إيمان وما هو كفر ، واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين ، كما ذكر ذلك أبوالحسن وغيره ، فلأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا فيما هو مخالف للاجماع الحقيقي ، إجماع السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة ، بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم في الايمان .

ولهذا نظائر متعددة ، يقول الانسان قولاً مخالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة ، ويكون معتقداً أنه متمسك بالنص والاجماع . وهـــذا إذا كان مبلغ علمه واجتهاده ، فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ، ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن ، وهم لما توهموا أن الايمان الواجب على جميع الناس نوع واحد ،صار بعضهم يظن أن ذلك النوع من حيث هو لا يقبل التفاضل . فقال لي مرة بعضهم : الايمان من حيث هو إيمان لا يقبل الزيادة والنقصان . فقلت له : قولك من حيث هو، كما يقول: الانسان من حيث هو إنسان ، والحيوان من حيث هو حيوان، والوجود من حيث هو وجود ، والسواد من حيث هو سواد ، وأمثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان ، فيثبت لهذه المسميات وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميـــع القيود والصفات ، وهذا لا حقيقة له في الخارج ، وإنما هو شيء يقدره الانسان في ذهنه ، كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ، ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ، ويقـــدر إنساناً لا موجوداً ولا معدوماً ، ويقول : الماهية من حيث هي هي لا توصف بوجود ولا عدم ، والماهية من حيث هي هي شيء يقدره الذهن،وذلك موجود في الذهن لا في الخارج . وأما تقدير شيء لا يكون في الذهن ، ولا في الخارج ، فممتنع ، وهذا التقدير لا يكون إلا في الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة ، مثل تقدير صدور العالم عن صانعين، ونحو ذلك ، فإن هذه المقدرات في الذهن.

فهكذا تقدير إيمان لا يتصف به مؤمن ، بل هو مجرد عن كل قيد . وتقدير إنسان لا يكون موجوداً ولا معدوماً ، بل ما ثم إيمان إلا مع المؤمنين ، ولا ثم إنسانية إلا ما اتصف بها الانسان ، فلكل إنسان له إنسانية تخصه ، وكل مؤمن له إيمان يخصه ، فإنسانية زيد تشبه إنسانية عمرو ، ليست هي هي . وإذا اشتركوا في نوع الانسانية فمعنى ذلك أنهما يشتبهان فيما يوجد في الخارج ويشتركان في أمر كلي مطلق يكون في الذهن .

وكذلك إذا قيل : إيمان زيد مثل إيمان عمرو ، فإيمان كل واحد يخصه . فلو قدر أن الايمان يتماثل لكان لكل مؤمن إيمان يخصه ، وذلك الايمان مختص معين ، ليس هو الايمان من حيث هو هو ، بل هو إيمان معين ، وذلك الايمان يقبل الزيادة ، والذين ينفون التفاضل في هـذه الأمور يتصورون في أنفسهم إيماناً مطلقاً ، أو إنساناً مطلقا ، أو وجودا مطلقا مجرداً عن جميع الصفات المعينة له ، ثم يظنون أن هذا هو الايمان الموجود في الناس ، وذلك لا يقبل التفاضل ، ولا يقبل في نفسه التعدد ، إذ هو تصور معين قائم في نفس متصورة . ولهذا يظن كثير من هؤلاء أن الأمور المشتركة في شيء واحد هي واحدة بالشخص والعين ، حتى انتهى الأمر بطائفة من علمائهم علماً وعبادة الى أن جعلوا الوجود كذلك ، فتصوروا أن الموجودات مشتركة في مسمى الوجود ، وتصوروا هذا في أنفسهم ، فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم ، ثم ظنوا أنه الله ، فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذي لا يوجد قط الا في نفس متصورة ؛ ولا يكون في الخارج ، وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة ، ويسمونها المثل الأفلاطونية ، وزماناً مجرداً عن الحركة والمتحرك ، وبعداً مجرداً عن الأجسام وصفاتها ؛ ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان ، وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين ، والاثنين واحداً ؛ فتارة يجيئون الى الأمور المتعددة المتفاضلة في الخارج

فيجعلونها واحدة أو متماثلة ، وتارة يجيئون إلى ما في الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين . والمتفلسفة والجهمية وقعوا في هذا وهذا ، فجاؤوا إلى صفات الرب التي هي أنه عالم وقادر ، فجعلوا هـــذه الصفة هي عين الأخرى ، وجعلوا الصفة هي الموصوف .

وهكذا القائلون بأن الايمان شيء واحد وأنه متماثل في بني آدم ، غلطوا في كونه واحداً ، وفي كونه متماثلا ، كما غلطوا في أمثال ذلك من مسائل التوحيد والصفات والقرآن ونحو ذلك ، فكان غلط جهم وأتباعه في الايمان كغلطهم في الرب الذي يؤمن به المؤمنون ، وفي كلامه وصفاته . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف ، بل عامة الصفات التي يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل ، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل ، والايجاب والتحريم يقبل التفاضل ، فيكون إيجاب أقوى من إيجاب ، وتحريم أقوى من تحريم . وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة ، وفي هذا كله نزاع ، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل في هذا كله كما يختار ذلك القاضي أبو بكر ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وقد حكي عن أحمد في التفاضل في المعرفة روايتان . وإنكار التفاضل في هذه الصفات هو من جنس أصل قول المرجئة ، ولكن يقوله من يخالف المرجئة ، وهؤلاء يقولون : التفاضل إنما هو في الأعمال ، وأما الايمـــان الذي هو في القلوب فلا يتفاضل ، وليس الأمر كما قالوه ، بل جميع ذلك يتفاضل ، وقد يقولون : إن أعمال القلوب تتفاضل ، بخلاف معارف القلب ، وليس الأمر كذلك ، بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ، ومن جهة ما وجب على هذا ، فلا يستوون في الوجوب . وأمة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الايمان بعد استقرار الشرع ،

فوجوب الايمان بالشيء بالمعين موقوف على أن يبلغ العبد إن كان خبراً ، وعلى أن يحتاج الى العمل به إن كان أمراً ، وعلى العلم إن كان علماً ، وإلا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر في الكتاب والسنة ، ويعرف معناه ويعلمه ، فإن هذا لا يقدر عليه أحد . فالوجوب مما يتنوع الناس فيه ، ثم قدرهم في أداء الواجب متفاوتة ، ثم نفس المعرفة تختلف بالاجمال والتفصيل ، والقوة والضعف ، ودوام الحضور ، ومع الغفلة ، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها بالقول الثابت ، كالمجملة التي غفل عنها ، واذا حصل له مايريبه فيها ، ذكرها في قلبه ثم رغب الى الله في كشف الريب . ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله ، والتوكل عليه ، والصبر على حكمه ، والشكر له والانابه اليه ، وإخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلاً لا يعرف قدره الا الله عز وجل ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره ، وإما معاند.

قال الامام أحمد : فإن زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الايمان من أجل أنهم لايدرون ما زيادته ، وأنها غير محدودة ، فما يقولون في أنبياء الله وكتبه ورسله؟ هل يقرون بهم في الجملة ؟ ويزعمون أنه من الايمان ؛ فاذا قالوا : نعم ، قيل لهم : هل تجدونهم وتعرفون عددهم ؟ أليس إنما يصيرون في ذلك إلى الاقرار بهم في الجملة ثم يكفون عن عددهم ؟ فكذلك زيادة الايمان . وبين أحمد أن كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته ، لايمنعهم من الاقرار بها في الجملة ، كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لايعرفون عدد الكتب والرسل .

وهذا الذي ذكره أحمد ، وذكره محمد بن نصر ، وغيرهما ، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل ، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم .

وأما قول من سوّى بين الاسلام والايمان وقال : إن الله سمى الايمان بما

سمى به الاسلام ؛ وسمى الاسلام بما سمى به الايمـان ، فليس كذلك ، فإن الله ورسوله قد فسر الايمان بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبين أيضاً أن العمل بما أمر يدخل في الايمان ، ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاماً ، بل إنما سمى الاسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به ، كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه ، فهذا هو الذي سماه الله إسلاماً وجعله ديناً وقال : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه)[1] ولم يدخل فيما خص به الايمان ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل ولا أعمال القلوب ، مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك ، فان هذه جعلها من الايمان ، والمسلم المؤمن يتصف ، بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الاسلام ، بل هي من الايمان ، والاسلام فرض ، والايمان فرض ، والاسلام داخل فيه ، فمن أتى بالايمان الذي أمر به ، فلا بد أن يكون قد أتى بالاسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ، ومن أتى بما سمي إسلاماً لم يلزم أن يكون قد أتى بالايمـان إلا بدليل منفصل ، كما علم أن من أثنى الله عليه بالاسلام من الأنبياء وأتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين ، كما قال الحواريون : (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)[2] وقال : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)[3] ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد ، كما قال : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ومـا أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ (٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٢

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١١١

فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)[1] وقال في الآية الأخرى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)[2]

وهذا يقتضي أن كل من دان بغير دين الإسلام فعمله مردود ، وهو خاسر في الآخرة ، فيقتضي وجوب دين الاسلام وبطلان ما سواه ، لا يقتضي أن مسمى الدين هو مسمى الايمان ، بل أمرنا أن نقول : (آمنا بالله) ، وأمرنا أن نقول : (ونحن له مسلمون) ؛ فأمرنا باثنين ، فكيف نجعلهما واحداً ؟ !

وإذا جعلوا الاسلام والايمان شيئاً واحداً. فإما أن يقولوا : اللفظ مترادف، فيكون هذا تكريراً محضاً ، ثم مدلول هذا اللفظ غير مدلول هذا اللفظ ، وإما أن يقولوا : بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى ، كما في أسماء الله وأسماء كتابه، لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعاً ، ولكن يقتضي أن يذكر تارة بهذا الوصف ، وتارة بهذا الوصف ، فلا يقول قائل : قد فرض الله عليك الصلوات الخمس ، والصلاة المكتوبة ، وهذا هو هذا ، والعطف بالصفات يكون إذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى)[3] لا يقال : صل لربك الأعلى ، وربك الذي خلق فسوى .

وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله : فقد بين الله في كتابه وسنة رسوله أن الاسلام والايمان لا يفترقان ، فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له ، وقد أسلم له ؛ ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه فقد استكمل

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٣٦-١٣٧ (٢) سورة آل عمران ، الاية : ٨٥

(٣) سورة الأعلى ، الآيات : ١ - ٣

الايمان والاســـلام المفترض عليه ، ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الايمان ولا الاسلام، إلا أنه أنقص من غيره في الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق ، وما قال حق لا باطل ، وصدق لا كذب ، ولكن ينقص من الإيمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله ، فمن ذلك يكون النقصان لا من إقرارهم بأن الله حق ، وما قال صدق .

فيقال : ما ذكره يدل على أن من أتى بالايمان الواجب فقد أتى بالاسلام ؛ وهذا حق، ولكن ليس فيه مايدل على أن من أتى بالاسلام الواجب فقد أتى بالايمان ، فقوله : من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له، حق ، لكن أي شيء في هذا يدل على أن من أسلم لله وخضع له ، فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت ؟ وقوله:إن الله ورسوله قد بين أن الاسلام والايمان لا يفترقان ، إن أراد أن الله أوجبهما جميعاً ونهى عن التفريق بينهما ، فهذا حق ؛ وان أراد أن الله جعل مسمى هذا مسمى هذا ، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك ، وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسميين .

وكذلك قوله : من فعل ما أمر به وانتهى عما نهي عنه فقد استكمل الايمان والاسلام ، فهذا صحيح إذا فعل ما أمر به باطناً وظاهراً ، ويكون قد استكمل الايمان والاسلام الواجب عليه ، ولا يلزم أن يكون إيمانه وإسلامه مساوياً للايمان والاسلام الذي فعله أولو العزم من الرسل ؛ كالخليل ابراهيم ، ومحمد خاتم النبيين ، عليهما الصلاة والسلام ، بل كان معه من الايمان والاسلام مالا يقدر عليه غيره ، ولم يؤمر به .

وقوله : من ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الاسلام والايمان إلا أنه انقص من غيره في ذلك . فيقال : إن أريد بذلك أنه بقي معه شيء من الاسلام

والايمان ، فهذا حق كما دلت عليه النصوص ، خلافاً للخوارج والمعتزلة ، وإن أراد أنه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم في سياق الثناء والوعد بالجنة ؛ فهذا خلاف الكتاب والسنة ، ولو كان كذلك لدخلوا في قوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار) [1] وأمثال ذلك مما وعدوا فيه بالجنة بلا عذاب .

وأيضا : فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم في غير موضـــع ، بل قال : « قتال المؤمن كفر » [2] ، وقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » [3] وإذا احتج بقوله : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) [4] ونحو ذلك ، قيل : كل هؤلاء إنما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم .

وكذلك قوله : لا يكون النقصان من إقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق ، فيقال : بل النقصان يكون في الايمان الذي في القلوب من معرفتهم ومن عملهم ، فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله وأسمائه وصفاته ، وما قاله من أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، كمعرفة غيرهم وتصديقه ، لا من جهة الإجمال والتفصيل ، ولا من جهة القوة والضعف ، ولا من جهة الذكر والغفلة . وهذه الأمور كلها داخلة في الايمان بالله وما أرسل به رسوله ، وكيف يكون الايمان بالله وأسمائه وصفاته متماثلا في القلوب ؟! أم كيف يكون الايمان بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه غفور رحيم ، عزيز حكيم ، شديد العقاب ، ليس هو من الايمان به ؟! فلا يمكن مسلماً أن يقول : إن الايمان بذلك ليس من الايمان به ، ولا يدعي تماثل الناس فيه .

وأما ما ذكره من أن الاسلام ينقص كما ينقص الايمان ، فهذا أيضا حق كما دلت

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٧٢
(٢) متفق عليه
(٣) متفق عليه
(٤) سورة الحجرات ، الآية : ٩

عليه الأحاديث الصحيحة ، فإن من نقص من الصلاة والزكاة أو الصوم أو الحج شيئاً، فقد نقص من إسلامه بحسب ذلك . ومن قال : إن الاسلام هو الكلمة فقط ، وأراد بذلك أنه لا يزيد ولا ينقص ،فقوله خطأ . ورد الذين جعلوا الاسلام والايمان سواء ،إنما يتوجه على هؤلاء ، فإن قولهم في الاسلام يشبه قول المرجئة في الايمان .

ولهذا صار الناس في الايمان والاسلام على ثلاثة أقوال : فالمرجئة يقولون : الاسلام أفضل ، فإنه يدخل فيه الايمان . وآخرون يقولون : الايمان والاسلام سواء ، وهم المعتزلة والخوارج ، وطائفة من أهل الحديث والسنة ، وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، وليس كذلك . والقول الثالث أن الايمان أكمل وأفضل ، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة في غير موضع ، وهو المأثور عن الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان .

ثم هؤلاء منهم من يقول : الاسلام مجرد القول ، والأعمال ليست من الاسلام . والصحيح أن الاسلام هو الأعمال الظاهرة كلها ، وأحمد إنما منع الاستثناء فيه على قول الزهري : هو الكلمة . هكذا نقل الأثرم ، والميموني ،وغيرهما عنه . وأما على جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال : الاسلام الكلمة ، فسيستثنى في الاسلام كما يستثنى في الايمان ، فإن الانسان لايجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الاسلام . وإذا قال النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [1] و«بني الاسلام على خمس » [2] فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بإيمانه . فقد قال تعالى : (ادخلوا في السلم كافة) [3] أي الاسلام كافة ، أي في جميع شرائع الاسلام .

وتعليل أحمد وغيره من السلف ماذكروه في اسم الايمان يجيء في اسم الاسلام ، فإذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه ، كما نص عليه أحمد وغيره ؛ وإذا

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨

أريد به فعل الواجبات الظاهرة كلها ، فالاستثناء فيه كالاستثناء في الايمان ، ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الاسلام التي تجري على المسلمين ، كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه، فلهذا قال الزهري : الاسلام الكلمة . وعلى ذلك وافقه أحمد وغيره ، وحين وافقه لم يرد أن الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها ، فإن الزهري أجل من أن يخفى عليه ذلك ، ولهذا أحمد لم يجب بهذا في جوابه الثاني ، خوفاً من أن يظن أن الاسلام ليس هو إلا الكلمة ، ولهذا لما قال الأثرم لأحمد : فإذا قال : أنا مسلم فلا يستثني ؟ قال نعم : لا يستثني إذا قال : أنا مسلم ، فقلت له أقول : هذا مسلم وقدقال النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم أنه لا يسلم الناس منه ،فذكر حديث معمر عن الزهري قال : فنرى أن الاسلام الكلمة ، والايمان العمل .

فبين أحمد أن الاسلام إذا كان الكلمة فلا استثناء فيها ، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه ، ولو أريد بالإيمان هذا ، كما يراد ذلك في مثل قوله : (فتحرير رقبة مؤمنة) [1] فإنما أريد من أظهر الاسلام ، فإن الايمان الذي علقت به أحكام الدنيا ، هو الايمان الظاهر وهو الاسلام ، فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة ، ولهذا لما ذكر الأثرم لأحمد احتجاج المرجئة بقول النبي ﷺ : « اعتقها فإنها مؤمنة » أجابه بأن المراد حكمها في الدنيا حكم المؤمنة ؛ لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الاقرار ، وهذا هو المؤمن المطلق في كتاب الله ، وهو الموعود بالجنة بلا نار إذا مات على إيمانه ، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٢

من شهد لنفسه بالايمان أن يشهد لها بالجنة ؛ يعنون إذا مات على ذلك ، فإنه قد عرف أن الجنة لايدخلها إلا من مات مؤمناً .

فإذا قال الإنسان : أنا مؤمن قطعاً ، وأنا مؤمن عند الله . قيل له : فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب إذا مت على هذا الحال ، فإن الله أخبر أن المؤمنين في الجنة . وأنكر أحمد بن حنبل حديث ابن عميرة أن عبد الله رجع عن الاستثناء؛ فإن ابن مسعود لما قيل له : إن قوماً يقولون : إنا مؤمنون ، فقال : أفلا سألتوهم أفي الجنة هم ؟ وفي رواية: أفلا قالوا : نحن أهل الجنة ، وفي رواية قيل له : إن هذا يزعم أنه مؤمن ، قال : فاسألوه أفي الجنة هو أو في النار ؟ فسألوه فقال : الله أعلم ، فقال له عبد الله : فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية ؟ من قال : أنا مؤمن فهو كافر ، ومن قال : أنا عالم فهو جاهل ، ومن قال : هو في الجنه فهو في النار ، يروى عن عمر بن الخطاب من وجوه مرسلاً من حديث قتادة ونعيم ابن أبي هند وغيرهما .

والسؤال الذي تورده المرجئة على ابن مسعود ويقولون : إن يزيد بن عميرة أورده عليه حتى رجع ، جعل هـذا أن الانسان يعلم حاله الآن ، ومايدري ماذا يموت عليه ، وهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون : المؤمن هو من سبق في علم الله أنه يختم له بالايمان ، والكافر من سبق في علم الله أنه كافر ، وأنه لا اعتبار بما كان قبل ذلك ، وعلى هـذا يجعلون الاستثناء ، وهذا أحد قولي الناس من أصحاب أحمد وغيرهم ، وهو قول أبي الحسن وأصحابه .

ولكن أحمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم ؛ وإنما مقصودهم أن الايمان المطلق يتضمن فعل المأمورات . فقوله : أنا مؤمن ، كقوله : أنا ولي الله ، وأنا مؤمن تقي ، وأنا من الأبرار ، ونحو ذلك ، وابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يخفى

عليه أن الجنة لا تكون إلا لمن مات مؤمنا ، وأن الانسان لا يعلم على ماذا يموت ، فإن ابن مسعود أجل قدراً من هـــذا ، وإنما أراد : سلوه هل هو في الجنه إن مات على هذه الحال ؟ كأنه قال : سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال ؟ فلما قال: الله ورسوله أعلم ، قال : أفلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية . يقول : هـــذا التوقف يدل على أن لا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات . فإنه من شهد لنفسه بذلك شهد أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك ، ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر، بل للموافاة ، لا يقطعون بأن الله لا يقبل توبة تائب، كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنباً، فإنهم لو قطعوا بقبول توبته ، لزمهم أن يقطعوا له بالجنة، وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار ؛ إلا من قطع له النص .

وإذا قيل : الجنة هي لمن أتى بالتوبة النصوح من جميع السيئات . قالوا : ولو مات على هذه التوبة لم نقطع له بالجنة، وهم لا يستثنون في الأحوال، بل يجزمون بأن المؤمن تام الايمان ، ولكن عندهم الايمان عند الله هو ما يوافى به ، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لا ذنب له قطعوا له بالجنة، فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة ، وأما أئمة السلف فإنما لم يقطعوا بالجنة لأنهم لا يقطعون بأن فعل المأمور وترك المحظور ، ولا أنه أتى بالتوبة النصوح ، وإلا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحاً، قبل الله توبته .

وجماع الأمة أن الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به، فلا يجب إذا أثبت أو نفي في حكم أن يكون كذلك في سائر الأحكام ، وهذا في كلام العرب وسائر الأمم، لأن المعنى مفهوم. مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع؛ وفي موضع آخر يقال: ماهم منهم. قال الله تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم

ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً)[١] فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو ، الناكلين عن الجهاد ، الناهين لغيرهم ، الذامين للمؤمنين : منهم . وقال في آية أخرى : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدّخلاً لولوا إليه وهم يجمحون)[٢] وهؤلاء ذنبهم أخف ، فإنهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهي ولا سلق بألسنة حداد ، ولكن حلفوا بالله إنهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم ، وإلا فقد علم المؤمنون أنهم منهم في الظاهر ، فكذبهم الله وقال : (وما هم منكم) وهناك قال : (قد يعلم الله المعوقين منكم)[١] فالخطاب لمن كان في الظاهر مسلماً مؤمناً ، بأن منكم من هو بهذه الصفة ، وليس مؤمناً بل أحبط الله عمله ، فهو منكم في الظاهر لا الباطن .

ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل بعض المنافقين قال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[٣] فإنهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور ، وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق ، كالذين علّموا سنته الناس وبلّغوها إليهم ، وقاتلوا المرتدين بعد موته ، والذين بايعوه تحت الشجرة وأهل بدر وغيرهم ، بل الذين كانوا منافقين ، غمار[٤] من الناس .

وكذلك الأنساب مثل كون الانسان أباً لآخر أو أخاه ، يثبت في بعض الأحكام دون بعض ، فإنه قد ثبت في « الصحيحين » أنه لما اختصم إلى النبي ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ١٨ و ١٩

(٢) سورة التوبة ، الآيتان : ٥٦ و ٥٧

(٣) رواه البخاري . (٤) غمار الناس : من لم يجرب الأمور .

سعد بن أبي وقاص ، وعبد بن زمعة بن الأسود ، في ابن وليدة زمعة ، وكان عتبة ابن أبي وقاص قد فجر بها في الجاهلية وولدت منه ولداً ، فقال عتبة لأخيه سعد : إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فإنه ابني ، فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة إلى النبي ﷺ، فقال سعد : يا رسول الله! ابن أخي عتبة، عهد إليّ أخي عتبة فيه؛ إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة ، فإنه ابني ، ألا ترى يا رسول شبهه بعتبة ؟ فقال عبد : يا رسول الله أخي وابن وليدة أبي ؛ ولد على فراش أبي ، فرأى النبي ﷺ شبهاً بيناً بعتبة فقال : « هو لك يا عبد بن زمعة ، الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبي منه يا سودة » لما رأى من شبهه البين بعتبة ، فقد جعله النبي ﷺ ابن زمعة لأنه ولد على فراشه ، وجعله أخاً لولده بقوله:« فهو لك يا عبد بن زمعة » وقد صارت سودة أخته يرثها وترثه ، لأنه ابن أبيها زمعة ، ولد على فراشه . ومع هذا فأمرها النبي ﷺ أن تحتجب منه ، لما رأى من شبهه البين بعتبة ، فإنه قام فيه دليلان متعارضان : الفراش والشبه ، والنسب في الظاهر لصاحب الفراش أقوى ، ولأنها أمر ظاهر مباح ، والفجور أمر باطن لايعلم ، ويجب ستره لا إظهاره كما قال :«للعاهر الحجر»، كما يقال : بفيك الكثكث[1]، وبفيك الأثلب، أي : عليك أن تسكت عن إظهار الفجور ، فإن الله يبغض ذلك ، ولما كان احتجابها منه ممكنا من غير ضرر، أمرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على أنه ليس أخاها في الباطن .

فتبين أن الاسم الواحد ينفى في حكم ويثبت في حكم . فهو أخ في الميراث وليس بأخ في المحرمية . وكذلك ولد لزنا عند بعض العلماء ،وابن الملاعنة عند الجميع إلا من شذ ، ليس بولد في الميراث ونحوه ، وهو ولد في تحريم النكاح والمحرمية .

ولفظ النكاح وغيره في الأمر ، يتناول الكامل ، وهو العقد والوطء ، كما

(١) الكثكث : التراب ، وكذلك الأثلب .

في قوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)[1] ، وقوله : (حتى تنكح زوجاً غيره)[2] وفي النهي يعم الناقص والكامل ؛ فينهى عن العقد مفرداً ، وإن لم يكن وطء ، كقوله : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء)[3] ، وهذا لأن الآمر مقصوده تحصيل المصلحة ، وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال : اشتر لي طعاماً ؛ فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض ، والناهي مقصوده دفع المفسدة ، فيدفع كل جزء منه ؛ لأن وجوده مفسدة ، وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه ، والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع.

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ، ينفى تارة باعتبار انتفاء كماله ، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه . فلفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغاراً في مثل قوله : (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين)[4] ولا يعم الصغار في مثل قوله : (و المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)[5] فإن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه ، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين ، لأنهم ليسوا من أهله ، وهم ضعفاء ، فذكرهم بالاسم الخاص ، ليبين عذرهم في ترك الهجرة ، ووجوب الجهاد . وكذلك الايمان له مبدأ ، وكمال ، وظاهر ، وباطن ، فإذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود ، كحقن الدم ، والمال ، والمواريث ، والعقوبات الدنيوية ، علقت بظاهره ، لايمكن غير ذلك ، إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر ، وإن قدر أحياناً فهو

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٠

(٣) سوره النساء ، الآية : ٢٢

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٧٦

(٥) سورة النساء ، الآية : ٧٥

متعسر علماً وقدرة ، فلا يعلم ذلك علماً يثبت به في الظاهر ، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه في الباطن .

وبهذين المثلين كان النبي ﷺ يمتنع من عقوبة المنافقين ، فإن فيهم من لم يكن يعرفهم ، كما أخبر الله بذلك ، والذين كان يعرفهم ، لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ، ولقال الناس : إن محمد يقتل أصحابه ، فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الاسلام ؛ إذ لم يكن الذنب ظاهراً ، يشترك الناس في معرفته . ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة ، منعه من في البيوت من النساء والذرية ، وأما مبدؤه فيتعلق به خطاب الأمر والنهي ، فإذا قال الله : (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) [1] ونحو ذلك ، فهو أمر في الظاهر لكل من أظهره ، وهو خطاب في الباطن لكل من عرف من نفسه أنه مصدق للرسول ، وإن كان عاصياً ، وإن كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة ، وذلك أنه إن كان لفظ : (الذين آمنوا) يتناولهم فلا كلام ، وإن كان لم يتناولهم فذلك لذنوبهم ، فلا تكون ذنوبهم مانعة من أمرهم بالحسنات التي إن فعلوها كانت سبب رحمتهم ، وإن تركوها كان أمرهم بها ، وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الايمان ، والكافر يجب عليه أيضاً ، لكن لا يصح منه حتى يؤمن ، وكذلك المنافق المحض لا يصح منه في الباطن حتى يؤمن .

وأما من كان معه أول الايمان ، فهذا يصح منه ، لأن معه إقراره في الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول ، وتحريم ما حرمه ، وهـــذا سبب الصحة ، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار ، فإن هذا الوعد إنما

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ٦

هو لمن فعل المأمور وترك المحظور ، ومن فعل بعضاً وترك بعضاً ، فيثاب على ما فعله ، ويعاقب على ما تركه ، فلا يدخل هذا في اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء ، دون الذم والعقاب . ومن نفى عنه الرسول الايمان ، فنفي الايمان في هذا الحكم ، لأنه ذكر ذلك على سبيل الوعيد . والوعيد إنما يكون بنفي ما يقتضي الثواب ، ويدفع العقاب ، ولهذا ما في الكتاب والسنة من نفي الايمان عن أصحاب الذنوب ، فإنما هو في خطاب الوعيد والذم ، لا في خطاب الأمر والنهي ، ولا أحكام الدنيا .

واسم الاسلام والايمان والاحسان هي أسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها ، فبين النبي ﷺ أن العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذي بينه ، ولهذا كان من نفى عنهم الايمان، أو الإيمان والاسلام جميعاً ، ولم يجعلهم كفاراً ، إنما نفى ذلك في أحكام الآخرة ، وهو الثواب ، ولم ينفعه في أحكام الدنيا . لكن المعتزلة ظنت أنه إذا انتفى الاسم انتفت جميع أجزائه ، فلم يجعلوا معهم شيئاً من الايمان والاسلام ، فجعلوهم مخلدين في النار ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف ، ولو لم يكن معهم شيء من الايمان والاسلام ، لم يثبت في حقهم شيء من أحكام المؤمنين والمسلمين ، لكن كانوا كالمنافقين . وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع التفريق بين المنافق الذي يكذب الرسول في الباطن ، وبين المؤمن المذنب ، فالمعتزلة سوّوا بين أهل الذنوب وبين المنافقين في أحكام الدنيا والآخرة ، في نفي الاسلام والايمان عنهم ، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهراً ، وينفونه عن المذنب باطناً وظاهراً .

فإن قيل : فإذا كان كل مؤمن مسلماً ، وليس كل مسلم مؤمناً الإيمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الأحاديث مع القرآن ، وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف ، لأن الاسلام الطاعات الظاهرة ، وهو الاستسلام

والانقياد، لأن الاسلام في الأصل هو الاستسلام والانقياد ، وهذا هو الانقياد والطاعة ، والإيمان فيه معنى التصديق والطمأنينة ، وهذا قدر زائد ، فما تقولون فيمن فعل ما أمر الله ، وترك ما نهى الله عنه مخلصاً لله تعالى ظاهراً وباطناً ؟ أليس هذا مسلماً باطنا وظاهراً ، وهو من أهل الجنة ، وإذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فهذا يجب أن يكون مؤمناً .

قلنا : قد ذكرنا غير مرة ، أنه لا بد أن يكون معه الإيمان الذي وجب عليه ، إذ لو لم يؤد الواجب ، لكان معرضاً للوعيد ؛ لكن قد يكون من الايمان ما لا يجب عليه إما لكونه لم يخاطب به ، أو لكونه كان عاجزاً عنه ، وهذا أولى ، لأن الايمان الموصوف في حديث جبريل ، والاسلام ، لم يكونا واجبين في أول الاسلام ، بل ولا واجباً على من تقدم قبلنا من الأمم أتباع الأنبياء أهل الجنة ، مع أنهم مؤمنون مسلمون ، ومع أن الاسلام دين الله الذي لا يقبل ديناً غيره ؛ وهو دين الله في الأولين والآخرين ، لأن الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر ، فقد تتنوع أوامره في الشريعة الواحدة ، فضلاً عن الشرائع ، فيصير في الاسلام بعض الايمان بما يخرج عنه في وقت آخر ، كالصلاة إلى الصخرة ، كان من الاسلام حين كان الله أمر به ، ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه .

ومعلوم أن الخمس المذكورة في حديث جبريل ، لم تجب في أول الأمر ، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة ، إنما وجبت بالمدينة ؛ والصلوات [1] الخمس إنما وجبت ليلة المعراج ؛ وكثير من الأحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه إلى سنة تسع أو عشر على أصح القولين ؛ ولما بعث الله محمداً ﷺ ، كان من اتبعه وآمن بما جاء به ، مؤمناً مسلماً ؛ وإذا مات كان من أهل الجنة ، ثم

---

(١) في الأصل : والصلاة .

إنه بعد هذا زاد الايمان والاسلام ، حتى قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم)[1]
وكذلك الايمان ، فان هذا الإيمان المفصل الذي ذكره في حديث جبريل ، لم يكن مأموراً به في أول الأمر لما أنزل الله سورة العلق والمدثر ، بل إنما جاء هذا في السور المدنية ، كالبقرة ، والنساء ؛ واذا كان كذلك لم يلزم أن يكون هذا الايمان المفصل واجباً على من تقدم قبلنا ؛ وإذا كان كذلك ، فقد يكون الرجل مسلماً يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ومعه الايمان الذي فرض عليه ، وهو من أهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور في حديث جبريل ، لكن هذا يقال : معه ما أمر به من الايمان والاسلام ، وقد يكون مسلماً يعبد الله كما أمره ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ؛ ولكن لم يخلص الى قلبه أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب اليه من جميع أهله وماله ؛ وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يخاف الله لا يخاف غيره ؛ وأن لا يتوكل إلا على الله ؛ وهذه كلها من الايمان الواجب ؛ وليست من لوازم الاسلام ؛ فإن الاسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده ؛ والانقياد له ، والعبودية لله وحده ؛ وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه . وأما طمأنينة القلب بمحبته وحده ، وأن يكون أحب اليه مما سواهما ، وبالتوكل عليه وحده ، وبأن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ؛ فهذه من حقائق الايمان التي تختص به ، فمن لم يتصف بها ، لم يكن من المؤمنين حقاً وإن كان مسلماً ، وكذلك وجل قلبه إذا ذكر الله ، وكذلك زيادة الايمان اذا تليت عليه آياته .

فإن قيل : ففوات هذا الايمان من الذنوب أم لا ؟ قيل : اذا لم يبلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك ، لا يكون تركه من الذنوب اذا كان قادراً على ذلك ،

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ٣

وكثير من الناس أو أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التي تدخل في الايمـان ، مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة في الاسلام ، واذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها ؛ وحقائق الايمان التي في القلوب لا يعرفون وجوبها ؛ بل ولا أنهـا من الايمان بل كثير ممن يعرفها منهم ، يظن أنها من النوافل المستحبة إن صدق بوجودها .

فالاسلام يتناول من أظهر الاسلام وليس معه شي من الايمـان ، وهو المنافق المحض ، ويتناول من أظهر الاسلام مع التصديق المجمل في الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا ، وهم الفساق يكون في أحدهم شعبة نفاق ، ويتناول من أتى بالاسلام الواجب ومايلزمه من الايمان ؛ ولم يأت بتمام الايمان الواجب . وهؤلاء ليسوا فساقا تاركون فريضة ظاهرة ، ولا مرتكبون محرماً ظاهراً[1]. لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علماً ، وعملاً بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين . وهذا هو النفاق الذي كان يخافه السلف على نفوسهم . فإن صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق . وبعد هذا ماميز الله به المقربين عـلى الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه ، وذلك قد يكون من باب المستحبات. وقد يكون أيضاً مما فضل الله بـه المؤمن إيماناً وإسلاماً مما وجب عليه ولم يجب على غيره . ولهذا قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »[1] وفي الحديث الآخر: « ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل »[2] فإن مراده أنه لم يبق بعد هذا الانكار مايدخل في الايمـان حتى يفعله المؤمن ؛ بل الانكار بالقلب آخر حدود الإيمان ، ليس مراده أن من لم ينكر ذلك ، لم يكن معه من الايمان حبة خردل ، ولهـذا قال : « ليس وراء ذلك » ، فجعل المؤمنين ثلاث طبقات ، وكل منهم فعل

---

(١) في الاصول كلها : وهؤلاء ليسوا فساقاً تاركون فريضة ولا مرتكبون محرماً ظاهراً ، ولعل الأولى أن يقال : وهؤلاء ليسوا فساقاً تاركين فريضة ولا مرتكبين محرماً ظاهراً .

(١) رواه مسلم (٢) رواه مسلم .

الإيمان الذي يجب عليه ، لكن الأول لما كان أقدرهم ، كان الذي يجب عليه أكمل مما يجب على الثاني ، وكان ما يجب على الثاني أكمل مما يجب على الآخر ، وعلم بذلك أن الناس يتفاضلون في الايمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب إليهم كلهم .

فصل

وأما الاستثناء في الإيمان بقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ، فالناس فيه على ثلاثة أقوال : منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين ؛ وهذا أصح الأقوال ، فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ، ممن يجعل الايمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه ، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه ؛ فيقول أحدهم : أنا أعلم أني مؤمن ، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، وكما أعلم أني قرأت الفاتحة ، وكما أعلم أني أحب رسول الله ؛ وأني أبغض اليهود والنصارى . فقولي : أنا مؤمن كقولي : أنا مسلم ، وكقولي : تكلمت بالشهادتين، وقرأت الفاتحة ، وكقولي : أنا أبغض اليهود النصارى ، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها ، وكما أنه لايجوز أن يقال : أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله ، كذلك لا يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول : فعلته إن شاء الله ، قالو : فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة .

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان :

أحدهما : أن الايمان هو ما مات عليه الإنسان ؛ والانسان إنما يكون عند الله مؤمناً وكافراً ، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه ، وماقبل ذلك لا عبرة به . قالوا : والايمان الذي يتعقبه الكفر ، فيموت صاحبه كافراً ، ليس بأيمان ، كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال ؛ وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب ، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا في الكفر ، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث ، من قولهم : أنا مؤمن إن شاء الله ؛ ويريد مع ذلك أن الايمان لا يتفاضل ؛ ولا يشك الانسان في الموجود منه ، وإنما يشك في المستقبل ، وانضم إلى ذلك أنهم يقولون : محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم . ثم هل ذلك هو الارادة أم صفات أخر ؟ لهم في ذلك قولان : وأكثر قدمائهم يقولون : إن الرضى والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هي الارادة ، كما أن السمع والبصر ليس هو العلم ، وكذلك الولاية والعداوة . هذه كلها صفات قديمة أزلية عند أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين ، ومن أتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم .

قالوا : والله يحب في أزله من كان كافراً إذا علم أنه يموت مؤمنا . فالصحابة مازالوا محبوبين لله وإن كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر ، وإبليس مازال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد . وهذا على أحد القولين لهم ، فالرضى والسخط يرجع إلى الارادة ، والارادة تطابق العلم . فالمعنى : ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد إيمانهم ، ويعاقب إبليس بعد كفره . وهذا معنى صحيح . فإن الله يريد أن يخلق كل ما علم أن سيخلقه . وعلى قول من يثبتها صفات أخر ، يقول : هو أيضاً حبه تابع لمن يريد أن يثيبه . فكل من أراد إثابته فهو يحبه

وكل من أراد عقوبته فإنه يبغضه ، وهذا تابع للعلم . وهؤلاء عندهم لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطاً عليه ، ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه ، بل مازال يفرح بتوبته . والفرح عندهم إما الارادة وإما الرضى . والمعنى مازال يريد إثابته أو يرضى عما يريد إثابته . وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيـــامة دون ماقبله . بل غضبه قديم إما بمعنى الارادة ، وإما بمعنى آخر .

• فهؤلاء يقولون : اذا علم أن الانسان يموت كافراً ، لم يزل مريداً لعقوبته . فذاك الايمان الذي كان معه ، باطل لا فائدة فيه ، بل وجوده كعدمه . فليس هذا بمؤمن أصلاً ، وإذا علم أنه يموت مؤمناً ، لم يزل مريداً لإثابته ، وذاك الكفر الذي فعله وجوده كعدمة . فلم يكن هذا كافراً عندهم أصلاً . فهؤلاء يستثنون في الايمـــان بناء على هذا المأخـذ ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر ، مثل أبي منصور الماتريدي ، فإن ماذكروه مطرد فيهما . ولكن جماهير الأئمة على أنه لا يستثنى في الكفر ، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : نستثني في الايمان رغبة الى الله في أن يثبتنا عليه إلى الموت ، والكفر لا يرغب فيه أحد . لكن يقال : إذا كان قولك : مؤمن ، كقولك : في الجنة . فأنت تقول عن الكافر : هو كافر . ولا تقول : هو في النار ، إلا معلقاً بموته على الكفر ، فدل على أنه كافر في الحال قطعاً . وإن جاز أن يصير مؤمناً ، كذلك المؤمن . وسواء أخبر عن نفسه أو عن غيره . فلو قيل عن يهودي أو نصراني : هذا كافر ، قال : إن شاء الله ؛ إذا لم يعـلم أنه يموت كافراً ؛ وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحداً مؤمناً إلا إذا علم أنه يموت عليه ؛ وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الأئمة ، لكن ليس هذا قول أحد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان أحد

من السلف الذين يستثنون في الايمان ، يعللون بهذا ، لا أحمد ولا من قبله .

ومأخذ هذا القول ، طرده طائفة ممن كانوا في الأصل يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف ، وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان أهل الشام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف الفريابي صاحب الثوري مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط في سبيل الله ، وكانوا يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف ؛ واستثنوا أيضاً في الأعمال الصالحة ، كقول الرجل : صليت إن شاء الله ونحو ذلك ، بمعنى القبول ، لما في ذلك من الآثار عن السلف . ثم صار كثير من هؤلاء بآخرة يستثنون في كل شيء ، فيقول : هذا ثوبي إن شاء الله ، وهذا حبل إن شاء الله . فإذا قيل لأحدهم : هذا لا شك فيه ؛ قال : نعم لا شك فيه ؛ لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره ، فيريدون بقولهم: إن شاء الله جواز تغييره في المستقبل ، وإن كان في الحال لا شك فيه ، كأن الحقيقة عندهم التي لا يستثنى فيها ما لم تتبدل ، كما يقوله أولئك في الايمان : إن الايمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه .

لكن هذا القول . قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض أتباع شيخهم ، وشيخهم الذي ينتسبون إليه يقال له : أبو عمرو عثمان بن مرزوق ، لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء ، بل كان الاستثناء على طريقة من كان قبله ؛ ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه بعده ، وكان شيخهم منتسباً إلى الامام أحمد ، وهو من أتباع عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج المقدسي ، وأبو الفرج من تلامذة القاضي أبي يعلى . وهؤلاء كلهم وإن كانوا منتسبين إلى الامام أحمد ، فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذي كان أحمد ينكره على الكلابية ، وأمر بهجر الحارث المحاسبي من أجله ، كما وافقه على أصله طائفة من

أصحاب مالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، كأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي منصور الماتريدي ، وغيرهم ، وقول هؤلاء في مسائل متعددة من مسائل الصفات ، وما يتعلق بها ، كمسألة القرآن ، هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ أم القرآن لازم لذاته ؟ وقولهم في الاستثناء مبني على ذلك الأصل .

وكذلك بناه الأشعري وأتباعه عليه ، لأن هؤلاء كلهم كلابية ، يقولون : إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد إيمانه وكفره . ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته . ولهذا وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ثم قالوا : إنه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته . ثم اختلفوا بعد هذا في القديم ، أهو معنى واحد ؟ أم حروف قديمة مع تعاقبها ؟ كما بسطت أقوالهم وأقوال غيرهم في مواضع أخر .

وهذه الطائفة المتأخرة ، تنكر أن يقال : قطعاً في شيء من الأشياء ، مع غلوهم في الاستثناء ، حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم ، وإن قطعوا بالمعنى فيجزمون بأن محمداً رسول الله ، وأن الله ربهم ، ولا يقولون : قطعاً ، وقد اجتمع بي طائفة منهم ، فأنكرت عليهم ذلك ، وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعاً ، وأحضروا لي كتاباً فيه أحاديث عن النبي ﷺ ، أنه نهى أن يقول الرجل : قطعاً ، وهي أحاديث موضوعة مختلقة ، قد افتراها بعض المتأخرين .

والمقصود هنا أن الاستثناء في الايمان ، لما علل مثل تلك العلة ، طرد أقوام تلك العلة في الأشياء التي لا يجوز الاستثناء فيها بإجماع المسلمين ، بناء على أن الأشياء الموجودة الآن ، إذا كانت في علم الله تتبدل أحوالها ، فيستثنى في صفاتها الموجودة في الحال ، ويقول : هذا صغير إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله كبيراً ويقول : هـذا مجنون إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله عاقلا ، ويقول للمرتد : هذا كافر إن شاء الله

لإمكان أن يتوب . وهؤلاء الذين استثنوا في الايمان بناء على هذا المأخذ ، ظنوا هذا قول السلف . وهؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام ، ينصرون ما ظهر من دين الاسلام ، كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين ، فينصرون إثبات الصانع ، والنبوة ، والمعاد ، ونحو ذلك . وينصرون مع ذلك ما ظهر من مذاهب أهل السنة والجماعة ، كما ينصر ذلك الكلابية ، والكرامية ، والأشعرية ، ونحوهم ، فينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يرى في الآخرة ، وأن أهل القبلة لا يكفرون بالذنب ، ولا يخلدون في النار ، وأن النبي ﷺ له شفاعة في أهل الكبائر ، وأن فتنة القبر حق ، وعذاب القبر حق ، وحوض نبينا ﷺ في الآخرة حق . وأمثال ذلك من الأقوال التي شاع أنها من أصول أهل السنة والجماعة . كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة ، وفضيلة أبي بكر وعمر ونحو ذلك .

وكثير من أهل الكلام في كثير مما ينصره لا يكون عارفا بحقيقة دين الاسلام في ذلك ، ولا ما جاءت به السنة . ولا ما كان عليه السلف . فينصر ما ظهر من قولهم ، بغير المآخذ التي كانت مآخذهم في الحقيقة ، بل بمآخذ أخر قد تلقوها عن غيرهم من أهل البدع ، فيقع في كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ماذم به السلف ، مثل هذا الكلام وأهله ، فإن كلامهم في ذم مثل هذا الكلام كثير . والكلام المذموم ، هو المخالف للكتاب والسنة ، وكل ما خالف الكتاب والسنة ، فهو باطل ، وكذب ، فهو مخالف للشرع والعقل ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) [1] ، فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة أنهم يستثنون في الايمان ، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جعل الايمان هو ما يموت العبد عليه ، وهو ما يوافي به العبد ربه ؛ ظنوا أن الايمان عند السلف هو هذا ؛ فصاروا يحكون

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٥

هذا عن السلف ؛ وهذا القول لم يقل به أحد من السلف ؛ ولكن هؤلاء حكوه عنهم ، بحسب ظنهم: لما رأوا أن قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل ، وهم يدعون أن مانصروه من أصل جهم في الايمان ؛ هو قول المحققين والنظار من أصحاب الحديث. ومثل هذا يوجد في الايمان كثيرا في مذاهب السلف التي خالفها بعض النظار ، وأظهر حجته في ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف ؛ فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف ، أو من يعظمهم ، لما يراه من تميزهم عليه : هذا قول المحققين. وقال المحققون : ويكون ذلك من الأقوال الباطلة ، المخالفة للعقل مع الشرع ؛ وهذا كثيرا ما يوجد في كلام بعض المبتدعين ، وبعض الملحدين ، ومن آتاه الله علما وإيمانا ؛ علم أنه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق ، إلا ما هو دون تحقيق السلف ، لا في العلم ولا في العمل ، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات ، وبالعمليات ، علم أن مذهب الصحابة دائما أرجح من قول من بعدهم ، وأنه لا يبتدع أحد قولا في الاسلام ، إلا كان خطأ ، وكان الصواب قد سبق إليه من قبله.

قال أبو القاسم الأنصاري ، فيما حكاه عن أبي إسحاق الاسفرائيني ، لما ذكر قول أبي الحسن وأصحابه في الايمان ، وصحح أنه تصديق القلب قال : ومن أصحابنا ؛ من قال بالموافاة ، وشرط في الايمان الحقيقي أن يوافي ربه به ، ويختم عليه. ومنهم من لم يجعل ذلك شرطا فيه في الحال.

قال الأنصاري : لما ذكر أن معظم أئمة السلف ، كانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح قال : الأكثرون من هؤلاء على القول بالموافاة. ومن قال بالموافاة ، فإنما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من أهل الجنة. وأما من ورد الخبر بأنه من أهل الجنة ، فإنه يقطع على إيمانه ، كالعشرة من الصحابة. ثم قال : والذي اختاره المحققون ؛ أن الايمان هو التصديق. وقد

ذكرنا اختلاف أقوالهم في الموافاة ؛ وأن ذلك هل هو شرط في صحة الايمان وحقيقته في الحال ، وكونه معتدا عند الله به وفي حكمه ، فمن قال : إن ذلك شرط فيه ، يستثنون في الاطلاق في الحال ؛ لا أنهم يشكون في حقيقة التوحيد والمعرفة ؛ لكنهم يقولون : لا يدري أي الايمان الذي نحن مؤمنون به في الحال ، هل هو معتد به عند الله ؟ على معنى أنا ننتفع به في العاقبة ، ونجتني من ثماره .

فإذا قيل لهم : أمؤمنون أنتم حقا ؟ أو تقولون إن شاء الله ؟ أو تقولون نرجو ؟ فيقولون نحن مؤمنون إن شاء الله ، يعنون بهذا الاستثناء ، تفويض الأمر في العاقبة إلى الله سبحانه وتعالى ، وإنما يكون الايمان إيماناً معتدا به في حكم الله ، إذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة ، وإذا كان صاحبه — والعياذ بالله — في حكم الله من الأشقياء ، يكون إيمانه الذي يحل به في الحال عارية . قال : ولا فرق عند الصائرين الى هذا المذهب ، بين أن يقول : أنا مؤمن من أهل الجنة قطعا ؛ وبين أن يقول أنا مؤمن حقاً .

قلت : هذا انما يجيء على قول من يجعل الايمان متناولا لأداء الواجبات وترك المحرمات ؛ فمن مات على هذا كان من أهل الجنة ، وأما على قول الجهمية والمرجئة ، وهو القول الذى نصره هؤلاء ، الذين نصروا قول جهم ، فإنة يموت على الايمان قطعاً ، ويكون كامل الايمان عندهم ، وهو مع هذا عندهم من أهل الكبائر الذين يدخلون النار ، فلا يلزم إذا وافى بالايمان ، أن يكون من أهل الجنة ، وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده ، لأن الله وعد المؤمنين بالجنه . وكذلك قالوا : لا سيما والله سبحانه وتعالى يقول : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات)[1] الآية . قال : فهؤلاء — يعني القائلين بالموافاة جعلوا الثبات على هذا التصديق ، والايمان الذين وصفناه إلى

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ٧٢

العاقبة والوفاء به في المآل شرطا في الايمان شرعا ، لا لغة ، ولا عقلا . قال : وهذا مذهب سلف أصحاب الحديث والأكثرين ؛ قال : وهو اختيار الإمام أبي بكر بن فورك ، وكان الامام محمد بن إسحاق بن خزيمة يغلو فيه ، وكان يقول : من قال : أنا مؤمن حقاً فهو مبتدع .

وأما مذهب سلف أصحاب الحديث ، كابن مسعود وأصحابه ، والثوري وابن عيينة ، وأكثر علماء الكوفة ، ويحيي بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة ، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، فكانوا يستثنون في الايمان ، وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس في هؤلاء من قال : أنا أستثني لأجل الموافاة ، وإن الايمان ، إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه ؛ بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الايمان يتضمن فعل الواجبات ، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى ؛ فإن ذلك بما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم ؛ كما سنذكر أقوالهم إن شاء الله في ذلك .

وأما الموافاة ؛ فما علمت أحدا من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثير من المتأخرين ، يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم؛ كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري ، وأكثر أصحابه ، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث ، ثم قال :

فإن قال قائل : إذا قلتم إن الايمان المأمور به في الشريعة ، هو ما وصفتموه بشرائط ، وليس ذلك متلقى من اللغة ، فكيف يستقيم قولكم إن الإيمان لغوي ؟ قلنا الايمان هو التصديق لغة وشرعا ، غير أن الشرع ضم إلى التصديق أوصافا وشرائط : بمجموعها يصير مجزيا مقبولا كما قلنا في الصلاة والصوم والحج ونحوها ، والصلاة في اللغة : هو الدعاء غير أن الشرع ضم اليها شرائط .

فيقال : هذا يناقض ما ذكروه في مسمى الإيمان ، فإنهم لما زعموا أنه في اللغة التصديق ، والشرع لم يغيره ، أوردوا على أنفسهم .

فإن قيل : أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة ، مستعملة في غير مذهب أهلها . قلنا : قد اختلف العلماء في ذلك ، والصحيح أنها مقررة على استعمال أهل اللغة ، ومبقاة على مقتضياتها ، وليست منقولة ، إلا أنها زيد فيها أمور ، فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقولة ، أو محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به ، فعليه إقامة الدليل على وجود ذلك في الايمان ، فإنه لا يجب إزالة ظواهر القرآن بسبب إزالة ظاهر منها .

فيقال : أنتم في الاستثناء جعلتم الشرع زاد فيه ، وجعلتموه كالصلاة والزكاة ، مع أنه لا يمكن أحداً أن يذكر من الشرع دليلا ، على أن الايمان لا يسمى به ، إلا الموافاة به وبتقدير ذلك ، فمعلوم أن دلالة الشرع على ضم الأعمال اليه أكثر وأشهر ، فكيف لم تدخل الأعمال في مسماه شرعا ؟ وقوله : لا بد من دليل مقطوع به ، عنه جوابان ، (أحدهما) : النقض بالموافاة ؛ فإنه لا يقطع فيه ، (الثاني) : لا نسلم ، بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله ونحو ذلك ، داخل في مسمى الايمان في كلام الله ورسوله أعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج ، كمسائل النزاع . ثم أبو الحسن ، وابن فورك ، وغيرهما من القائلين بالموافاة ، وهم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئاً ، بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الايمان ؛ فقد فقد من قلبه التصديق ، قال : ومن أصحابنا من لم يجعل الموافاة على الايمان شرطا في كونه إيمانا حقيقيا في الحال ، وإن جعل ذلك شرطا في استحقاق الثواب عليه ، وهـذا مذهب المعتزلة والكرامية ، وهو اختيار أبي إسحاق الاسفرائيني ، وكلام القاضي يدل عليه ، قال : وهو اختيار شيخنا أبي المعالي ، فإنه قال : الايمان ثابت في الحال قطعاً لاشك

فيه ، ولكن الايمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة ، إيمان الموافاة ؛ فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء ، ولم يقصدوا الشك في الايمان الناجز . قال : ومن صار إلى هذا يقول : الايمان صفة يشتق منها اسم المؤمن ، وهو المعرفة والتصديق ؛ كما أن العالم يشتق من العلم ، فإذا عرفت ذلك من نفسي ، قطعت به كما قطعت بأني عالم وعارف ومصدق ، فإن ورد في المستقبل ما يزيله ، خرج إذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف ، ولا يقال : تبينا أنه لم يكن إيمانا مأموراً به ، بل كان إيمانا مجزيا ، فتغير وبطل . وليس كذلك قوله : أنا من أهل الجنة ، فإن ذلك مغيب عنه ، وهو مرجو ، قال : ومن صار إلى القول الأول يتمسك بأشياء منها أن يقال: الايمان عبادة العمر ، وهو كطاعة واحدة ، فيتوقف صحة أولها على سلامة آخره ؛ كما يقول في الصلاة والصيام والحج ؛ قالوا : ولا شك أنه لا يسمى في الحال ولياً ، ولا سعيداً ، ولا مرضياً عند الله ؛ وكذلك الكافر لا يسمى في الحال عدو الله ، ولا شقيا ، إلا على معنى أنه تجري عليه أحكام الأعداء في الحال ، لإظهاره من نفسه علامتهم .

قلت : هذا الذي قالوه ، إنه لا شك فيه ، هو قول ابن كلاب والأشعري وأصحابه ، ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم ، وأما أكثر الناس فيقولون : بل هو إذا كان كافراً ، فهو عدو الله ، ثم إذا آمن واتقى ، صار وليا لله ؛ قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم) [1] ، إلى قوله : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) [2] ، وكذلك كان ، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح ، آمن أكثرهم ، وصاروا من أولياء الله ورسوله ، وابن كلاب وأتباعه ، بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات

---

(١) سورة الممتحنه ، الاية : ١ (٢) سورة الممتحنة ، الاية : ٧

الله ، هي الارادة والمحبة والرضا ونحو ذلك . فمعناها إرادة ثابتة بعد الموت ؛ وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم أنه يموت مؤمنا ، لم يزل وليا لله ؛ لأنه لم يزل الله مريدا لإدخاله الجنة ، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور فيقولون : الولاية والعداوة وان تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه ، فهو سبحانه يرضى عن الانسان ويحبه ، بعد أن يؤمن ويعمل صالحاً ؛ وإنما يسخط عليه ويغضب ، بعد أن يكفر ، كما قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) [1] ؛ فأخبر أن الأعمال أسخطته ؛ وكذلك قال : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) [2] ، قال المفسرون : أغضبونا وكذلك قال الله تعالى : (وان تشكروا يرضه لكم) [3] : وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ؛ ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ، حتي أحبه ؛ فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » [4] .

فأخبر أنه : لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ، ثم قال : فإذا أحببته :

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٢٨ (٢) سورة الزخرف ، الآية : ٥٥

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٧

(٤) رواه البخاري، وقد تكلم الذهبي وغيره في سنده ، لكن ذكر الحافظ بن حجر له شواهد في « فتح الباري » فلتراجع اسانيدها ومتونها ، لينظر هل تشهد للحديث بتمامه أم لبعض فقراته ، وهل أسانيدها سالمة من الضعف الشديد الذي لا يستشهد به . ولعلنا نوفق لذلك إن شاء الله .

كنت كذا ، كنت كذا . وهذا بين في أن حبه لعبده بعد أن يأتي بمحابه . والقرآن قد دل على مثل ذلك ، قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)[1] ، فقوله : (يحببكم) ، جواب الأمر في قوله : فاتبعوني ، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ، ولهذا جزم ، وهذا ثواب عملهم ، وهو اتباع الرسول ، فأثابهم على ذلك بأن أحبهم ؛ وجزاء الشرط ، وثواب العمل ، ومسبب السبب ، لا يكون إلا بعده ، لا قبله ، وهذا كقوله تعالى : (ادعوني أستجب لكم)[2] وقوله تعالى: (يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)[3] ؛ وقوله تعالى : (اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم)[4] ، ومثل هذا كثير ، و كذلك قوله : (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ان الله يحب المتقين)[5] ، وقوله : (لم تقولون مالا تفعلون ؛ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)[6] ؛ وكانوا قد سألوه : لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه ، وقوله: (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون)[7] ؛ فهذا يدل على أن حبه ومقته ، جزاء لعملهم ؛ وأنه يحبهم إذا اتقوا وقاتلوا ؛ ولهذا رغبهم في العمل بذلك ؛ كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به ؛ وجزاء العمل بعد العمل ، و كذلك قوله : (إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون)[7] ؛ فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون إلى الايمان فيكفرون ؛ ومثل هذا قوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١
(٢) سورة غافر ، الاية : ٦٠
(٣) سورة الأحقاف ، الاية : ٣١
(٤) سورة الأحزاب ، الايتان ، ٧٠ ، ٧١
(٥) سورة التوبة ، الآية : ٤
(٦) سورة الصف ، الآيات : ٢ - ٤
(٧) سورة غافر ، الآية : ١٠

قريباً) [١] ؛ فقوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك) [١] ؛ بين أنه رضي عنهم هذا الوقت ، فإن حرف (إذ) ظرف لما مضى من الزمان ؛ فعلم أنه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل ، وأثابهم عليه ، و المسبب لا يكون قبل سببه ، والموقت بوقت لم يكن قبل وقته ؛ وإذا كان راضياً عنهم من جهة ، فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ ، كما ثبت في الصحيح ، أنه يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ؛ فيقولون : يا ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك ، فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك ؛ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً ؛ وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان ، الذي لا يتعقبه سخط أبداً ؛ ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط .

«وفي الصحيحين» في حديث الشفاعة يقول : كل من الرسل : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وفي «الصحاح» : عن النبي ﷺ ، من غير وجه أنه قال : لله أشد فرحا بتوبة عبده ، من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة ، عليها طعامه وشرابه ، يطلبها فلم يجدها ؛ فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه ؛ وفي رواية كيف تجدون فرحه بها ؟ قالوا : عظيما يا رسول الله ؛ قال : لله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته ، وكذلك ضحكه إلى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ؛ وضحكه إلى الذي يدخل الجنة آخر الناس ، ويقول أتسخر بي وأنت رب العالمين ؛ فيقول : لا ولكني على ما أشاء قادر ، وكل هذا في «الصحيح» .

وفي دعاء القنوت [٢] : (تولني فيمن توليت) [٢] ، والقديم لا يتصور طلبه ،

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٨

(٢) يعني في الوتر ، والحديث بذلك صحيح : واما الدعاء به في الصبح فلا أصل له ، وإنما يدعى فيه وفي سائر الصلوات الخمس لنازلة بما يناسبها .

وقد قال تعالى : (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) [١] ؛ وقال : (والله ولي المتقين) [٢] ؛ فهذا التولي لهم ، جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه ؛ فلا يكون متقدما عليه ، وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه ؛ لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين ، فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ؛ ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهكذا الرحمة ، قال صلى الله عليه وسلم : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) ، قال الترمذي : حديث صحيح [٣] . وكذلك قوله : (ان تشكروا يرضـه لكم) [٤] ؛ علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب ، والجزاء إنما يكون بعد الشرط ، وكذلك قوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) [٥] ؛ يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد ، وكذلك قوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [٦] ؛ « فإذا » ظرف لما يستقبل من الزمان ، فدل على أنه إذا أراد كونه ، قال له : كن ، فيكون ، وكذلك قوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) [٧] ؛ فبين فيه أنه سيرى ذلك في المستقبل إذا عملوه .

والمـأخذ الثاني في الاستثناء ، أن الإيمان المطلق ، يتضمن فعل ما أمر الله به

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦ (٢) سورة الجاثية ، الآية : ١٩

(٣) قلت : وصححه ايضا ابو الفتح الخزقي والعراقي وابن ناصر الدين الدمشقي وفي اسناده ابو قابوس ولا يعرف كما قال الذهبي . لكن قال ابن ناصر الدين : « وله متابع ، رويناه في مسند احمد بن حنبل وعبد بن حميد من حديث أبي خداش حبان ابن زيد الشرعبي الحمصي أحد الثقات عن عبد الله بن عمرو بمعناه » والله اعلم .

(٤) سورة الزمر ، الآية : ٧ (٥) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

(٦) سورة يس ، الآية : ٨٢ (٧) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥

عبده كله ؛ وترك المحرمات كلها ؛ فإذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه ، بأنه من الأبرار المتقين ، القائمين بفعل جميع ما أمروا به ؛ وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله ؛ وهذا من تزكية الإنسان لنفسه ، وشهادته لنفسه بما لا يعلم ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة ؛ فشهادته لنفسه بالايمان شهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال ؛ وهذا مأخذ عامة السلف ، الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر ، كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

قال الخلال في كتاب السنة : حدثنا سليمان بن الأشعث ، يعني أبا داود السجستاني ، قال : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، قال له رجل : قيل لي أمؤمن أنت ؟ قلت نعم ؛ هل علي في ذلك شيء ؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر ؟ فغضب أحمد ، وقال : هذا كلام الإرجاء ؛ قال الله تعالى : (وآخرون مرجون لأمر الله) [1] من هؤلاء ، ثم قال أحمد : أليس الايمان قولا وعملا ، قال له الرجل : بلى . قال : فجئنا بالقول . قال : نعم قال : فجئنا بالعمل . قال : لا . قال : فكيف تعيب أن يقول : إن شاء الله ويستثني .

قال أبو داود : أخبرني أحمد بن أبي شريح ، أن أحمد بن حنبل ، كتب إليه في هذه المسألة ، أن الايمان قول وعمل ، فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل ، فنحن نستثني في العمل . ذكر الخلال ، هذا الجواب ، من رواية الفضل بن زياد . وقال : زاد الفضل : سمعت أبا عبد الله يقول : كان سليمان بن حرب ، يحمل هذا على التقبل ؛ يقول : نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا ؟

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٦

قلت : والقبول متعلق بفعله كما أمر . فكل من اتقى الله في عمله ، ففعله كما أمر ، فقد تقبل منه . لكن هو لا يجزم بالقبول ، لعدم جزمه بكمال الفعل ، كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة)[1] ؛ قالت عائشة : يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : لا يا بنت الصديق ، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه[2] .

وروى الخلال ، عن أبى طالب قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لا نجد بداً من الاستثناء ، لأنهم إذا قالوا : مؤمن ، فقد جاء بالقول . فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول .

وعن إسحاق بن ابراهيم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : أذهب الى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الايمان أن الايمان قول وعمل ، والعمل الفعل ، فقد جئنا بالقول ، ونخشى أن نكون فرطنا في العمل ؛ فيعجبنى أن يستثني في الايمان بقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، قال : وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي ﷺ « وإنا ان شاء الله بكم لاحقون» الاستثناء ههنا على أي شيء يقع ؟ قال : على البقاع ، لايدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره .

وعن الميموني أنه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في : مؤمن ان شاء الله . قال : أقول : مؤمن ان شاء الله ، ومؤمن أرجو ، لأنه لا يدري كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا . ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله ، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات ، المستحق للجنة اذا مات على ذلك ، وان المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن ؛

---

(١) سورة المؤمنين ، الاية : ٦٠

(٢) اخرجه الترمذي واحمد وصححه الحاكم ووافقه الذهبي

وان المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله ، فإذا قال : أنا مؤمن قطعا ، كان كقوله: أنا بر تقي ولي الله قطعاً .

وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره : أمؤمن أنت ؟ ويكرهون الجواب ؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر ؛ بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسول ، فيقول : أنا مؤمن ، فيثبت أن الايمان هو التصديق ، لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم ، بأنك فعلت كل ماأمرت به ؛ فلما علم السلف مقصدهم ، صاروا يكرهون الجواب ، أو يفصلون في الجواب ؛ وهذا لأن لفظ الايمان فيه إطلاق وتقييد ، فكانوا يجيبون بالايمان المقيد الذي لايستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال : أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك ، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه .

وقال المروزى : قيل لأبي عبد الله نقول : نحن المؤمنون ؟ فقال نقول : نحن المسلمون ، وقال أيضاً : قلت لأبي عبد الله : نقول إنا مؤمنون ؟ قال : ولكن نقول : إنا مسلمون ؛ ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الايمان مجرد القول ، بل تركه لما يعلم أن في قلبه إيماناً ، وإن كان لايجزم بكمال إيمانه ؟

قال الخلال : أخبرني أحمد بن أصرم المزني ، أن أبا عبد الله قيل له : إذا سألني الرجل فقال : أمؤمن أنت ؟ قال سؤالك إياي بدعة ، لايشك في إيمانه ، أو قال لا نشك في إيماننا .

قال المزني : وحفظي أن أبا عبد الله قال : أقول كما قال طاوس : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل، وأبو داود، قال أبو داود: سمعت أحمد : قال: سمعت سفيان - يعني ابن عيينه - يقول : إذا سئل أمؤمن أنت ؟ لم يجبه ، ويقول : سؤالك اياي بدعة ، ولا أشك في ايماني ، وقال : ان قال : ان شاء الله ، ليس يكره ، ولا يداخل الشك ، فقد أخبر عن أحمد فـــال : لانشك في ايماننا ، وأن السائل لا يشك في ايمان المسؤول ، وهـذا أبلغ ، وهو انمـا يجزم ، بـأنه مقر مصدق ، بما جاء به الرسول ، لايجزم بأنه قائم بالواجبات .

فعلم أن أحمد وغيره من السلف ، كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما فى القلب ، من الايمان في هذه الحال ، ويجعلون الاستثناء عائداً الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه ، وهذا مأخذ ثان ، وان كنا لانشك فيما في قلوبنا من الايمان ، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة ، لما فيه من الحكمه .

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال: سألت أبا عبد الله عن الاستثناء في الايمان فقال : نعم ، الاستثناء على غير معنى شك ، مخافة واحتياطاً للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره ، وهو مذهب الثوري . قال الله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله)[1] وقال النبي ﷺ لأصحابه : « اني لأرجو أن أكون أتقاكم لله » . وقال في الميت : « وعليه تبعث ان شاء الله » فقد بين أحمد أنـه يستثني مخـافة واحتياطاً للعمل ، فإنه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به ، فيحتاط بالاستثناء

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

وقال على غير معنى شك، يعني من غير شك مما يعلمه الانسان من نفسه، وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف ان لا يكون كمله ؛ فيخاف من نقصه ، ولا يشك في أصله.

قال الخلال : وأخبرني محمد بن أبي هارون : أن حبيش بن سندي ، حدثهم في هذه المسألة . قال أبو عبد الله قول النبي ﷺ حين وقف على المقابر فقال : (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقد نعيت إليه نفسه ، وعلم أنه صائر إلى الموت ، وفي قصة صاحب القبر[1] « عليه حييت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله » وفي قول النبي ﷺ « إني اختبأت دعوتي ، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً » [2] وفي مسألة الرجل النبي ﷺ : احدنا يصبح جنباً ، يصوم ؟ فقال : « إني إفعل ذلك ثم اصوم » فقال : إنك لست مثلنا انت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله » [3] . وهذا كثير، وأشباهه على اليقين .

قال : ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان ، فقال له : قول وعمل ، يزيد وينقص . فقال له : أقول : أمؤمن إن شاء الله ؟ قال : نعم . فقال له : إنهم يقولون لي إنك شاك ؛ قال : بئس ما قالوا ، ثم خرج فقال : ردوه فقال : أليس يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص؟ قال : نعم، قال: هؤلاء يستثنون . قال له : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : قل لهم : زعمتم أن الايمان قول وعمل ، فالقول قد أتيتم به ، والعمل لم تأتوا به ، فهذا الاستثناء لهذا العمل ، قيل له يستثني في الايمان؟ قال : نعم ، أقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، استثني على اليقين لا على الشك ؛ ثم قال: قال الله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) [4] فقد أخبر الله تعالى

---

(١) يعني السؤال في القبر . والحديث صحيح .

(٢) متفق عليه

(٣) رواه مسلم وتقدم (٢٠٨)

(٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٧ .

أنهم داخلون المسجد الحرام .

فقد بين أحمد في كلامه أنه يستثني مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه ، يقوله بلسانه وقلبه ، لايشك في ذلك ، ويستثني لكون العمل من الإيمان ؛ وهو لايتيقن أنه أكمله بل يشك في ذلك ، فنفى الشك وأثبت اليقين ، فيما يتيقنه من نفسه ، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده ، وبين أن الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به ام لا ، وهو جائز أيضاً لما يتيقنه ، فلو استثنى لنفس الموجود في قلبه جاز ، كقول النبي ﷺ : « والله اني لأرجو أن أكون أخشاكم لله » وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل ، وهو كونه أخشانا ، فإنه لايرجوا أن يصير اخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله . كما يرجو المؤمن اذا عمل عملاً ان يكون الله تقبله منه ويخاف أن لايكون يقبله منه ، كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) [1] وقال النبي ﷺ « هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه » [2] والقبول هو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه ، وذلك أن ماله عاقبة مستقبلة محمودة أو مذمومة ، والانسان يجوز وجوده وعدمه . يقال : إنه يرجوه وانه يخافه ، فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة ، فهو يرجو أن يكون الله يقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه في المستقبل ، ويخاف أن لايكون يقبله فيحرم ثوابه ، كما يخاف أن يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها .

واذا كان الانسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله في حاجته يقضيها في بعض الأوقات فإذا مضى ذلك الوقت يقول أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الامر ، وقضاؤه ماض ، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل . ويقول الانسان في الوقت الذي جرت عادة الحاج بدخولهم الى

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠ (٢) تقدم في صفحة : ٣٨٢

مكة : أرجو أن يكونوا دخلوا ، ويقول في سرية بعثت الى الكفار : نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ، ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه : نرجو أن يكون قد صعد النيل ، كما يقول الحاضر في مصر مثل هـذا الوقت : نرجو أن يكون النيل هذا العام نيلاً مرتفعاً ، ويقال لمن له أرض يحب أن تمطر : إذا مطرت بعض النواحي أرجو أن يكون المطر عاماً ، وأرجو أن يكون قد مطرت الأرض الفلانية ، وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره .

وهذا يتعلق بالعلم ، والعلم بذلك مستقبل ، فإذا علم أن المسلمين انتصروا ، والحاج قد دخلوا ، أو المطر قد نزل ، فرح بذلك وحصل به مقاصد أخر له ، واذا كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب ، فيقول : أرجو وأخاف ، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل ، وكذلك المطلوب بالايمان من السعادة والنجاة ، هو أمر مستقبل فيستثنى ، في الحاضر بذلك ، لأن المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل ، تعلق بمشيئة الله وإن جزم بوجوده ، لأنه لا يكون مستقبل إلا بمشيئة الله .

فقولنا : يكون هذا إن شاء الله ، حق ، فإنه لا يكون إلا إن شاء الله ، والشك واللفظ ليس فيه إلا التعليق ، وليس من ضرورة التعليق الشك . بل هـذا بحسب علم المتكلم ، فتارة يكون شاكاً ، وتارة لا يكون شاكا ، فلما كان الشك يصحبها كثيراً لعدم علم الإنسان بالعواقب ، ظن الظان أن الشك داخل في معناها ، وليس كذلك . فقوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) [1] لا يتصور فيه شك من الله ؛ بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ، ولهذا قال ثعلب : هذا استثناء من الله وقد علمه ، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون . وقال أبو عبيدة وابن قتيبة : (إن)

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

بمعنى إذ ، أي : إذ شاء الله ، ومقصودهم بهذا تحقيق الفعل :(إن) كما يتحقق مع إذ ،وإلا فإذا ، ظرف توقيت ، و (إن) حرف تعليق .

فإن قيل : فالعرب تقول :إذا احمر البسر فأتني ، ولا تقول : إن احمر البسر.

قيل : لأن المقصود هنا توقيت الإتيان بحين احمراره ، فأتوا بالظرف المحقق ، ولفظ:(إن) لايدل على توقيت، بل هي تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالأول، ونظير ما نحن فيه أن يقولوا : البسر يحمر ويطيب إن شاء الله ، وهذا حق ، فهذا نظير ذلك .

فإن قيل : فطائفة من الناس فروا من هـــذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه ، فقال الزجاج : (لتدخلن المسجد الحرام)[1] . أي :أمركم الله به،وقيل: الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف . أي : لتدخلنه آمنين ، فأما الدخول فلا شك فيه . وقيل :لتدخلن جميعكم أو بعضكم، لأنه علم أن بعضهم يموت ،فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم . قيل : كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منــــه ؛ مع خروجهم عن مدلول القرآن ، فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به ، فإن قول من قال : أي : أمركم الله به ، هو سبحانه قد علم ، هل يأمرهم أو لا يأمرهم ، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلوا ، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً ، وكذلك أمنهم وخوفهم ،هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين ، وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين ، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله ؛ بل ولا عند رسوله . وقول من قال : جميعهم أو بعضهم ، يقال: المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ ، فإن كان أراد الجميع ، فالجميع لا بد أن يدخلوه، وإن أريد الأكثر ، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة ، وما لم يرد لا يجوز أن يعلق بـ(إن)، وإنما علق بـ (إن) ماسيكون؛ وكان هذا وعداً مجزوماً به. ولهذا لما قال

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

عمر للنبي ﷺ عام الحديبية : ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى، أقلت لك: إنك تأتيه هذا العام ؟» قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ومطوف به »[1].

فإن قيل : لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن ؟

قيل : لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي ﷺ من الحديبية ، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام ، واجتهدوا في الدخول، فصدهم المشركون ، فرجعوا وبهم من الألم مالا يعلمه إلا الله ، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام ، إذ كان النبي ﷺ وعدهم وعداً مطلقاً . وقد روي أنه رأى في المنام قائلا يقول : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله)[2] فأصبح فحدث الناس برؤياه ، وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام ، فنزلت هذه الآية ، ووعده لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام . وكان قول: (إن شاء الله) هنا تحقيقاً لدخوله، وأن الله يحقق ذلك لكم؛ كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا ان شاء الله ، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه ، بل تحقيقاً لعزمه وإرادته، فإنه يخاف إذا لم يقل : إن شاء الله ، أن ينقض عزمه، ولا يحصل ماطلبه، كما في « الصحيحين » أن سليمان عليه السلام قال : والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل منهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه : قل: إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل . قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون »فهو إذا قال : إن شاء الله لم يكن لشك في طلبه وإرادته، بل لتحقيق الله ذلك له ، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله ، فإذا تألى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته، لم يحصل مراده ، فإنه من تألى على

---

(١) البخاري وأحمد في حديث صلح الحديبية الطويل

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

الله يكذبه ، ولهذا يروى: لأتممت لقدر أمراً .

وقيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم ،وقد قال تعـالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله)[1] فإن قوله : لأفعلن ، فيه معنى الطلب والخبر ، وطلبه جازم ، وأما كون مطلوبه يقع ، فهذا يكون إن شاءه .وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته ، ففي الطلب عليه أن يطلب من الله ، وفي الخبر لايخبر إلا بماعلمه الله ؛ فإذا جزم بلا تعليق ، كان كالمتألي على الله ، فيكذبهالله ، فالمسلم في الأمر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلبا لا تردد فيه يقول : إن شاء الله ، لتحقيق مطلوبه ، وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله ، لا لتردد في إرادتـه ، والرب تعالى مريـد لإنجاز ما وعدهم به إرادة جازمة لامثنوية فيها ، وماشـاء فعل ، فإنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ليس كالعبد الذي يريد مالا يكون ، ويكون مالا يريد .

فقوله سبحانه : (ان شاء الله)[2] تحقق[3] أن ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي ، فإن ماشئت كان وما لم أشأ لم يكن ، فـكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق ، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام ، وأما سائر مـا وعدوا به فلم يكن كذلك .

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه في اليمين هـذا المعنى : هل يكون مستثنياً به ،أم تلزمه الكفارة إذا حنث ؟بخلاف من ترددت إرادته فإنه يكون مستثنياً بلا نزاع ، والصحيح أنه يكون في الجميع مستثنياً ، لعموم المشيئة ، ولأن الرجل وإن

---

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ (٣) كذا الأصل ولعله « معناه : تحقق»

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

كانت إرادته المخلوق به جازمة، فقد علقه بمشيئة الله ، فهو يجزم بإرادته له ، لايجزم بحصول مراده ، ولا هو أيضاً مريد له بتقدير أن لا يكون؛ فإن هذا تميز لا إرادة ، فهو إنما التزمه إذا شاء الله ، فإذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ، ولا حلف أنه يكون : وإن كانت إرادته له جازمة ، فليس كل ما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه .

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل : (إن شاء الله) يكون مع كمال إرادته في حصول المطلوب، وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله في ذلك، لالشك في الإرادة ، هذا فيما يحلف عليه ويريده ، كقوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام)[1] فإنه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون ، وقد علقه بقوله: (إن شاء الله)[1] فكذلك ما يخبر به الانسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بإرادته وجازم بوقوعه فيقول فيه : إن شاء الله ، لتحقيق وقوعه ، لا للشك لا في إرادته ولا في العلم بوقوعه.

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المعلق ، وقوة إرادة الانسان له . فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء ؛ فيقول : إن شاء الله ،لتحقيق رجاه مع علمه بأن سيكون ؛ كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم أنه يكون ، كما كان النبي ﷺ يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين ، ثم هو بعد هذا يدخل إلى العريش يستغيث ربه ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني »[2] لأن العلم بما يقدره لا ينافي أن يكون قدره بأسباب ، والدعاء من أعظم أسبابه . كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته .

والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض ، وفي الخبر الذي معه طلب ؛ فالأول إذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حضاً ولا منعاً، بل تصديقاً أو تكذيبا ، كقوله :

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

(٢) هو مركب من حديثين الأول عن أنس والآخر عن ابن عمر ، وهما عند مسلم وغيره . وقد خرجتهما في « تخريج فقه السيرة » (ص ٢٣٩ ، ٢٤١ الطبعة الثالثة) .

والله ليكونن كذا إن شاء الله ،أو لايكون كذا . والمستثني قد يكون عالماً بأن هذا يكون أو لا يكون كما في قوله : (لتدخلن)[1] فإن هـذا جواب غير محذوف .

والثاني : ما فيه معنى الطلب ، كقوله : والله لأفعلن كذا ، أو لا أفعله إن شاء الله ؛ فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب ، ولم يقل : والله إني لمريد هذا ولا عازم عليه ، بل قال : والله ليكونن ، فإذا لم يكن فقـد حنث لوقوع الأمر ، بخلاف ما حلف عليه فحنث ، فإذا قال : إن شاء الله فإنما حلف عليه بتقدير : أن يشاء الله ، لا مطلقاً .

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه حنث ، أو متى وجد المحلوف عليه أنه لا يفعله ، حنث ، سواء كان ناسياً أو مخطئاً أو جاهلا ، فإنهم لحظوا أن هذا في معنى الخبر ، فإذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث ، وقال الآخرون : بل هذا مقصوده الحض والمنع ، كالأمر والنهي ، ومتى نهي الانسان عن شيء ففعله ناسياً أو مخطئاً لم يكن مخالفاً ، فكذلك هذا .

قال الأولون : فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب، كقوله : والله ليقعن المطر، أولا يقع ، وهذا خبر محض ، ليس فيه حض ولا منع ، ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه ، حنث ، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل ، فإن اليمين على الماضي غير ، منعقدة فإذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة ، كالغموس ، بخلاف المستقبل . وليس عليه أن يستثني في المستقبل إذا كان فعله . قال تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا .قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

بما عملتم وذلك على الله يسير) [١] فأمره أن يقسم على ما سيكون ، وكذلك قوله : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) [٢] كما أمره أن يقسم على الحاضر في قوله : (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إي وربي إنه لحق) [٣] وقد قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماما مقسطاً » [٤] . وقال : « والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل ، ولا المقتول فيما قتل » [٥] وقال : [اذا] هلك كسرى أو ليهلكن كسرى ، ثم لا يكون كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » [٦] وكلاهما في « الصحيح » .

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل في مواضع كثيرة بلا استثناء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة التغابن ، الاية : ٧ (٢) سورة سبأ ، الآية : ٣

(٣) سورة يونس ، الاية : ٥٣

(٤) متفق عليه ، ونزول عيسى عليه السلام متواتر يجب الايمان به ، ولا يغتر بمن يزعم أنه حديث آحاد ، فانه ليس من اهل العلم بهذا الشأن ، كيف ذلك وقد استخرجت له انا بنفسي عشرين طريقا عن عشرين صحابيا بأكثر من عشرين سنداً صحيحاً ؟ !

(٥) رواه مسلم (١٨٣/٨) (٦) متفق عليه



الفهرس

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣	١٨	و كذلك	ولذلك
٢٣	١٨	وضعه	بوضعه
٤٠	٢	لا يحتاج	مالا يحتاج
٤١	١٩	مومو بقها	موبقها
٤٤	١١	وأغلظ	واغلظ
٥٠	١٠	البيان	للبيان
٥٠	١١	في وصف	وصف
٦٤	٩	عنده إلا	عنده
٦٦	١٤	لمن يظلم	لمن لم يظلم
٧١	١	يقط	يسقط
٧٥	١٨	فالمولودا	فالمولود
٨٢	٦	الحيوات	الحيوانات
٨٤	١	وكلمه الله	وكلمة الله هي
٨٤	٩	يكتب الله	يكتب الله له
٩٣	٢٠	متواضغين	متواضعين
٩٣	٢٢	ابن أني باندنيا	ابن أبي الدنيا
٩٨	١٢	تحب	تجب
١٠١	١٨	أحدهما	أحدها
١١٠	١٩	انتفتاء	انتفاء
١١٧	١١	فساه	فساد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٧	١٥	بالسان	باللسان
١١٧	٢٣	كرم	كرّام
١١٨	١٥	إذا	إذ
١٢٠	١٦	لواجبه	الواجبة
١٢٦	٢٤	وتحامها	وتمامها
١٣١	١٣	قالب	قالت
١٣١	٥	يناقص	يناقض
١٥١	١٩	يبر كوا	يتركوا
١٥٢	١٧	وتي	أوتي
١٥٥	٢	صفانه	صفاته
١٦٠	١٢	لتخطف	تتخطف
١٦١	٦	جاهل	جاهلا
١٦٣	٢١	أومات	ومات
١٦٦	١	ميكان	ميكال
١٨٣	١٦	كايمانه	كايمان
١٧٦	٥	هم)(١)	)(١) هم
١٧٦	٢٢	وإذ	وإذا
١٧٩	٨	يعلوا	يعلمون
١٧٩	٨	اعتقوا	اقتلوا
١٧٩	٩	اولم يؤمروا	لم يؤمروا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٨	٤	بعد	بن
١٨٩	(استدراك : حديث (ثلاث من كن فيه . . .) ضعيف . وحديث (أربع من الشقاء . . .)ضعيف أيضاًأوموضوع) .		
١٩٣	٩	الهدايا	الهداية
١٩٤	٥	عنه	منه
٢٠٤	١٠	إن	فإن
٢٠٥	١	وياب	ويثاب
٢٠٥	٥	صاقين	صادقين
٢٠٦	١٠	ستنفروا	استنفروا
٢٠٦	١٧	بالعذارت	بالعذرات
٢٠٨	٢	اقتلوا	اقتتلوا
٢١٣	٣	أبو خثيمة	أبو خيثمة
٢١٨	١٤	وأحي	وأوحي
٢١٩	١٣	إيما	إنما
٢٢٦	٢٠	نابتان	ثابتان
٢٢٩	٦	آلم	ا لم
٢٣٠	١٣	خير	خيرا
٢٣١	١	ينالوه	ينالوا
٢٥٣	١٠	بالتوحد	بالتوحيد
٢٥٥	١٩	لوجه	الوجه
٢٥٨	٦	وأن	وإن
٢٥٨	١٠	والساق	والسارق
٢٥٩	١	أعمال	أعمالاً
٢٦٢	١٠	المعاذ	المعافى
٢٦٣	٥	ذريع	زريع
٢٧٠	٢٢	العبادله	العبادلة
٢٧٠	٢٢	ابن ذهب	ابن وهب
٢٨٠	٢٠	لمرجئة	المرجئة
٢٨٧	٥	يدخولون	يدخلون
٢٩٠	١١	ببب	بسبب
٢٩٥	٨	يحتها	تحتها
٢٩٧	١٧	الناو	النار
٣٠١	٤	لكبائر	الكبائر
٣٠٣	١٥	إلى	إليّ
٣٠٦	١	الخطبي	الخطابي
٣٠٧	٢	فلم	فلن
٣١٠	٣	الثلث	الثالث
٣١٠	٧	للسلف	السلف
٣١٠	١٤	لله	الله
٣١١	١١	لممدوح	الممدوح
٣١١	١٦	لا يحب	لا يجب
٣٣١	١٠	عمل	وعمل
٣٣٣	٤	وغير	وغيره
٣٣٥	٨	وإن	وإلا
٣٣٥	١١	منصف	مصنف
٣٤٨	١٤	كمال	كما
٣٥٧	١٤	بأن	بأنه
٣٦١	٥	محمد	محمداً
٣٧٧	١١	إلى	إليّ

صدر حديثاً

مساجلة علمية

بين

الإمامين الجليلين العز بن عبد السلام وابن الصلاح

حول

صلاة الرغائب المبتدعة

بتحقيق

محمد ناصر الدين الألباني و محمد زهير الشاويش

تحت الطبع

خلاصة

فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية

بقلم تلميذه

العلامة محمد بن عبد الهادي المقدسي